

حَضْرَةُ الثَّقَافِيَّةِ

محرم ١٤٣٩ هـ - September - 2017 Hadhramaut AL-Thaqafiah Magazine

مجلة فصلية - السنة الثانية العدد (5)



علوي بن طاهر
الحدّاد مؤرخاً



صفحة من الذكريات
مع الأستاذ المؤرخ
محمد بامطرف



المحسن الشيخ
أحمد بن محمد بغلف



جماليات الالتفات
في (يا رب سالك)
لحدّاد بن حسن الكاف

◀ الصراع القبلي في حضرموت
في القرن الثالث الهجري

◀ ورقة نقدية حول تنقيب
البعثة الفرنسية في شرمة

◀ زيارة الطواشي الصيني
تشيونغ خه إلى ظفار

◀ إله القمر
في العملة الحضرمية

◀ لقاء العدد :
مع الأستاذ التربوي
عبدالله هاشم

◀ ملاحظات على معجم
شعراء العامية الحضارمة

من أعلام حضن موت



الأديب والمؤرخ العلامة
صالح بن علي الحامد

بريشة: سالم باسليم

محتويات العدد

حديث البداية

- خواطر لزمن آتٍ أ. محمد بن سالم بن علي جابر 4

أصوات

- من وثائق تاريخ حضرموت..... أ.د. عبدالله سعيد الجعدي ... 10
- الصراع القبلي في حضرموت في القرن الثالث الهجري عبدالكريم محروس ميزان... 14
- الطواشي الصيني تشينغ خه في زيارة ظفار أنور حسن السكوتي... 17
- مصنعة آل العمودي بوادي دوعن معلم تاريخي وسياحي محمد سالم بن صويلح... 20

تراث واثار

- قيمة تراث الأجداد للأبناء وأهميته د. صادق عمر مكنون... 22
- عادات البناء في مدينة شبام د. محمد صالح بلعفير... 24
- ورقة نقدية حول تقرير البعثة الفرنسية للتنقيب في شرمه سالم فرج مفلح... 27
- تدوين ما تجاهله المدونون من الحكايات الشعبية أحمد عمر مسجدي .. 34

ترجمة

- إله القمر في العملة الحضرمية د. خالد عوض بن مخاشن... 40

شخصيات

- من الأعلام الحضرمية في المدينة المنورة السيد صافي بن عبدالرحمن الجفري... د. خالد حسن الجوهرى ... 42
- المحسن الكبير الشيخ أحمد بن محمد بن سعيد بقلفا..... محمد علوي باهارون... 46
- الأستاذ عثمان أبوبكر باعمر العمودي رائد التعليم الحديث في دوعن ١٩٣٠م يوسف عمر باسنبل... 48
- أعلام من النساء الحضرميات عادل حاج باعكيم... 51

حوار العدد

- لقاء مع الأستاذ التربوي عبداللّاه هاشم عبدالعزيز محمد بامحسون ... 55

دراسات

- ملاحظات على معجم شعراء العامية الحضارمة أ.د. عبدالعزيز سعيد الصيغ ... 59
- علوي بن طاهر الحداد مؤرخاً د. محمد أبو بكر باذيب... 65

مدارات

- عن المقبولية الفنية في رواية: (عمر يظهر في القدس) لـ " نجيب الكيلاني " د.أحمد سعيد عبيدون ... 70
- الشعر بين التلوّث والفقدان عبدالله علي باسودان... 72
- شعر حسين بن محمد البار (دراسة أسلوبية) أحمد العامري ... 76

كتابات

- شيء من البرّ في ذكرى حسين البار نجيب سعيد باوزير ... 78
- صحراية كأنها غابجرا! د. سعيد سالم الجبري... 83
- انهمارات حضرمية سالم العبد الحمومي... 84
- صفحة من الذكريات مع الأستاذ محمد عبد القادر بامطرف سعيد سبتي ... 85

نقد

- أصداء من "أصداء" للشاعر حسين محمد البار أ.د. عبدالله حسين البار 90
- مقدمة باعيسى لاستئناف الكلمات (في توصيف الشعر الحضرمي) د. أحمد هادي باحرثة... 97
- جماليات الالتفات في (يا رب سالك) لحداد بن حسن الكاف زهير برك الهويمل ... 103

حكايات

- حكايات من المشقاص فائز محمد باعباد... 107

إبداع

- مأساة بقرة (سرد) حسين حسن بن عبيدالله السقاف... 108
- ملامح (قصيدة) أبو بكر محمود باجابر... 110
- للجرح أغنية أخرى (قصيدة) عبدالله باكرمان... 111
- شبار الشوك (قصيدة) د. هيثم كامل الزبيدي -العراق... 112
- المرحوم غلطان أ.د. عبدالله سعيد الجعدي... 114

حضر موت الثقافي

مجلة فصلية

السنة الثانية العدد (5)

يوليو - سبتمبر 2017م

تصدر عن مركز حضرموت

للدراستات التاريخية والتوثيق والنشر

صاحب الامتياز

الأستاذ محمد سالم بن علي جابر

المشرف العام

أ.د. عبدالله سعيد بن جسر الجعدي

رئيس التحرير

د. عبدالقادر علي باعيسى

السكرتير الفني

حسن أحمد بلجعد

الصور

م.عبدالله جمال بن عبدالعزيز

التدقيق اللغوي

د. جمال رمضان حديجان

الهيئة الاستشارية

أ.د. عبدالله حسين البار

أ.د. ناجي جعفر الكثيري

أ.د. مسعود سعيد عمشوش

أ.د. خالد يسلم بلخشر

د. طه حسين الحضرمي

د. أحمد سعيد عبيدون

د. صادق عمر مكنون

- المواضيع المنشورة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- ترتيب المواد جاء وفق ضرورات فنية إخراجية.
- المجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تتسلمها للنشر.
- سواء نُشرت أم لم تُنشر.
- المجلة لا تتزعم بنشر المقالات المرسلة إليها بخط اليد.

مراسلات المجلة

hc.magazine16@gmail.com

Baesa-1@hotmail.com

موقعنا على الشبكة الإلكترونية

www.hadramout.center

العنوان : المكلا - بإجمعان عمارة بن سواد - ت. ٥٠١٢٥

خواطر لزمن آتٍ

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

نعودُ مجدداً في العدد الخامس من (مجلة حضرموت الثقافية) لنواصل رحلة الحرف المضنية والكلمة المشعة، وعياً وثقافةً، رؤيةً واستشراً، نلتقي على صفحات هذا العدد الذي بكم ومعكم استطعنا أن نتجاوزَ تعثر البدايات لهذا المشروع الثقافي والحضاري لحضرموت - وطناً وإنساناً، إراثاً وحضارة وتراثاً فقد آلىنا على أنفسنا منذ انطلاقتنا الأولى في مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر ومن خلال كل البرامج وخطط التوثيق والأنشطة والفعاليات والإصدارات استعادة ألقها وحضورها في الذاكرة الجمعية المحلية الوطنية أولاً وفي فضاء المهاجر الحضرمية ثانياً وفي كل بقاع المعمورة ما استطعنا إلى ذلك قدرةً وسبيلاً.

ونحن ندرك اليوم - إن الطريق لم يزل صعباً وشاقاً وطويلاً، ولكن الآمال والطموحات التي نحملها على كاهلنا في المركز وعمق الرسالة الحضارية وتعدد الأهداف النبيلة التي نسعى جادين من أجل بلوغها وتحقيقها تدفعنا جميعاً إلى خوض غمار تحديات الراهن بكل ما يحمله من صعوبات ومعوقات وما عاشته حضرموت في السنوات القريية الفائتة من تهميش وغبن وتفتيت لكل إرثها الحضاري وعلائقها الإنسانية ووطناً ومهجراً وما عانت منه وسائطها المعرفية والإبداعية من تحجيم وتراجع في المشهد العام المحلي والعالمي ليتلاشى حضور حضرموت (الحضارة والتاريخ والتراث المجيد) فتتكفى على ذاتها سنوات عديدة، كانت بمثابة تراجع مخيف لهذه الأيقونة الحضارية التي نثرت أريج وسطيتها وعبير اعتدالها ونبيل سماحتها الإسلامية في مشرق الكون وغربه فصارت هذه السنوات العجاف وبالأعلى كل ما قدمته من نمذجة في تاريخ الحضارة الإنسانية الحديث والمعاصر.



الأستاذ:

محمد بن سالم بن علي جابر



ولأننا نعي تماماً ما تمثله هذه اللحظة من فرص حقيقية لكل حضرموت لكي تستعيد نبضها ووعيها وحضورها الذي فقدته في غفلة من زمن حضرمي مجيد وأصيل فإننا آثرنا فقط أن نحرك السواكن في كل أرجاء حضرموت ونجتهد لكي نقتفي آثار وقعها في كل المهاجر الحضرمية، وهذا لن يتأتى لنا إلا إذا خلصت النوايا وتكاتفت الجهود وتشابكت الأيدي وتعاضدت القلوب للنهوض من كبوة السلبية والخروج من عنق الاتكالية والتقاط الفرص المتاحة بحكمة واقتدار وحنكة وعطاء للوصول إلى لحظة التعالق الإنساني والعمق الحضاري الذي كان عنوان حضرموت الأبرز في سنوات مجدها التليد.

إننا جميعاً في حاجة إلى نفث غبار السنين التي مضت، والعمل على تعويض حضرموت الثقافة والتاريخ والحضارة والتراث الكثير، فالأمم لا تستطيع مواجهة تحديات الحاضر والمستقبل إلا إذا امتلكت مشاريعها النهضة الخالصة والمنبثقة من عمق تاريخها وأصالتها وتراثها وفولكلورها الإنساني الذي شكل هويتها ماضياً وحافظ على كيانه حاضراً وسيكون رافداً مهماً من روافد نهج انطلاقتها مستقبلاً.

هذه خواطر وددت في هذه السانحة أن أضعها بين يديك عزيزي القارئ قبل أن تتصفح ما احتضنته صفحات هذا العدد من تغطيات ومقالات واستطلاعات وبحوث ودراسات وحوارات وإبداعات متعددة ومتنوعة كانت حصداً مثمرًا للعديد من الزملاء الذين يحرصون معنا على استمرار هذه الرسالة الثقافية التي تجاوزت والحمد لله - الوطن الحضرمي لتجوب الآفاق المهجرية والعربية في محاولة راسخة الخطى وعميقة الدلالة مفادها أن (حضرموت هنا) وستظل تحمل عبق التاريخ وروح الأيام الحضرمية وتنشرها مجدداً، فلهم جميعاً كل الشكر والتقدير، كما لا يفوتني كذلك أن أتقدم بدعوة الجميع إلى المساهمة في الأعداد القادمة، فصفحات مجلة حضرموت الثقافية يفتح منها وهامشها وترحب أسطرها بكل مشاركة جادة ورصينة ومبدعة. وإلى اللقاء في العدد القادم.



ضمن نشاطات مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

ندوة علمية عن: المعالم الحضارية في مملكة حضرموت القديمة



ندوة علمية بعنوان

المعالم الحضارية لمملكة حضرموت القديمة

يوم الاثنين الموافق ١٠ يوليو ٢٠١٧م - الساعة الثامنة صباحاً

نظم مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر يوم الاثنين ١٠ يوليو ٢٠١٧م ندوة علمية بعنوان "المعالم الحضارية في مملكة حضرموت القديمة حتى فجر الإسلام" بقاعة نادي متطوعون بالمكلا- أسهم فيها عدد من الباحثين والأساتذة المختصين من جامعتي عدن وحضرموت والمراكز البحثية المهمة بالتراث والهيئة العامة للآثار والمتاحف.



والمتاحف والمخطوطات بـسيؤون والدكتور محمد عوض باعليان الأستاذ بقسم الآثار بكلية الآداب جامعة عدن.

هذا وقد حضر الندوة الدكتور عبد الباقي الحوثيري مدير عام مديرية المكلا وعدد من الباحثين والمهتمين وطلاب قسم التاريخ والدراسات العليا بكلية الآداب جامعة حضرموت.

وفي اختتام الندوة خرجت بالتوصيات الآتية:

١- إصدار سجل عام بالمواقع الأثرية بحضرموت من قبل السلطة المحلية بالمحافظة يرفق بقرار ينص على منع الاعتداء على أي موقع تراثي حضرمي



٧- رسم خارطة معتمدة وموثقة من قبل الجهات المعنية للمواقع الأثرية الحضرمية.



وقد ألقى الأستاذ الدكتور عبد الله سعيد الجعدي رئيس المركز كلمة في مستهل الندوة قال فيها: (إن هذه الندوة العلمية ماهي إلا إطلالة منهجية على بحر زاخر وعميق يمتد في الزمان إلى أكثر من عشرة قرون صنع خلالها الإنسان الحضرمي إسهاماته الحضارية الإنسانية قبل بزوغ نور الإسلام).

ومن أبرز المشاركين في الندوة الأستاذان الدكتور أحمد باطابع ، والدكتور جمال الدين إدريس أستاذ الآثار بكلية الآداب جامعة عدن والأستاذ الدكتور محمد بن هاوي باوزير أستاذ تاريخ اليمن والجزيرة العربية القديم بجامعة عدن والدكتور محمد صالح بلعفير أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة عدن والدكتور حسين أبوبكر العيدورس الباحث في الهيئة العامة للآثار



7

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

تأسيس قواعد الدولة الحديثة بحضرموت في القرن السادس عشر الميلادي



دخول سلاح الـ (بوقتيلة) كأول سلاح ناري تعرفه حضرموت مكّنه من هزيمة أعدائه المحليين الذين كانوا يقاتلون بالسلاح التقليدي (السيف والسهم).
كان ذلك الإنجاز الضخم خلال خمسين عاماً قضاها السلطان بدر بو طويرق مسيطراً على حضرموت كلها في المدة من عام ١٥١٩ - ١٥٦٨ ميلادية. وقد تلت المحاضرة نقاشات قيمة أسهم بها عددٌ من أساتذة التاريخ ومسؤولو المراكز البحثية التاريخية بالمكلا، والمهتمون، والطلبة أسهمت في إثراء المحاضرة وغرلة بعض أفكارها.

في ذلك الوقت من حيث سك عملة محلية، وبناء مدرسة نظامية سميت بالمدرسة البدرية، وإجراء ترتيبات دفاعية عسكرية شاملة لحضرموت ساحلاً ووادياً، وإنشاء مؤسسات وقفية، والاستفادة من رجالات العلم، والفقه، والقضاء، والمجتمع، والسياسة الحضارمة من مختلف النواحي بحيث تمكن من مد نفوذه على حضرموت بثقة عالية مستفيداً في الوقت نفسه عسكرياً من بعض العناصر المملوكية والبلـرتغالية والعثمانية والزيدية، واليايفية، والكفاءات القبلية المحلية، ومن

لما أسهمت به الدولة الكثيرة من أثر في تاريخ حضرموت الحديث والمعاصر، ولامتدادها الزمني الطويل نسبياً والذي بلغ بها في مرحلة من المراحل أن تضم حضرموت كلها تحت نطاقها في عهد السلطان بدر بو طويرق، ولكون هذه الشخصية فريدة بين الحكام الحضارم بقيامها بهذا التوحيد الذي لم يقدر عليه أي حاكم حضرمي عبر التاريخ إلى عهده، فقد أولى مركز حضرموت للدراسات التاريخية والنشر عناية خاصة بهذه الدولة في طورها الأول والثاني، فنظّم محاضرة للمتخصصين والمهتمين وطلاب التاريخ والجمهور عامة يوم الأحد بتاريخ ١٣ / ٨ / ٢٠١٧م قدمها الأستاذ يسلم صالح بن دهلوس بعنوان (جهود السلطان بدر بن عبدالله بو طويرق الكثيري في تحديث قواعد الدولة الكثيرة ١٥١٩ - ١٥٦٨ ميلادية) تطرق فيها إلى إسهامات هذا السلطان الفريدة في محاولته تأسيس قواعد دولة حديثة في حضرموت

اجتماع اللجنة العلمية الرابع بمركز حضرموت

الأبحاث العلمية وتحكيمها والقيام بالإجراءات الأكاديمية اللازمة الخاصة بالمؤتمر.

كما أقر الاجتماع طباعة كتاب (الدولة الكثيرة في حضرموت في عهد بدر بن طويرق الكثيري) للأستاذ يسلم دهلوس، وإعادة طباعة كتاب (عادات حضرموت الغربية) للمستشرق الروسي ميخائيل رودينوف ترجمة أ.د. علي صالح الخلاقي.

ومن ناحية أخرى أقر اجتماع اللجنة العلمية توثيق مساجد المكلا الأثرية وبيوتها القديمة بالصوت والكاميرا لاسيما بيوت التجار لما فيها من عناصر معمارية قديمة، وفي هذا السياق أقر الاجتماع القيام بزيارة علمية إلى مدن وادي حضرموت في أكتوبر من هذا العام ٢٠١٧م ينظم خلالها عدد من المحاضرات واللقاءات والتشاورات العلمية، وأن يعمل المركز على ترجمة كتاب إلى كتابين عن حضرموت سنوياً مما يكتبه المستشرقون والرحالة الأجانب أو ينبثق عن مؤتمرات الاستشراق عن حضرموت.

هذا وقد استعرض المجتمعون في بداية الاجتماع التقارير الدورية العلمية لإدارات المركز وهي إدارة الأبحاث والدراسات، وإدارة العلاقات العامة والترجمة، وإدارة التوثيق التلفزيوني والسينمائي، وإدارة الوثائق والمخطوطات، وإدارة الإعلام والثقافة.



عقدت اللجنة العلمية بمركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر اجتماعها الرابع برئاسة أ.د.عبدالله سعيد الجعدي بمقر المركز بالمكلا ناقشت فيه وأقرت عدداً من الموضوعات والقضايا المدرجة في جدول أعمالها والمتعلقة بتاريخ حضرموت من أهمها:

عقد المؤتمر الدولي الثاني (التاريخ والمؤرخون الحضارمة في القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي) كتقليد سنوي يعقد بنهاية كل عام يتناول قرناً معيناً من تاريخ حضرموت، أو قروناً عدة، أو حدثاً بارزاً، على أن ينعقد المؤتمر لهذا العام في المدة من ١٨ إلى ١٩ ديسمبر ٢٠١٧ وفي هذا السياق أقر المجتمعون تشكيل لجنة علمية للمؤتمر من د. محمد صالح بلعفير رئيساً، وعضوية كل من أ.د. عبدالله سعيد الجعدي، و د. محمد يسلم عبد النور، يناط بها استقبال



ينظمها مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

انعقاد حلقة نقاش بعنوان : (الترجمة في حضرموت وأفاق تطورها)



بحكم القلق المعرفي الذي ما زال يراود مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بشأن الكم الهائل من الكتابات عن حضرموت والحضارة باللغات الأجنبية انعقدت يوم الأحد ٢٧/٨/٢٠١٧م حلقة النقاش التي أقامها المركز بعنوان (الترجمة في حضرموت وأفاق تطورها) بنادي المعلم بمدينة سيئون حيث سجلت الحلقة حضوراً جاداً لهذا القلق من خلال العنوانات والمداخلات والنقاشات التي شهدتها إذ عرضت لرسم

النقاش بينهم أكثر قلقاً وتفاعلاً وكان حضور الأستاذ محمد سالم بن علي جابر المشرف العام على مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر لجلسات حلقة النقاش وعدد من الضيوف أثر في إضفاء روح من المسؤولية والجدية على الطروحات المقدمة لما فيه خدمة حضرموت وتقدمها على أسس علمية سليمة.

هذا وقد حضر حلقة النقاش جمهور نوعي من الأساتذة والمهتمين جاء



وفي ختام الحلقة خرجت بعدد من التوصيات أبرزها:

- التسريع بإنشاء كلية الألسن في جامعة حضرموت.
- تأسيس منتدى خاص بالترجمة وعقد دورات مستدامة فيها.
- الاهتمام بترجمة ما كتب عن حضرموت لاسيما باللغات الانجليزية والسواحلية والمالوية.



خارطة طريق للترجمة، ولتجربة الترجمة في حضرموت، ولبعض التجارب العملية في الترجمة، وأهمية الانتقاء فيها، ومراوحتها بين الواقع والمأمول، فضلاً عن مناقشة موضوع الترجمة من خارج الدائرة الحضرية، نهض بها عدد من الأساتذة الأكاديميين والمختصين.

الإعداد لكتابة الموسوعة الحضرية

والاستفادة من إمكانية المراكز العلمية والشخصيات العلمية والاعتبارية المعروفة في حضرموت والمهاجر.

ضمن النشاطات التي يوليها مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر اهتمامه وعنايته بإصدار الموسوعة

الحضرية عن أعلام وبلدان وقبائل حضرموت ومهاجريها ودورها في التاريخ القديم بدءاً من تأسيس مملكة حضرموت القديمة حتى عام ٩٦٧م مشكلاً لذلك لجاناً عاملة يرأسها رئيس المركز أ.د. عبدالله سعيد الجعدي وعضوية عدد من الأساتذة المختصين في التاريخ والجغرافيا ويتوقع أن يبدأ العمل فيها قريباً مع مطلع العام القادم ٢٠١٨م حيث يتم تجهيز الإجراءات التنظيمية والإدارية واللوجستية لإنشاء الموسوعة





9

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

الشيخ عبدالله بقشان في زيارة إلى فرع مركز حضرموت بالقاهرة

موسوعة شاملة تحكي تاريخها وتراثها وتعرف بأعلامها وبلداتها، كما قدم المركز عرضاً عن خطته في مجال الإنتاج الإعلامي الذي يستهدف التعريف بحضرموت المكان وحضرموت الإنسان من خلال الأفلام الوثائقية والدورات البرمجية، كما شهد الحديث عدداً من النقاط التي تبلورت عن الشخصية الحضرمية وأهمية دراستها ودراسة أسباب ومقومات نجاحها، ونمذجة التجربة الحضرمية في المهجر، كما قام الشيخ عبدالله بقشان والوفد المرافق له بجولة في المركز تعرفوا من خلالها على أقسامه



المختلفة، وفي نهاية اللقاء قدم المركز للشيخ عبدالله بقشان والضيوف الكرام نسخاً من مجلة حضرموت الثقافية وبعض إصدارات المركز.

قام مساء السبت الموافق ١٦ سبتمبر ٢٠١٧ الشيخ عبدالله بقشان يرافقه معالي المهندس بدر باسلمة وزير النقل السابق، وسعادة الدكتور أحمد عمر بامشموس الرئيس السابق لجامعة حضرموت، وعدد من منسوبي مؤسسة حضرموت للتنمية البشرية، بزيارة لمركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق للنشر بالقاهرة وكان في استقباله والوفد المرافق له الشيخ محمد بن سالم بن علي جابر المشرف العام، والأستاذ أحمد فضل حسين مدير المكتب، والدكتور إيهاب عبدالسلام مدير إدارة النشر.

وقد اطلع الوفد خلال الزيارة على أهداف المركز وطموحاته ومشاريعه القائمة والمستقبلية، وناقش الشيخ عبدالله بقشان مع المشرف العام للمركز مشروع الموسوعة الحضرمية والتحضيرات التي يقوم بها المركز مؤكداً أن الوقت قد حان ليكون لحضرموت

حلقة نقاش بمناسبة الذكرى الخمسين لإسقاط السلطنة القعيطية

العالى الأسبق ومدير عام مركز الرشيد للتنوير والتدريب والدراسات بمدينة عدن بإضافة وكشف قضايا أخرى من خلال مداخلته القيمة، هذا وقد أسهم أ. صالح حسين الفردي بإثارة عدد من الأسئلة التي ستكشف إجاباتها مستقبلاً من خلال الدراسات والتقاضي البحثي عن حقائق جديدة بحاجة إلى كشف، وقد تلت المحاضرة والمداخلات نقاشات أسهمت في تعزيز وتوضيح الأفكار المطروحة على طاولة النقاش والتحليل.

بعض النتائج والحقائق التي ربما يكشف عنها لأول مرة فيما يتعلق بإحداثيات هذا السقوط المثيرة وأسبابه، مما أثار

انتباه الحاضرين وتركيز اهتمامهم على نوعية الأفكار المطروحة في المحاضرة التي امتدت بانسجام رائع من الساعة السادسة والنصف إلى العاشرة مساءً

حضرها عدد من أساتذة التاريخ والمهتمين والمناضلين، لا سيما أنه أسهم بعد أ.د. محمد سعيد داؤود الأستاذ. د. صالح علي باصرة وزير التعليم



كان حضور كثيف ونوعي اكتظت به قاعة نادي متطوعون بالمكلا مساء يوم الاثنين ١٨ / ٩ / ٢٠١٧م لسماع حلقة نقاش خاصة بمناسبة الذكرى الخمسين لإسقاط السلطنة القعيطية بيد ثوار الجبهة القومية في ١٧ سبتمبر ١٩٦٧م نظمها مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر وقدمها أ.د. محمد سعيد داؤود أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة حضرموت فصل فيها عبر آليات التحليل المنهجي والتأملي كثيراً من القضايا المتعلقة بأحداث السقوط كاشفاً عن



من وثائق تاريخ حضر موت

(وثيقة صلح وترسيم حدود بين عقلاء (مقادمة) حارات مدينة الشهر ١٩٥٣م)

إن الوثائق مثل النجوم
تستمد ضياءها من
ذاتها، لكنها لا تبخل
بنورها على من اقترب
منها، وحاول استنطاقها

في حدود الحويف في البيوت والعائلات وذلك لأجل تقوم كل حافة بموجباتها في الأفراح والأحزان مباشرة لأننا إذا أشرطنا الحويف مع بعضها البعض في الموجبات قد يمكن يحصل تساهل بأسباب أن كل حافة تتكل على الحافة الأخرى .
(٤) جميع الألعاب الشعبية التي تدعى لها الحاجة عند الحويف المذكورة في أوقات المناسبات بالعدد والزفاف والشبواني وغير ذلك فللحكومة الحق في أن تعطى لكل حافة الحرية الكاملة في استمرار الألعاب المذكورة في الشوارع الرئيسية أو غيرها في مدينة الشهر أو بأي طريقة تراها الحكومة مناسبة للظروف والأحوال .

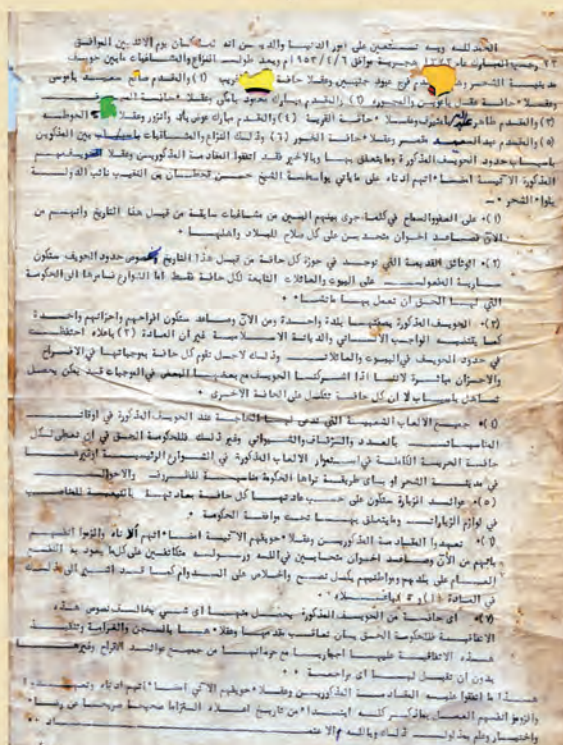
(٥) عوائد الزيارة ستكون على حسب عادتها كل حافة بعادتها بالتبعية للمنصب في لوازم الزيارات وما يتعلق بها تحت موافقة الحكومة .
(٦) تعهدوا المقادمة المذكورين وعقلاء حويفهم الآتية إمضاءاتهم أدناه وألزموا أنفسهم بأنهم من الآن وصاعد إخوان متحابين في الله ورسوله متكاتفين على كل ما يعود به النفع العام على بلدهم ومواطنيهم بكل نصح وإخلاص على الدوام كما قد أشرير إلى ذلك في المادة (١) و (٢) بأعلاه .



أ.د. عبدالله سعيد الجعدي

نص الوثيقة

الحمد لله وبه نستعين على أمور الدنيا والدين، إنه لما كان يوم الاثنين الموافق ٢٢ رجب المبارك عام ١٣٧٢ هجرية الموافق ١٩٥٣ / ٤ / ٦ م، وبعد طول النزاع والمشاعات ما بين حويف مدينة الشهر وهم المقدم فرج عبود جنيين وعقلاء حافة عقل باغريب (١) والمقدم صالح سعيد باموسى وعقلاء حافة عقل باعوين والمجورة (٢) والمقدم مبارك محمود بامكي وعقلاء حافة المجرف (٣) والمقدم طاهر عبدالله بامتيرف وعقلاء حافة القرية (٤) والمقدم مبارك عوض وانزور وعقلاء حافة الحوطة (٥) والمقدم عبد السيد مقمر وعقلاء حافة الخور (٦)، وذلك النزاع والمشاعات بين المذكورين بأسباب حدود الحويف المذكورة وما يتعلق بها وبالأخير فقد اتفقوا المقادمة المذكورين وعقلاء حويفهم المذكورة الآتية إمضاءاتهم أدناه بواسطة الشيخ حسن قحطان بن النقيب نائب الدولة بلواء الشهر :
(١) على العفو والسماح في كل ما جرى بينهم البين من مشاعات سابقة من قبل هذا التاريخ وأنهم من الآن فصاعد إخوان متحدين على كل صلاح للبلاد وأهلها .
(٢) الوثائق القديمة التي توجد في حوزة كل حافة من قبل هذا التاريخ بخصوص حدود الحويف ستكون سارية المفعول على البيوت والعائلات التابعة لكل حافة فقط أما الشوارع فأمرها إلى الحكومة التي لها الحق أن تعمل بها ما تشاء .
(٣) الحويف المذكورة بصفتها بلدة واحدة ومن الآن وصاعد ستكون أفراسهم وأحزانهم واحدة كما يقتضيه الواجب الإنساني والديانة الإسلامية غير أن المادة (٢) بأعلاه احتفظت





11

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م



التحقيق والتعليق

علم التاريخ معني بدراسة الحركة البشرية بكل تجلياتها، وعندما نقول الحركة البشرية نقصد دراسة ماضي الإنسان في كوكب الأرض، فهو وحده الذي له تاريخ بمعنى لها حركة تطويرية واعية غير غريزية. وقد تعددت الموضوعات التي تناولتها المؤلفات التاريخية العربية والإسلامية، ففي حين حظي التاريخ السياسي بنصيب الأسد من اهتمامات المؤرخين، فقد عني البعض منهم بجوانب معينة مثل تاريخ المدن، أو وفيات الأعيان، وهناك من عني بتاريخ المذاهب والفرق أو تاريخ الحمقى والمغفلين، وغيرها من الموضوعات، وفي العصر الحديث ومع ظهور المناهج العلمية الحديثة فتحت مجالات لقراءات عميقة للعلوم الإنسانية بعد أن تفرعت منها علوم تخصصت في دراسة نواح عميقة من الحياة الاجتماعية لما لها من أهمية في فهم شخصية المجتمعات، وهويتها الثقافية.

يدخل موضوع هذه الوثيقة في ضمن التاريخ الاجتماعي لمدينة الشحر الحضرية، وهي محفوظة في مكتبة الوثائق (الالكترونية) لمركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، بعد أن تكرم رؤساء حارات المدينة (المقادمة) بإعطائها لفريق المركز المختص مع وثائق أخرى مشابهة لغرض تصويرها، وحفظها قبل أن تتلف أو تضيع لأي سبب من الأسباب، والوثيقة المراد دراستها تم طباعتها بالة الطباعة القديمة نقلًا عن النسخة الأصلية، ويعزى ذلك إلى حرص أصحابها على حفظها قبل تعرضها للتلف التام، وقد حافظت النسخة المطبوعة على نص الوثيقة الأصلية، لكنها خلت من توقيع المتعاقدين والشهود للمسافة الزمنية بين كتابة الوثيقة الأصلية والوثيقة المطبوعة، ومما يزيد ثقتنا بأصالة

(٧) أي حافة من الحويف المذكورة يحصل منها أي شيء يخالف نصوص هذه الاتفاقية فللحكومة الحق بأن تعاقب مقمّمها وعقلاءها بالسجن والغرامة وتنفيذ هذه الاتفاقية عليها إجباريا مع حرمانها من جميع عوائد الأفراح وغيرها بدون أن تقبل لها أي مراجعة.

هذا ما اتفقوا عليها المقادمة المذكورين وعقلاء حويفهم الآتي إمضاءاتهم أدناه وتعهّدوا وألزموا أنفسهم العمل بما ذكر كله ابتداء من تاريخ أعلاه التزاماً صحيحاً صريحاً عن رضا واختيار وعلم بمدلول ذلك وبالله الاعتماد.

حافة عقل باغريب
إبهام المقدم فرج عبود جنيبن
إمضاء العبد بن فرج باحبارة
إمضاء محفوظ محمد الصبّان
إبهام سعيد عبد الله باحميد
إبهام عمر عبد الله بومهدي
إبهام سعيد عبيد باسويد
إبهام عبد الله عوض بامعرفة
إبهام سعيد خميس فرحان
إبهام علي جمعان باحبارة
حافة القرية
إبهام المقدم طاهر بن
عبد الله بامتيرف
إبهام مبروك سالم حنين
إمضاء عبيد سالم بامسعود
إبهام سعيد سالم بن رمدان
إبهام خميس عوض بن دحمان
حافة الحوطة
إمضاء المقدم فرج سعيد بدية
إمضاء أحمد عوض طيب
إمضاء عوض سعيد الهندي
إمضاء عبد الرحمن طيب

حافة المجرف
إبهام المقدم مبارك عبيد باميكي
إبهام سالم عوض عبولان
إبهام عبود صالح بن رمدان
إبهام عبد الله سالم بن دحمان

حافة الخور
إبهام المقدم عبد السيد مقمر
إمضاء محمد عبد الله بن عقيل
إبهام سالم خميس برعية
إبهام عوض أحمد برعية

حضرُوا على ذلك الشهود الآتية أسماءهم أدناه :

المنصب السيد حسين بن عبد الله العيدروس، المنصب السيد طاهر بن محمد بن إسماعيل، الشيخ صالح بكر باشراحيل، الشيخ علي بوبكر بامعبيد، الشيخ محمد صالح بكرمان، الشيخ فرج عبود مقمر، الشيخ سعد سعيد بن الشيخ سعد، السيد سالم بن أحمد عبيد، المنصب علي بن أحمد عبيد، المنصب محمد بن علوي الجنيدي، سعيد بن عبد القادر باكثر.

وقع ما ذكر أعلاه أمامي
(الشيخ حسن قحطان بن النقيب)
نائب الدولة بلواء الشحر

التاريخ ٢٢ / ٧ / ١٣٧٢ هـ الموافق ٦ ابريل ١٩٥٣ م

نقل طبق الأصل ..



والصحراء، ولا يحمل السلاح الناري منهم إلا رجال القبائل المستقرون وشبه المستقرين، وممن يحمل السلاح أيضاً أولئك المنضوون داخل المدن في كنف السلطات القائمة (نظاميين وغير نظاميين)، ومهمتهم فرض الأمن الداخلي وحماية المدينة من أي اعتداء قادم من خارج أسوارها. أما سكان المدن والقرى من الفئات الحضرية فهم لا يحملون السلاح الناري (البنادق)، وغالباً ما يكونون محايدين في الصراع السياسي والقبلي بين المتنافسين وعندهم (الدنيا لمن غلب).

كما يدفعنا الحضور الرسمي في هذا الاتفاق إلى المزيد من البحث لفهم طبيعة العلاقات بين نظام الحافات مع المؤسسات الحاكمة، ويبدو لنا من خلال الاطلاع على عدد من وثائق الحويف أن هناك تناغماً بين الجانبين، فالجهات الرسمية تعترف بمقدم الحافة وتذكر إيجابياته في المساهمة في حل المنازعات الداخلية، بل يحدث نوع من التكامل عندما تنفذ أوامر مقدم الحافة في سجن المخالفين للنظام، ولهذا لم يشكل نظام الحويف بوصفه أحد مؤسسات الضبط الاجتماعي غير الرسمية أي تعارض مع حكام المدن أو السلطات القائمة، وعندما يحدث الصراع بين الحويف تتدخل الدولة لتفرض هيبتها ومسؤوليتها في حفظ النظام العام.

وفي زمن الوثيقة (١٩٥٣ م) كانت مدينة الشحر تحت حكم السلطنة القيعطية الواقعة تحت الحماية البريطانية، وكانت مشكلات السلطنة وحروبها مع جوارها القبلي قد انحسرت بعد أن ترسخت دعائم حكمها. أما داخل المدن فقد استمرت (لعبة) الحرب بكيفيات مختلفة بين سكان حافات المدينة، لكنها معارك لا تحمل أبعاداً أو أهدافاً سياسية أو فكرية أو مذهبية، ومن هنا تكمن غرابة هذه الظاهرة التي تقوم على التعصب للحافة لتصير عند الأطراف المتخاصمة وكأنها الكيان المستقل أو الوطن المنشود، وصار لكل حافة شعراؤها الناطقون باسمها وبأجداد أهلها، وهكذا إذا تقاطلت القبائل بدافع العصبية أو لأسباب اقتصادية فإن صراع سكان المدن ينبع من الانتماء الضيق للمكان في المدينة الواحدة ذات المصالح المشتركة، والتدخل الاجتماعي. لكن يختلف نوع السلاح المستخدم عند الفريقين، فالأسلحة النارية هي المهيمنة في معارك القبائل، أما سكان المدن فيستخدمون العصي وقواعد الاشتباك المباشر.

ومعروف تاريخياً أنه بعد انحسار السلطنة الكثيرة الأولى في حضرموت ثم سقوطها في غضون العقد الرابع من القرن الثامن عشر الميلادي قد سقطت معظم المدن الحضرية بيد القبائل الياقعية التي كانت تدخل من الناحية الرسمية في ضمن قوام قوات السلطنة الكثيرة، ولهذا صارت معظم هذه المدن بيد تلك القبائل التي تقاسمت مع القبائل الحضرية عناصر القوة في المجتمع، ففي حين احتفظت القبائل الياقعية بسيطرتها على معظم المدن فقد ظلت المناطق الشاسعة من حضرموت في ضمن نفوذ القبائل وفقاً للحق القبلي التاريخي المتعارف عليه والنفوذ القبلي بمعنى حق المعري والتحريك والسكن في مثاويهم، وعدم السماح باستقرار غيرهم فيها إلا بالاتفاق معهم، وهذا المشهد سيقربنا لفهم كنه نظام الحافات

نصها أنها تسلمت من الأرشييف الخاص بمقاومة الحارات الذين ينقلون الوثائق أو يتوارثونها عند عملية تسلم منصب (المقدمة) الاجتماعي التطوعي من المقدم السابق إلى المقدم الجديد للحارة التي تسمى محلياً (بالحافة) وتجمع (حويف)، ولعله من المناسب أولاً الإشارة إلى لفظة (الحافة)، التي يقصد بها الحي السكني في المدينة المعروف باسمه، وحدوده، والحافة مفهوم مدني، لأنها لا توجد إلا في المدن، وهي تقارب لفظة الحارة - كما سبقت الإشارة -، التي تطلق على أحياء المدن العربية، وما يزال نظام (الحويف) موجوداً في بعض المدن الحضرية الأخرى، وساعد على ظهوره اتساع المدن وتعدد أحيائها، لهذا وجدت الحاجة الاجتماعية لتنظيم شؤون الحافة الداخلية من أبنائها ورجالها.

ويترأس كل حافة شخصية من رجالها المشهود لهم بالحكمة وسداد الرأي، ويلقب (بالمقدم)، يساعده أربعة رجال، كل منهم يحمل لقب مقدم ربع، أي المسؤول عن زهاء ربع مساحة الحافة وهو يفصل في حيزه الجغرافي. أما المشاكل الشائكة أو التي تتجاوز حدود صلاحياته ترفع إلى المقدم العام ليقول كلمته فيها. أما أصحاب القرى والبلدات الصغيرة غالباً ما يمثلون كتلة اجتماعية لها ضوابطها الاجتماعية المرتبطة بجوارها القبلي بحكم الحق القبلي للأرض.

وتضمنت الوثيقة على اتفاق بين مقاداة (الحافات) وعقلائها برعاية حاكم المدينة نيابة عن السلطنة القيعطية وذلك لتحديد الحدود، ووضع حد للمنازعات بين الحافات وتتلخص البنود في الآتي:

- إعلان العفو العام.
- تحديد شوارع المدينة عند تعيين الحدود بين الحافات.
- حرية المشاركة في الأفراح والأحزان بين الحويف.
- التأكيد على حق الحكومة في السماح للألعاب الشعبية للحويف ومعاقبة المخالفين مع الإبقاء على عادة الزيارات لكل حافة.
- تعطينا الوثيقة إشارات إلى شيوخ ظاهرة النزاع بين أحياء مدينة الشحر، وبواعث هذا النزاع في الغالب يسيرة يصل بعضها إلى حد الطرافة، لاسيما عندما ننظر في أسباب المنازعات بمنظار اليوم، ولعل البنود التي تنص على احترام الحدود والعفو العام وغيرها قد تثير استغراب القارئ العربي من غير الحضارة، لكن إذا اقتربنا من نظام الحويف في المدن الحضرية بعامة والشحر بخاصة سنجد وراء ظاهر هذه الأمور أبعاد غائرة في الثقافة الشعبية المجتمعية، وذات صلة بتنوع جغرافية حضرموت، والتراتب الاجتماعي، والموقف الأهلي من السلطات القائمة، ومن خلال هذه المحددات يمكن تفسير ظاهرة نظام الحويف ووضعها في سياقها الاجتماعي والتاريخي.
- ولتعايش نظام الحويف في المدن مع وجود مؤسسات الضبط الرسمي ربما يبرز تساؤلات من قبيل: ما هو كنه العلاقات بين النظام الشعبي والنظام الرسمي؟ وهل توجد ضرورة لنظام الحويف في المدن؟ وتحيلنا هذا التساؤلات إلى إشارتنا السابقة عن المحددات الضرورية لفهم هذه الظاهرة، فسكان حضرموت يتوزعون في المدن والقرى والهضاب



13

العدد (5)

يوليو
سبتمبر
2017م

جغرافية المدن تتحرك مع توسع حركتها العمرانية يتجدد الصراع بين الحويف، وكل طرف يدعي بتبعية الشوارع والزوايا الجديدة لحدوده، وعلى تأكيدنا على عبثية صراع الحدود وعواقبه الاجتماعية السلبية فإنه جعل للمدن حيوية معينة وأدخل سكانها في سياقات افتراضية فتحت مجالات لخوض المعارك وممارسة فعل الاشتباك.

وتحمل رقصة (العدة) الشعبية إحياءات تمهيدية لذلك الاشتباك، فهي تؤدي بانتظام الرجال في عدة صفوف، ويستعرض الراقصون مهاراتهم في الرقص بحركات تحاكي مرحلتى الهجوم والانسحاب (الكر والفر) ولحظة الإجهاد بالسيوف على (العدو)، وفي هذه الرقصة الشعبية كما هو في الواقع استبدلت العصي بالسيوف، وتلهب الأشعار والزوامل الارتجالية حماسة الراقصين والجمهور، وفي الجانب الآخر تستفز سكان الحويف المجاورة وتزيد من احتمالات الاحتكاك ثم الاشتباك خاصة إذا ما حدث خرق لقواعد العبور المتعلقة باحترام حدود الحويف المتعارف عليها.

ومع أن الاتفاق قد حدد بنوده في فتح صفحة جديدة بين حافات الشحر المذكورة، وأسس لصلح يحقن الدماء ويؤلف القلوب عن طريق احترام الضوابط التي تضمنتها نصوص الاتفاقية، لكنه أبقى على نظام الحويف التقليدي مما يؤشر إلى احتمالات تجدد النزاع، مثل التمسك بالعادات القديمة في قيام كل حافة بواجب المساعدة والمساندة في حالات الزواج والوفاة والزيارات للأولياء والصالحين مع تأكيد حق المشاركة المجتمعية الاختيارية لجميع أبناء المدينة، ولكن في تلك الأجواء المشحونة بعلاقات الخصومة يصير من الصعوبة بمكان السيطرة على الأمور بالحد الذي يمنع الاحتكاك بين الإخوة الأعداء؛ لأن جوهر قضية النزاع بين الحويف يتعدى مسألة الخصام والصلح إلى تدني الوعي الاجتماعي وضعف المؤسسة الحاكمة.

وإذا ابتعدنا قليلاً عن العلاقات البينية بين الحويف فإن الجوانب الإيجابية لنظام الحويف يطفئ على الجوانب السلبية، فمن أثناء نصوص هذه الوثيقة نستنتج أن المشاركة في مناسبات الأفراح والأحزان كانت مخصصة لأبناء الحافة كنتيجة منطقية لحالات الاحتقان بين الحويف، لهذا نص البند الثالث من الاتفاق على حرية المشاركة في المناسبات كما يقتضيه الواجب الإنساني والديانة الإسلامية، لكنه تم استثناء خدمة الحافة بموجب البند الثاني بأن تكون خدمة البيوت والعائلات بشكل مباشر منوطة بأبناء الحافة ذاتها حتى تتحدد المسؤولية ولا يكون هناك اتكال بين الحويف، ويؤسس هذا لما يمكن وصفه بالإدارة الداخلية الأهلية أو التسيير الذاتي للمدن مما يعزز مبدأ المشاركة المجتمعية وثقافة التكافل الاجتماعي والإحساس بالكينونة والدفء الاجتماعي، ومن هنا تكمن النظرة الإيجابية لنظام الحويف بعد انتزاع الشق المتعلق بالتعصب للحافة، وعلى أية حال فقد أسهم نظام الحويف في الحفاظ على تماسك المجتمع عند الأزمات السياسية، وهو بهذا يمثل منظومة شعبية ثابتة داخل منظومة حاكمة متحركة.

في المدن، فالذي يحمي المدن هم القوات الرسمية وغير الرسمية، وهؤلاء لا يتدخلون في مشاكل المدينة وصراعاتها الداخلية بين الحويف إلا بما يحفظ الأمن العام للمدينة.

ولهذا كانت الحكومة حاضرة في الاتفاقية بممثلها حاكم الشحر (حسن قحطان بن النقيب) نيابة عن السلطان القعيطي، وهو ما أعطى الاتفاق الصفة الرسمية، ويرمز توقيع الشهود والحضور من الوجاهات من فئتي السادة والمشايخ على مباركة المرجعية الاجتماعية للاتفاق، ودعمها له، وهؤلاء عادة لا يعدون طرفاً في صراعات القبائل البينية أو سكان المدن الداخلية، بل يقومون بدور المصلحين إذا اقتضت الضرورة بوصفهم من عناصر الضبط الاجتماعي المسموع كلمتها.

وهكذا ألقى نظام التراتب الاجتماعي بظلاله على الحياة الاجتماعية، وارتبط بحسب الوظيفة الاجتماعية لهذه الفئات في المجتمع الحضرمي، فأقطاب الحكم والقبائل يمثلون القوة، وهم الجهة المسلحة في حضرموت، وبينما سادة حضرموت ومشايخها يحتلون المرتبة الأولى في السلم التراتبي الاجتماعي وليس السياسي، وهم لا يحملون السلاح - كما ذكرنا - ولكن مما يعزز من مكانتهم الاجتماعية النسب المعترف به اجتماعياً ودورهم الديني والتنويري في المجتمع. أما سكان المدن الحضر فهم خارج المعادلة السياسية ولا علاقة لهم بالصراع القبلي، وصارت جغرافية المنطقة المتعارف عليها في إطار المدينة هي مصدر فعاليتهم الاجتماعية حيث نطاق نشاطهم الاقتصادي.

ولعله من المناسب التمييز بين نظام الحارات في المدن العربية ونظام الحارات في حضرموت (الحويف)، ففي مصر على سبيل المثال وكما تروي الأدبيات تبرز عندهم شخصية فتوة الحارة مع عدد من الرجال، ويقوم الفتوة بدور الحامي مقابل إتاوات مفروضة، بينما مقدم الحافة في المدينة الحضرمية يمثل صوت العقل في منطقته، وعندما تشتد الخصومات بين الحافات وتخرج عن السيطرة يشترك جميع الرجال في الصراع وتشكل الحافة كتلة اجتماعية واحدة، بينما نظام الحارات في مصر أقرب ما يكون إلى صراع (الفتوات) المحكوم بقانون القوة والشجاعة الفردية.

وتفصح بنود الاتفاق عن تداخل في الوظيفة الاجتماعية التطوعية بين أبناء الحافات، فكل حافة تجد أن من حقها القيام بواجب خدمة أهاليهم في مناسبات الزواج وحالات الوفاة بإشارة من مقدم الحافة، ويعدون أي مساهمة من الحويف المقابلة تعدياً على (حقوقهم السيادية)، مما يجعل من التنازع ظاهرة متجددة بين الحويف، لهذا أكدت البنود على تضمين الضوابط للحيلولة دون تكرارها، واللافت هنا - ولعله الرائع - هو أن سبب الخصومات هو على (حق) الخدمة المجتمعية وليس الأغراض العدائية.

ومن أهم ما سعت إليه بنود الاتفاق هو حل معضلة الاشتباك المباشر بين سكان الحافات الذي يعقب عادة رقصات العدة الشعبية الشهيرة عند سكان المدن فقد كان لكل حافة الحق في القيام برقصاتها الشعبية داخل حدودها، وإذا تطلب الأمر المرور بشوارع الحافة المقابلة فهذا يتطلب موافقة الحافة صاحبة الأرض أو تصريحاً رسمياً من حاكم المدينة، ولأن

الصراع القبلي في حضرموت في القرن الثالث الهجري

تعد مصادر العمانيين الفقهية منها والتاريخية مناهل يمكن للباحث أن يستقي منها معرفة تاريخية مهمة عن حضرموت، خاصة في فترة انتشار المذهب الإباضي، نظراً للجوار الجغرافي بين القطرين من جهة، ومن جهة أخرى العلاقات والروابط المذهبية بينهما، فقد ساد المذهب الإباضي في كل من حضرموت وعمان خاصة بعد قيام أول إمامة إباضية بقيادة عبدالله بن يحيى الكندي سنة ١٢٩هـ. لعل من أبرز تلك المصادر كتاب بيان الشرع للفقهاء والشيخ العماني محمد بن إبراهيم الكندي (١)، وهو كتاب موسوعي فقهي في نيف وسبعين جزءاً، ضم مجموعة من السير والمكاتبات بعضها مرسل إلى الإباضيين الحضارمة.

تاريخياً عن إباضية حضرموت في هذه الفترة؛ لأنها تسلط الضوء على قضايا مختلفة شهدتها حضرموت آنذاك، لعل من أبرزها الصراع القبلي (٨).

تتحدث السيرة عن صراع قبلي شرس انقسمت معه حضرموت إلى عصبتين قبليتين متناحرتين، سُفكت فيه الدماء وعُطلت بسببه الحدود الشرعية (٩)، حتى أن الإمام أحمد بن سليمان أصبح عاجزاً عن بسط سلطانه على البلاد، وهو الوضع الذي يبدو لنا قد دفع بعض الحضارمة إلى الدعوة لعزل هذا الإمام وتنصيب غيره، فلما وصل ذلك إلى علم الشيخ محمد بن محبوب أرسل إليهم كتاباً محذراً فيه من مغبة عزل الإمام من غير وجه حق لما في ذلك من محاذير شرعية واجتماعية (١٠).

وقد وصلت تلك الفتنة إلى حالة من الاستعصاء عجز الإمام عن حلحلة أسبابها، وجمع كلمة الحضارمة من جديد تحت راية واحدة، وظهر ذلك جلياً في خذلان رعيته له ونكثهم بوعودهم معه، ففضل أن يترك حضرموت ويخرج إلى اليمن ليقيم له إمامة عدل هناك

المصطلح أحياناً لعنونة عمل مرتبط باسم شخص ما، وعادة ما تأتي مترافقة مع رسائل أو جوابات جرى تبادلها، وشاع استخدام هذه الوسيلة على مدى زمني طويل، وبعض هذه السير هي من بواكير تاريخ التأليف الإسلامي (٤)، غير أن الذي يؤسف له أن تلك السير لم تُوثّق زمنياً بدقة، أي لم يحرص أصحابها على تحديد زمن كتابتها، وإنما يمكن الاستدلال على ذلك من خلال فترة حياة مصنفها أو الأحداث والقضايا التي تتناولها، والتي نجدها أحياناً تعتمد على حقب زمنية طويلة تصل إلى قرن من الزمان أو أكثر.

ومن أبرز تلك السير الواردة في كتاب بيان الشرع السيرة التي بعثها الإمام العماني الصلت بن مالك الخروصي (٢٣٧هـ - ٢٧٣هـ) (٥)، إلى الإمام الحضرمي أحمد بن سليمان (٦)، وكتبها الفقيه العماني محمد بن محبوب (ت ٢٦٠هـ) (٧)، ونستدل من شخوص هذه السيرة أنها كُتبت في القرن الثالث الهجري، وفي تقديرنا منتصف ذلك القرن، وتعد مصدراً



عبدالكريم محروس ميزان

والسير (بكسر السين المشددة وياء مفتوحة ثم راء ساكنة) - ومفردتها سيرة - هو اسم مشتق من الفعل (سير) بمعنى ذهب، والسير تعني: السُنَّة، والطريقة، والهيئة (٢)، واصطلاحاً هي: رسائل في معظمها ذات طابع سياسي تعبر عن وجهة نظر كاتبها حول مسألة أو مجموعة مسائل عقدية وفقهية مثارة من الواقع السياسي أو الاجتماعي أو الديني المحيط بالكاتب أو سابق عليه (٣).

ومصطلح السير في عرف العمانيين في تلك القرون المتقدمة استعمل للإشارة إلى مجموعة من الأعمال القصيرة والتي جُمع بعضها في مجلد واحد، واستخدم



15

العدد (5)

يوليو

سبتمبر

2017م

إلى هدنة حدد مدتها بسنة كاملة (١٨) . وحتى تكون تلك الهدنة مقبولة عند الطرفين ومضمونة ألا يخرقها أحد منهم ، على الإمام أن يخبّرهم أنه ما قدم عليهم وعزم على الصلح بينهم إلا بعد أن استشار إخوانه في عمان ، ثم يبدأ بعد ذلك في حل المشاكل العالقة بين الطرفين بالعدل وأخذ رأي أهل العلم ولا يؤخر شيئاً من ذلك إلى انتهاء وقت الهدنة حتى لا يتجدد القتال بينهما (١٩) . ولنا على ما سبق ملاحظة مهمة هي أن لمشايخ عمان كلمة مسموعة عند طرفي النزاع ، وهذا يؤكد لنا أن الصراع احتدم بين طائفتين إباضيتين لأسباب قبلية ، وليس صراعاً مذهبياً .

ولتثبيت الأمن والاستقرار وضمان عدم العودة إلى الحرب على الإمام أن يدعو الطرفين إلى الاستغفار والتوبة من تلك الفتنة ، ثم يعيّن له ولاية صالحين على كل البلدات ممن لم يشترك في تلك الفتنة ، وأن يسند أولئك الولاية بكتائب عسكرية لحفظ الأمن خاصة في القرى التي يخشى أن يعود أهلها إلى الفتنة (٢٠) .

ولما كانت هذه مجرد مشروع خطة من أبي عبد الله محمد بن محبوب فقد وضع لها بعض الاحتمالات وحدد لها المعالجات ، من ذلك احتمال رفض طرفي النزاع أو أحدهما للصلح ، فيبقى يتصيّد الفرصة لإثارة الفتنة من جديد ، ويأخذ خصمه على حين غرة . وسدّاً لهذا المحتمل أمره أن لا يبرح مكانه ويبقى بينهم يترصد الطرف المعتدي ويقطع شأفة الحرب (٢١) .

وهناك احتمال أكثر صعوبة من الذي قبل ، يتلخص في تألف المتحاربين وتحالفهم ضد الإمام وجيشه ، وعندها يرى أبو عبد الله أن ليس للإمام خيار سوى مقاتلتهم ، لكن عليه أولاً أن يحذّر

الشرائع والحدود ، وإخماد فتنة المتعصبين ، وهو عند دخول وقت الثمر وقبض صدقة الماشية والثمار ، على أن يخص الجند بأوفر العطاء من تلك الصدقات لأنه - حسب رأيه - أجدى لإقامة الدولة وإحياء الدين من أن ينفق على الفقراء والمساكين ، وأجاز أبو عبد الله للإمام أن يأخذ من الناس السلاح والخيول والكرّاع ما دامت الحرب قائمة (١٥) ، فإذا وضعت الحرب أوزارها أعاد ما سلم منه إلى أهله ، وأما التألف فعليه دفع ثمنه إذا كان أهل ذلك المال من غير أهل الحرب ، وإذا استخدموا الخيل والإبل في الركوب عليهم دفع أجره ذلك لأهلها على قدر استنفاعهم بها ، إذا كانوا من غير أهل الحرب ، وأما إذا كانوا من أهل الحرب فلا أجره لهم (١٦) .

ويستمر أبو عبد الله في رسم خطته فيطلب من الإمام الحضرمي قيادة الجيش ، ودخول البلدات والقرى ، فيدعو أهلها إلى الحق ، ويعلن فيهم أنه غير محارب لهم إلا من نصب له راية الحرب وجمع الناس على الفتنة ، وإذا دخلوا في طاعته عليه أن يتوسط في معاملتهم ويحسن إليهم ، فلا يبعدهم كل الإبعاد ولا يأذن لهم بالسير معه إلى رؤوس الفتنة ، بل يأمرهم أن يلزموا دورهم وقراهم متفرقين غير مجتمعين على قائد (١٧) ، وهذا يمثل حرصاً وحذراً من الغدر والضرب من الخلف .

وعندما يصل الإمام بجيشه إلى قرى رؤوس الفتنة ، عليه أن يعسكر بينهم ويتخذ له الحرس ، ويكون حذراً حازماً مستعيناً بالله في تحقيق أهدافه ، ثم يبدأ في التفاوض مع الطرفين المتحاربين كلاً على حده ، فيرسل إلى قادتهم وأصحاب الوجاهة فيهم ، ويجادلهم بالتالي هي أحسن ويدعوهم إلى الصلح ووقف القتال ، أي يدعوهم

وينشر المعروف ، وكتب إلى إخوانه في عمان بما هو عازم عليه ، غير إنهم لم يوافقوه في ذلك خوفاً على بقية الرعية ؛ إذ لو كان الرجال قد خذلوه فما ذنب النساء والأطفال واليتامى والعجزة - حسب ردهم - فدعوه إلى التحلي بالصبر ودعوا من حوله إلى نصرته وعقد الشراء له حفاظاً على تلك الرعية (١١) .

وعن تفاصيل تلك الفتنة تؤكد السيرة أن أسبابها لم تكن مذهبية ، ولم تكن ناتجة عن خلاف بين الإباضيين أنفسهم ، وإنما سببها تعصب وحمية قبلية لا غير (١٢) ، وجاء في السيرة أن ذلك منكر يجب تغييره ، وهذا التغيير يبدأ بالوقوف إلى جانب الإمام وعدم خذلانه ، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن في تركه هلاكاً للأمم (١٣) .

ومن حرص الشيخ أبي عبد الله محمد بن محبوب على إخماد الفتنة وسد مداخلها وحلحلة أسبابها ، رسم للإمام الحضرمي خطة يجمع بها شمل الإباضيين في حضرموت ويصلح ما خرب من أحوالهم ، ولو وصل الأمر في سبيل ذلك إلى استخدام القوة . تبدأ تلك الخطة بدعوة الإمام إلى قطع الشراء على نفسه وأنصاره ، كما دعاه إلى بذل المال وفرض الفرائض ومضاعفة العطاء للأنصار من الشراة ليضمن وقوفهم إلى جانبه ، وحثه على حسن المعاملة وإظهار السرور لكل المسلمين ، وفي جانب التكتيك العسكري دعاه إلى تقسيم الجيش إلى مجموعات صغيرة - كرايس - ، كل مجموعة لا يزيد عدد أفرادها عن خمسين شارياً ، عليهم قائد عسكري حازم يحظى بالسمع والطاعة في مجموعته (١٤) .

بعد ذلك حدد له الزمن الذي يخرج فيه إلى الناس لفرض سلطانه وإقامة



خصومه من مغبة ما تحالفوا عليه ، وإن أرادوا إلا القتال فلا يكون هو البادئ بذلك ، فإذا بدأوا بالحرب فقد بغوا وحلّ قتالهم(٢٢) .

واختُتمت السيرة بالدعاء لأهل حضرموت بالصالح وجمع الكلمة . والشيء المؤسف له أننا لا نعلم المصير الذي آلت إليه الأمور بعد ذلك ، فغياب المصادر يظل حائلاً دون إشباع نهنا المعرفي عن تاريخ هذه الفترة ، غير أن هناك إشارة مهمة يوردها الهمداني تتعلق بتلك المساعدات التي قدمها يعفر بن عبد الرحيم الحوالي لإنهاء الصراع بين قبيلتي حضرموت وكندة وتحمل دفع ديّات القتلى(٢٣) . ويبدو لنا أن هذا الصراع بين القبيلتين هو نفسه الذي تناولته سيرة الشيخ العماني محمد بن محبوب ، والتي أرسلها إلى إمام حضرموت أحمد بن سليمان ، نظراً لتطابق مشهد الأحداث في السيرة العمانية ، إضافة إلى الفترة الزمنية (القرن الثالث الهجري) ، لذا نرجّح أن يكون اليعفريون بمساعدتهم تلك حاولوا التدخل في شؤون حضرموت ثم السيطرة عليها خاصة بعد حصول محمد بن يعفر الحوالي في المحرم من سنة ٢٥٩ هـ على اعتراف من الخليفة العباسي المعتمد (٢٥٦ هـ - ٢٧٩ هـ) بسلطته على اليمن(٢٤) ، فأرسل إلى حضرموت نائباً له ، لكن أهلها ناصبوه العداء ، لذلك خرج بنفسه ففتحها بعد امتناعها على من قبله(٢٥) ، ثم أناب فيها الهزلي جد بني الدغار وجعل شبام مركزاً لسلطته(٢٦) ، وهناك من رجّح سيطرة اليعفريين على حضرموت في حدود سنة ٢٧٠ هـ(٢٧) ، ويبدو أن هذا التغيير السياسي جاء على حساب إمامة أحمد بن سليمان الحضرمي الإباضي؛ إذ لا نستبعد أن يكون اليعفريون قد قضاوا على إمامته وعينوا الهزلي نائباً لهم في حضرموت .

الهوامش :

- (١) عالم وفقه وشاعر من سمد بلد في نزوى ، له بيان الشرع وله اللمعة المرضية توفي سنة ٥٠٨ هـ . السالمي: تحفة الأعيان، ج ١ ص ١٨١ .
- (٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ١ ص ٤٨٨ .
- (٣) السعدي: تطور مفهوم الكتابة، ص ٨ .
- (٤) الوهبي، مسلم (دكتور): السير العمانية كمصدر أولي لسائر العلوم العمانية، سيرة خلف بن زياد البحراني نموذجاً، بحث مقدم في أعمال الملتقى العلمي الثاني حول مصادر التاريخ العماني، سلسلة وحدة الدراسات العمانية، جامعة آل البيت، عمان، الأردن، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م، ص ١٣١ .
- (٥) هو من أشهر أئمة عمان اشتهر بالزهد والتواضع ، يعتبر عهده من أقوى عهود الإمامة الإباضية في عمان ، حرر جزيرة سقطرى من قبضة النصارى ، عمر طويلاً حتى ضعف عن القيام بواجبات الإمامة ، ثار عليه بعض الفقهاء وعزلوه وأدى عزله إلى انقسام وصراع سياسي وفكري داخل عمان . السالمي : تحفة الأعيان ، ج ١ ص ١٣٠ .
- (٦) أحد أئمة الإباضيين الحضارمة ، عاش في القرن الثالث الهجري ، تنسب إليه سيرة وله مراسلات وبحوثات علمية مع أئمة عمان . الكندي: بيان الشرع، ج ١ ص ٦٤ ، ج ٢ ص ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ج ٩ ص ٤٧ ، ١٥٥ ، ج ٢٧ ص ٢٨٨ ، ٢٠٠ ، ج ٢٨ ص ١٩٥ ، ج ٢٩ ص ٢١ ، ٢٢ ، ج ٣١ ص ٧١ ، ١٠٩ .
- (٧) ابن محبوب ، هو أبو عبد الله محمد بن محبوب بن الرحيل القرشي المخزومي ، فقيه إباضي عاصر بعض أئمة عمان مثل المهنا بن جيفر والصلت بن مالك الخروصي، عمل قاضياً للأخير وتولى رئاسة العلم والعلماء في عهده، توفي في الثالث من محرم سنة ٢٦٠ هـ . السالمي: تحفة الأعيان، ج ١ ص ١٦٠ ، ١٥٠ ، ١٤٨ .
- (٨) تناولنا في دراستنا العلمية المنهجية عن الإباضية في حضرموت كل تلك القضايا بشكل مفصل . للإفادة أكثر راجع ، عبد الكريم ميزان : إباضية حضرموت من القرن الثاني إلى القرن السابع للهجرة ، رسالة
- ماجستير غير منشورة ، جامعة حضرموت ، كلية الآداب ، المكلا ، ٢٠١٥ م .
- (٩) الكندي، بيان الشرع، ج ١ ص ٨ .
- (١٠) مؤلف مجهول : السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان . تحقيق سيدة كاشف ، ط عمان ١٩٨٦ م، ج ١ ص ١٣٢ .
- (١١) بيان الشرع، ص ٨ . والشراء من منازل الإمامة عند الإباضيين ، ومثلها الظهور والكتمان والدفاع ، وهذه المنازل تسمى أيضاً مسالك الدين ، ولكل منها شروط وضاوابط وحالات تقرر قيامه . الخروصي : الفكر السياسي ، ص ٩٦ ، ٩٧ : عبد الكريم ميزان: إباضية حضرموت ، ص ٥٠ .
- (١٢) بيان الشرع، ج ٦٩ ص ٤ .
- (١٣) نفسه، ج ٦٩ ص ١٠٤ ، ١١٠ .
- (١٤) نفسه، ج ٦٩ ص ١٦ .
- (١٥) الكراع، اسم يجمع الخيل، وقيل هو السلاح، وقيل هو اسم يجمع الخيل والسلاح . ابن منظور: اللسان، ج ٨ ص ٣٠٦ .
- (١٦) بيان الشرع، ج ٦٩ ص ١٧ ، ١٦ .
- (١٧) نفسه، ج ٦٩ ص ١٧ .
- (١٨) نفسه، ج ٦٩ ص ١٨ .
- (١٩) نفسه، ج ٦٩ ص ١٨ .
- (٢٠) نفسه، ج ٦٩ ص ١٨ .
- (٢١) نفسه، ج ٦٩ ص ١٩ .
- (٢٢) نفسه، ج ٦٩ ص ١٩ .
- (٢٣) الإكليل، ج ٢ ص ٦٨ . الدولة اليعفرية أو الحوالية ، أسسها يعفر بن عبد الرحمن الحوالي ، كانت بداية ظهوره سنة ٢١٣ هـ . واتخذ الحواليون من شبام كوكبان عاصمة لهم(١) ، ثم تحولت العاصمة إلى صنعاء . عمارة: المفيد ، ص ٥٩ .
- (٢٤) الصنعائي: تاريخ صنعاء ، ص ٧١ ؛ اليماني: بهجة الزمن، ص ٣٨ .
- (٢٥) الصنعائي: المصدر السابق، ص ٧١ ؛ الحمزي: كنز الأخبار، ص ٥١ ؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٣٣ ص ٧٠ .
- (٢٦) الحميري: ملوك حمير، ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٨٦ ؛ ابن عبيد الله: إدام القوت، ط دار المنهاج ، ص ٥٣٥ .
- (٢٧) ابن عبيد الله: المرجع السابق، ص ٥٣٥ . وفي هذه السنة توفي محمد بن يعفر . انظر المفيد لعمارة، ص ٦٠ .



صفحات مجهولة من التاريخ الحضرمي (٢)

الطواشي الصيني تشينغ خه في زيارة ظفار



سبق وأن تطرقت في العدد الأول من هذه المجلة الغراء (حضرموت الثقافية) لتلك الزيارات التي قام بها الصينيون بأساطيلهم الضخمة بقيادة الطواشي المسلم (تشينغ خه) لمدينة الأسعاء (الشحر) في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، في عهد حاكمها (أبي دجانة)، واستعرضت فيها بعض ما كتبه أولئك المبعوثون من وصف للمدينة وأنشطتها الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية. وهانحن في هذا الجزء الثاني نستعرض زيارة أخرى لذلك الأسطول الصيني وخاصة لظفار العمانية، في الفترة الزمنية نفسها التي شهدت آخر ثلاث رحلات لهذا الأسطول. وكان حاكم ظفار في تلك الفترة هو السلطان (علي بن عمر بن جعفر بن بدر الكثيري) مؤسس الدولة الكثيرية في حضرموت.

٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م في عهد سلطانها الثري (سالم بن إدريس الحبوذي) ات: ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م، وسالم هذا هو الذي استقدم قبيلة آل كثير كقوة محاربة لتكون حامية لأملكه في حضرموت. قبيل أن تتمكن هذه القوة لاحقاً من السيطرة على حضرموت والمهرة وعلى ظفار نفسها سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٣م. عندما استطاع السلطان (علي بن عمر الكثيري) -موضع حديثنا هنا- السيطرة عليها وانتزعها من يد حكامها السابقين (٤).

ففي عهد هذا السلطان كان وصول تلك الأساطيل الصينية الضخمة التي عرفت في بعض الأدبيات بـ (أساطيل الكنز) (٥)، وخاصة في رحلاتها الخامسة والسادسة لبلدان المحيط الهندي، وتحديدًا في الفترة من ٨٢٠-٨٢٥هـ/ ١٤١٧-١٤٢٢م، وقد توفي السلطان (علي بن عمر الكثيري) سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م في بعض الأقوال (٦)، ليتولى السلطة بعده ابنه السلطان (عبدالله بن علي). ومن الأرجح أن هذا الابن شهد في عهده قدوم الحملة السابعة والأخيرة لهذا الأسطول لسواحل البحر العربي؛ إذ إن تاريخ هذه

مرباط. وحدث رجل من أهل مرباط أن مرباط فيها المرسى، وظفار لا مرسى بها، وقال لي إن اللبان لا يوجد في الدنيا إلا في جبال ظفار وهو غلة لسلطانها، وإنه شجر ينبت في تلك المواضع مسيرة ثلاثة أيام في مثلها وعندها بادية كبيرة نازلة ويجتنيه أهل تلك البادية، وذلك أنهم يجيئون إلى شجرته ويجرحونها بالسكين فيسيل اللبان منه على الأرض ويجمعونه ويحملونه إلى ظفار فيأخذ السلطان قسطه ويعطيهم قسطهم، ولا يقدر أن يحملوه إلى غير ظفار أبداً وإن بلغه عن أحد منهم أنه يحمله إلى غير بلده أهلكه (١). وقد أشار المؤرخ الحضرمي (محمد بن هاشم) إلى أن ظفار هذه (الحديثة) اختطها (أحمد بن محمد الحبوذي) سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م (٢)، وأمر أهل مرباط - وهي ظفار القديمة - بالانتقال إليها (٣). وكانت في وقت سابق عن حكم آل الحبوذي خاضعة لآل الأكحل، ومنهم (محمد بن أحمد الأكحل المنجوي). وبعد أن آلت إلى آل الحبوذي، انتزعها منهم لاحقاً الملك المظفر الرسولي (يوسف بن عمر) ات: ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م) سنة



أنور حسن السكوتي

من المعلوم أن الارتباط التاريخي ما بين حضرموت من جهة وإقليم ظفار العماني من جهة أخرى ضارب جذوره في القدم، منذ العهود الأولى التي ظهرت فيها مملكة حضرموت (أرض اللبان، وأن هذا الارتباط التاريخي ظل متصلاً بعدها لقرون عدة خلت، ولم تتفكخ خلالها أو اصر ذلك الارتباط والاتصال إلا في فترات متأخرة جداً لاعتبارات جيوسياسية.

وظفار التي نتحدث عنها تاريخياً هي التي ذكرها ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م في كتابه معجم البلدان بالقول: (مدينة على ساحل بحر الهند بينها وبين مرباط خمسة فراسخ وهي من أعمال الشحر وقريبة من صحار بينها وبين



الحملة في الفترة من ربيع ثاني ٨٣٤ هـ - صفر ٨٣٧ هـ، ١٩ يناير ١٤٣١ م - ١٤ سبتمبر ١٤٣٣ م (٧). بينما ذهب المؤرخ عبدالله محيرز إلى أن وفاة السلطان (علي بن عمر) سنة ٨٣٦ هـ / ١٤٣٢ م، وأشار إلى أنه في عهد السلطان علي كانت تلك الحملة السابعة. بل وأشار أيضاً إلى ذكر اسم هذا السلطان في بعض سجلات الرحلة (٨).

وعلى الرغم من عدم تطرق المصادر والمراجع المحلية لهذه الرحلات ولزيارتها لهذا القطر الكبير الواقع على ساحل بحر العرب، ولو كإشارة باستثناء بعض المصادر اليمنية (٩) فإن هذا لا ينفي حدودها أو وقوعها، كما أن الوثائق الصينية التي حفظت في سجلات خاصة بهذه الرحلات أكدت حدوث تلك الزيارة، بل قدمت لنا صورة حية ووصفاً دقيقاً عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية سواء كانت لظفار أو للمدن الأخرى التي زارتها كهرمز والأسعاء وعدن ومكة ومقديشو وغيرها. وهي صور يمكن أن تفيد الباحث ببعض الحقائق التاريخية المجهولة في تلك الفترة.

الوثائق المحفوظة بالسجلات الصينية عن ظفار:

وفيما يلي قائمة بالوثائق المحفوظة بسجلات الرحلات الصينية إلى ظفار وتواريخها بالهجري والميلادي والصيني ورقم السجل ورقم صفحته (١٠):

لاستعراض عضلاتهم وتفوقهم الحربي بإجراء بعض المناورات الحربية قبالة الساحل، عليه يرشح لهذا التعاون والدخول في علاقات تجارية معهم والقبول بنظام الجزية الصيني، فكان لهم ما أرادوا. كما أشاروا كذلك إلى رغبة السلطان علي القوية في الدخول في علاقات تجارية متبادلة. ولعل هذه الرغبة جاءت من اعتماد اقتصاد ظفار على التجارة في المقام الأول.

كما أفادت سجلات الصينيين أن السلطان (علي) أرسل خلال تلك الرحلات مبعوثين لدولته وتجاراً حملتهم معها تلك الأساطيل الزائرة، ومنهم مبعوثه (سفير بلاده) الذي يدعى (حاجي حسين) بالصينية (هاي-زاي-هوتشان) لتقديم هداياه ومراسيم السفارة التي تعرف عند الصينيين بنظام الجزية المشار إليها آنفاً. وقد وصل هذا المبعوث العاصمة الصينية (بكين) سنة ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣ م. (١٢) أي بعد وفاة السلطان علي الكثيري.

نظام الجزية الصينية:

نظام الجزية عند الصينيين (١٣)، ليس بالشكل المتعارف عليه في أدبياتنا المختلفة، وإنما هو نوع من التعبـير التقليدي الذي استجبه أباطرة الصين من أسرة المينغ، يقتضي قيام الدول والممالك التي تدخل في علاقات دبلوماسية وتجارية معهم بإيفاد مبعوثين لها مصحوبين بالهدايا والأشياء النادرة لتقديمها

المبعوثين الأجانب من بلادهم وإعادتهم إليها بوساطة سفنهم الصينية (الجنك)، وبصحبتهم الكثير من الهدايا النفيسة لهم ولحكاهم.

مشاهدات الصينيين ظفاراً ووصفهم لها:

ومما كتبه الصينيون من مشاهدات ووصف لبلاد ظفار وعادات أهلها، يمكن أن نستدل عليها بالنص الآتي (١٤)، معرضين عن تفاصيله لضيق المجال هنا. ((بلاد ظفار (تسافرة): يمكن الوصول إلى هذا المكان من (قاليقوط) بعد عشرة أيام وليال من الإبحار تحت ربح اتجاه شمالي غربي. وتقع هذه المدينة على ساحل البحر تحت سفح سلسلة جبلية، ولا يحيط بها سور ولا ضاحية لها، ويحدها البحر العظيم من جنوبها الشرقي، ومن شمالها الغربي سلاسل جبلية متتالية. ويعتق ملك هذه البلاد وكافة أهلها الدين الإسلامي، ولرجالها سواعد طويلة وغليلة، وقامات طويلة يبدو عليها القوة. ولهم لسان صدق. ويلبس (الملك) على رأسه عصابة من نسيج أبيض دقيق أجني (الصنع)، أو يغطي جسمه ورأسه بعباءة مصنوعة من الحرير الناعم المطرز بأشكال نباتية، وأزهار زرقاء بحجم الإبهام، ويلبس أحياناً عباءة مطرزة بالذهب، ويتنعل حذاءً عالي الساق، أو خفاً جلدياً مسطحاً. ويحمل عندما يخرج على محفله، أو يمتطي حصاناً، وتواكبـه صفوف منتظمة من الفيلة والجمال والفرسان والعسكر كل منهم بسيفه وترسه، يعزفون بالمزامير والقرب، ويتقدم الجميع في حشد صاحب كثيف. ويلبس عامة الناس عمامة على رؤوسهم، وعباءة على أجسامهم وخفاً أو حذاءً عالي الساق. فإذا كان يوم العبادـة (١٥) توقف البيع والشراء في الأسواق قبل منتصف النهار، ويغتسل كافة الناس رجالهم ونسائهم، كـبيرهم وصغيرهم. وعندما ينتهون من الغسل يتعطرون بماء الورد والعطر العود ويمسحون به وجوههم وسواعدهم، ويلبس الجميع ثياباً نظيفة ويحمل كل واحد منهم مبخرة يضع البخور أو العود أو العنبر أو ماشاكلة ذلك. وبعد أن يبخروا ثيابهم، ويعطروا أيديهم وسواعدهم يتوجهون إلى (المسجد)

ظفار	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي	التاريخ الصيني	السجل	الصفحة
الوثيقة الأولى	٢١ صفر ٨٢٤ هـ	٢٦ فبراير ١٤٢١	سنة ١٩ شهر ١ يوم ٢٥	مجلد ١١٠٦ سجل ١١٠٦	٢٢٥٥
الوثيقة الثانية	١٨ ذو القعدة ٨٢٦ هـ	٢٤ أكتوبر ١٤٢٣	سنة ٢١ شهر ٩ يوم ٢٠	مجلد ١١٥٤ سجل ١١٥٤	٢٤٠٣
الوثيقة الثالثة	٦ شوال ٨٢٣ هـ	٢٩ يونيو ١٤٣٠	سنة ٥ شهر ٦ يوم ٩	مجلد ١٥٢٤ سجل ١٥٢٤	١٥٧٧-١٥٧٦
الوثيقة الرابعة	٢٧ محرم ٨٢٧ هـ	١٤ سبتمبر ١٤٢٣	سنة ٨ شهر ٨ يوم ١	مجلد ١٦٠١ سجل ١٦٠١	٢٢٤١
الوثيقة الخامسة	١٦ صفر ٨٣٧ هـ	٣ أكتوبر ١٤٢٣	سنة ٨ شهر ٨ يوم ٢٠	مجلد ١٦٠٢ سجل ١٦٠٢	٢٢٥١-٢٢٥٠
الوثيقة السادسة	٢٧ محرم ٨٤٠ هـ	١١ أغسطس ١٤٢٦	سنة ١ شهر ٦ يوم ٢٩	مجلد ٢٢٣٤ سجل ١٦٩٤	٢٨٥

للإمبراطور وفقاً لطقوس ومراسيم معينة، خلال هذه المراسيم يظهر هؤلاء المبعوثون الأجانب بعض التملق والخضوع الصوري لهؤلاء الأباطرة. إرضاء لغرورهم وتصوراتهم كأسـياد للعالم ورعاة. وبالمقابل يحظى هؤلاء المبعوثون بكامل كرم الضيافة مع المزيد من الرعايا والاهتمام فترة إقامتهم المحددة في الصين. وقد تطلب هذا التقليد من الصينيين الالتزام بإصطحاب أولئك

إن أول وثيقة عن علاقة السلطان علي الكثيري بالصينيين تلك التي تعود إلى سنة ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م (١١) وفيها أشار الصينيون إلى أن السلطان علي كان من أكثر السلاطين تعاوناً مع الإمبراطور الصيني وأساطيله، والأكثر تساهلاً مع تجارهم. وهذا التساهل والتعاون لم يجدهم كما أشرت إليه في الحلقة الأولى لدى سلطان الشحر (أبي دجانة) أثناء زيارتهم الأولى له، مما اضطرهم



19

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

محيرز)، جعل وفاته سنة ٨٣٦هـ/١٤٣٢م. وأشار إلى أن مرجعه في هذا ابن حجر العسقلاني وكتابه أنباء الغمر، في حين لم نجد إشارة لهذا التاريخ ضمن الفقرة المشار إليها بالكتاب المذكور. انظر محيرز، رحلات الصينيين الكبرى، ص ١٢٩. وفي فقرة أخرى أشار محيرز إلى أن بعض سجلات الصينيين عن الرحلة أشارت إلى أن اسم ملك ظفار في الرحلة السابعة من ٨٣٤-٨٣٧هـ/١٤٣١-١٤٣٣م كان يدعى (علياً) وهو الذي أرسل مبعوثه إلى الصين ضمن مبعوثين لعدة دول زاروها منها عدن والأسعاء (الشحرا). انظر رحلات الصينيين الكبرى ص ١٢٩-١٣٠.

(٧) محيرز، عبدالله، رحلات الصينيين الكبرى، مرجع سابق، ص ٦٤.

(٨) محيرز، مرجع سابق، ص ١٢٩-١٣٠.

(٩) من المصادر التي أشارت إلى قدوم هذه البعثة الصينية لليمن، ابن الديبع، عبدالرحمن، الفضل المزيدي على بغية المستفيد، تحقيق يوسف شالح، مركز الدراسات والبحوث اليمنية صنعاء، ١٩٨٣م، ضمن حوادث سنة ٨٢٣هـ. ص ١٠٧. بامخرمة، أبو محمد الطيب بن عبدالله، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، عني به، بوجمه مكري، خالد زواري، دار المنهاج، السعودية، ٦ أجزاء. ضمن حوادث سنة ٨٣٥هـ. انظر (٤٠/٦) وعنها أيضاً محيرز، عبدالله، رحلات الصينيين ص ٦٥.

(١٠) خليل، د. محمد محمود، الخليج والجزيرة العربية في الوثائق والحواليات الصينية، مرجع سابق، ص ٢٤٠.

(١١) المرجع السابق، ص ٢٣٩.

(١٢) رحلات الصينيين الكبرى، ص ١٣٠.

(١٣) للمزيد من التفاصيل عن هذا النظام ومراسيمه انظر خليل، الخليج والجزيرة في الوثائق والحواليات الصينية ص ٢٢٤.

(١٤) رحلات الصينيين الكبرى، ص ٨٧-٨٨. ولهذا النص الذي كتبه مترجم الرحلة (ماهوان)، في كتابه (مشاهداتي في شواطئ المحيط الظفار) صيغ أخرى اختلفت مفرداتها بسبب إشكالية الترجمة وتنقل النص الواحد بين اللغات المختلفة، منها النص الذي أورده د. خليل في بحثه الخليج والجزيرة العربية، مرجع سابق ص ٢٦٥. وثمة نص آخر نسب لمؤلفه الصيني (فايسين) الملقب بـ(قونغ شياو) وهو لا يختلف في مضمونه عن هذا النص الوارد تجعلنا نعتقد أن كاتب النصين واحد. وللعلم أن فايسين هذا كان مرافقاً لماهوان في تلك الرحلات تحت إمرة القائد الطواشي (تشينغ خه)، وفايسين أيضاً رجل مسلم، من منطقة كونشان ومن قومية الهوي. عنه انظر المرجع السابق، د. خليل، الخليج والجزيرة العربية، ص ٢٥٨.

(١٥) يقصد به يوم الجمعة.

الهوامش:

- (١) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، (٤/٦٠).
- (٢) عند المؤرخ شيخ الربوة: اختطها أحمد بن محمد سنة ٦٢٠هـ وأسماءها بالأحمدية. انظر أبا عبدالله محمد الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص ٢١٨.
- (٣) العلوي، محمد بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية (١/١٧)، ومن الواضح أن ظفار هذه أقدم بكثير من هذا التاريخ الذي ذكره ابن هاشم.
- (٤) كانت ظفار قبيل انتزاع السلطان (علي بن عمر) خاضعة لنواب بني رسول، وكان الحرائيون (شهاب الدين أحمد بن عامر الحراني) يحكمونها نيابة عنهم، أو أنهم استقلوا بها، واستمروا فيها إلى أن هاجمهم السلطان (علي بن عمر الكثيري) سنة ٨٠٧هـ/٤٠٤م وبعد عدة مناورات اتفق الطرفان (الكثيري-الحراني) على أن تكون البلاد مناصفة بينهم، فعين علي بن عمر ابن قسمان حاكماً على ظفار، بينما أصبح ابن جسر حاكماً على النصف الآخر، إلا أن ابن جسر كما يقال غدر بابن قسمان، مما اضطر السلطان علي بن عمر إلى التوجه إلى ظفار على رأس قوة كبيرة، والسيطرة عليها سيطرة كاملة سنة ٨١٦هـ/٤١٣م. انظر العلوي، أحمد شنب، تاريخ حضرموت ص ١٥٧، ص ١٦١. بينما أشار المؤرخ ابن حجر العسقلاني وهو معاصر لهذه الفترة أن علي بن عمر الكثيري انتزع ظفاراً من حاكمها الأخير (عبدالله بن محمد بن علي بن نزار الظفاري) الذي فر هذا هارباً بعد خسارته أمام الكثيري إلى مكة ثم اتجه إلى القاهرة وفيها مات فقيراً.
- انظر العسقلاني، ابن حجر، أنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٨٦م، عدد الأجزاء ٩، (٧/٤٤٠)، (٨/٢٩١)، وانظر د. خليل، محمد محمود، الخليج والجزيرة العربية في الوثائق والحواليات الصينية فترة العصور الوسطى، أسيرة مينج نموذج، المؤتمر الدولي الرابع حول العلاقات العربية الصينية، التاريخ والحضارة، كلية الآداب، جامعة قناة السويس، مصر، ٢٠١٢م، ص ٢٣٨.
- (٥) جاءت هذه التسمية نسبة للهدايا الثمينة التي حملتها تلك السفن، لتقدم إلى أمراء وسلاطين الدول المزاراة، وأيضاً لبضائعها الفاخرة التي كان الصينيون يتاجرون بها.
- (٦) ثمة لبس في وفاة السلطان (علي بن عمر الكثيري)، فعند المؤرخ أحمد شنب و كما أورده سنة ٨٣١هـ/٤٢٧م شنب ص ١٧٠. بينما نجد المؤرخ (محمد بن هاشم) وفي ترجمته للسلطان علي أشار ظنياً إلى أن وفاته سنة ٨٢٥هـ/٤٢٢م، وهذا وهم، انظر تاريخ الدولة الكثيرية (١/٦١)، كما أن المؤرخ (عبدالله

للعبادة. وبعد الصلاة يعودون إلى بيوتهم، وتبقى رائحة البخور تتضوع بعد مرورهم في الأسواق والشوارع. ويتقيدون بحرص شديد بالتعاليم الدينية في مراسيم الزواج والمآتم. وتنتج هذه البلاد البخور: عبارة عن صمغ من شجرة تشبه شجرة (الدردار) إلا أن لها أوراقاً مدببة طويلة. ويقطع الشجر باستمرار لاستخراجه وبيعه. وعندما وصلت -إلى هذه البلاد- مراكب الهدايا من البلاد المركزية قرئ المرسوم الامبراطوري، وأنعم على الجميع بالهدايا، وأرسل ملك تلك البلاد من ينادي فيها: إن كل من بحوزته شيء من البخور، ودم الأخوين، والصبر، والمر، واللبن الجاوي، أن يقايض -الصينيين- بحرير القنب، والصيني وغيرهما (من منتجات الصين). ومناخ هذه البلاد حار باستمرار أشبه بالطقس في الشهر الثامن أو التاسع. ويتوافر فيها الرز المقشور والذرة والقمح والذخن وبذور القنب وغير ذلك من الخضروات والقرع. كما توجد فيها البقر والغنم والخيل والحمر والقطط والكلاب والدواجن والبط. وتوجد النعام في الجبال يصطادها بعض أهل البلاد لبيعها. ولهذا الطائر جسم منبسط، وعنق طويل يشبه عنق الكركي. وطول ساقها ثلاثة أو أربعة (شية) ولها أصبعان في كل رجل، وشعرها كشعر الجمال، وتأكّل الحمص الأخضر، وغير ذلك من الأشياء، وتمشي كالجمال. ولذا سميت بـ(الطائر الجمال). وأما جملهم فلها سنام واحد فقط، كما يوجد لديهم أيضاً جمال ذات سنامين يستعملها كافة الناس للذهاب إلى الأسواق، وعندما تشيب ويدنو أجلها تذبح ويباع لحمها. ويصدر هذا الملك عملة ذهبية اسمها (تاجا شيه)، وتزن ٢ (شيين) بمقاييسنا. وقطر هذه العملة (تسن) واحد وخمسة (فن) على أحد وجهيها، وعلى الآخر رسم لوجه. ويصدر عملة نحاسية وزنها ٣ (لي) وقطرها يساوي ٤ (فن) للمعاملات التجارية الصغيرة. وفي اليوم التالي الذي تقرر فيه عودة المبعوث الإمبراطوري، أرسل ملك هذه البلاد مبعوثاً -برفقة المراكب العائدة- يحمل هدايا من البخور والنعام وغيرها لتسليمها شخصياً للبلاط).

مصنعة آل العمودي بوادي دوعن

معلم تاريخي وسياحي



مصنعة (١) آل العمودي بمدينة صيف هي مجموعة من المباني الطينية، تقع فوق تل يشرف ويطل على كل أنحاء المنطقة، وتبدو المصنعة للعيان من جميع الجهات، وتعود لأسر آل العمودي، وقد أشار المؤرخ ابن عبيد الله السقاف في كتابه معجم بلدان حضرموت إلى هذا المعلم بقوله (ولها - أعني صيفاً - قلعة صعبة المرتقى يسكنها الشيخ باعلي وهو شيخ شهم رحب الجنب واسع الصدر كريم الشيم من ذرية الشيخ علي بن سعيد بن عيسى العمودي ...) ومما قاله شعراً عندما أتى إلى صيف :

وسرنا إلى صيف ولم تر مقلّة كجامعها في أرض دوعن أكتعا
وهبوا بنا في ضجة وزماجر إلى علو حصن للنجوم تطلعا

بعض الأيادي التي حاولت أكثر من مرة الاعتداء عليها مما أدى الأمر إلى تغير الكثير من معالم هذه المباني واندثار البعض منها خصوصاً ما يسمى الغلب الذي تدمر بالكامل واختفت معالمه إذ يعد أعلى موضع بالمصنعة.

ونتيجة لما تعرضت له هذه المباني وفي لفظة كريمة من أسرة آل العمودي ملاكها الذين استقر بهم المقام بالمملكة العربية السعودية كغيرهم من الحاضرات في طلب الرزق تم تمويل مشروع لتأهيل وصيانة وترميم المباني عبر مؤسسة دوعن للتنمية ضمن مشروع أطلق عليه الحفاظ على

وتعود المصنعة لأسرة آل العمودي التي جمعت بين سلطة العلم والحكم في آن واحد، وهي مجموعة من المباني المترابطة والمتلاصقة بعضها ببعض، أقدمها الغلب وهو يشكل المصنعة القديمة، ومع توسع الأسرة تمت إضافة عدة مبان تحيط بالغلب القديم الذي يوجد به مصلى صغير ومجموعة من مخازن الحبوب والتمور وسلسلة مترابطة من المباني يسهل التنقل بينها من الداخل وهي تعتلي أعلى قمة بمدينة صيف.

ومع مرور الزمن تعرضت هذه المعالم للاندثار بفعل الأمطار وعيث



محمد سالم بن صويلح

وتعد المصنعة من المعالم الأثرية والسياحية بوادي دوعن محافظة حضرموت .. لم يعرف تاريخ بنائها حتى هذه اللحظة؛ إذ يحتاج الأمر إلى دراسة من قبل المختصين في جانب التاريخ.



التراث الإنساني المعماري؛ حيث أوكلت هذه الأعمال للمقاول صالح باشامخة باستخدام عمالة حضرية ماهرة، روعي خلالها الحفاظ على نمط العمارة الطينية التي اشتهرت بها مباني وادي حضرموت من حيث استخدام الخامات المحلية مثل الطين والنورة وإعادة الرسوم والزخارف الموجودة بالنمط نفسه. ومما ميّز هذا المعلم التاريخي

ولتوثيق جميع عمليات التأهيل والصيانة التي شهدها المصنعة على مدى ١٢ شهر وذلك من ديسمبر ٢٠١٥م إلى ديسمبر ٢٠١٦م تم عمل معرض دائم للصور عرضت أثناء الافتتاح الرسمي الذي تم برعاية اللواء أحمد سعيد بن بريك محافظ حضرموت الذي مثله مدير مديرية دوعن الأستاذ سالم علي الهيج لتصبح المصنعة في ثوبها الجديد واجهة تاريخية ومعلماً سياحياً للمنطقة وربوع حضرموت التي نأمل أن تصبح مزاراً سياحياً يوماً ما ...

الواقع بجانب هذه المباني بهوية المآذن نفسها بوادي حضرموت، إضافة إلى السور والبوابة التي أنشئت



وأعطاه لمسة جمالية إعادة غرفة الغلب بالمصنعة القديمة ضمن أعمال التأهيل والصيانة؛ حيث أصبحت غرفة

بهدف حماية هذا الموروث من الاعتداء مرة أخرى، مع وضع مسميات لجميع المباني شملت الأسر التي تسكنها من مشايخ آل العمودي ..

الغلب تطل وتشرف على ثلاث جهات لمدينة سيف، وهي أعلى غرفة ضمن مباني المصنعة. وتمت إضافة مئذنة مسجد جحلان،

(١) المصنعة : مفرد ، جمعه مصانع ، وهي قلاع ومراكز حربية هامة ؛ محصنة جيداً ، ومنتشرة في حضرموت.





قيمة تراث الأجداد للأبناء وأهميته

كانت المعارف والمهن والتراث الشعبي عموماً في سالف الحقب والأزمان، تنتقل شفاهة وبالتطبيق العملي بين الأجيال من الأجداد والآباء إلى الأبناء، والقليل منها ينتقل بالتدوين. فكان الأجداد والآباء هم المعلمون وهم القدوة والمثل الأعلى للأبناء. كان الطفل يهيئاً للمهنة بالتشويق لها عبر القصص والحكايات ومغامرات الأجداد والآباء. فينشأ الطفل وقلبه عامر بحب المهنة، وذكريته معبأة بتراث الآباء والأجداد. هكذا كان الحال في كثير من البلاد قبل الثورة العلمية والصناعية، وما زال الحال كذلك في أمريكا والدول الأوروبية مع تغير وتطور الوسائل والأساليب. إذ مازال الأب أو الأم يحرصون على قراءة القصص والحكايات لأطفالهم قبل النوم، وغالباً ما تكون من التراث. بل إننا نجد أن أغلب مسلسلات الكرتون والأفلام التي تبث للأطفال تمجد التراث الأوربي.

من النواخذة والبحارة، بعد تحطم وغرق بعض السفن، وحمدنا الله على نجاة من نجا منهم. وكما امتلأت صدورنا إعجاباً بهم وفخراً وزهواً وهم يصدون قراصنة البحر وينتصرون عليهم.

عشنا معهم فرحة العودة من البحر (التدبيره). كنا مع النسوة وهن ينشدن ويغنين (التجلوب)، والفرحة والأمل تملآن قلوبهن بعودة آبائهن وأزواجهن وأبنائهن سالمين غانمين. ونزلنا مع الصبية إلى شاطئ البحر نحتفل باستقبال العائدين. وشاهدنا قدوم السفن مع قرع الطبول (الكاسر). وكنا نشاهد بفرحة غامرة البحارة يحملون النواخذة على أكتافهم من القارب بعد وصوله الشاطئ إلى البر، حيث الأهل والأصحاب في استقبالهم، ويتخلل ذلك زغاريد النساء. عشنا كل ذلك من خلال حكايات الأجداد والجدات. فقد سمعت من جدي حسين بن

وموت مهنة الملاحة البحرية بالحامي، وشاهدنا آخر الرحلات البحرية، وطعمنا الحلاوة المسكتية والصار وتمر البصرة وهدايا الهند وشرق أفريقيا. كما شاهدنا تقاعد عدد من نواخذة السفن الخشبية وربانتها وبحارتها.

ورغم ذلك، عشنا معهم في كثير من رحلاتهم ومغامراتهم البحرية، وطفنا معهم في كثير من البلاد التي نزلوا فيها. فزرننا سقطرة وزنجبار ودار السلام كما زرننا بربرة في الصومال ونزلنا زيلع والحديدة، وفي رحلات أخرى زرننا مسقط والبحرين والبصرة وبلاد الهند، وتعرفنا على كثير من ثقافات وعادات شعوب تلك البلاد.

زأغت أبصارنا وكادت قلوبنا تخرج من حناجرنا، ونحن نعيش معهم وهم يكابدون أهوال العواصف والزوايع والرياح وهيجان أمواج المحيط. واغتمت نفوسنا حزناً وكمداً على فقدان الأهل والأصحاب



د. صادق عمر مكنون

كانت مهنة الملاحة البحرية هي المهنة الرئيسة لسكان مدينة الحامي، تتناقلها الأجيال أباً عن جد. كان جيلنا آخر جيل شاهد جيل الأجداد الملاحين وعائشهم، وفي الوقت نفسه هو الجيل الذي انفصل تماماً عن مهنة الأجداد. بينما جيل آبائنا الجيل المخضرم، مارس مهنة الأجداد ثم انفصل عنها واغترب عن الوطن والمهنة. شاهدنا في طفولتنا وصبانا حالة احتضار



23

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

فكانت مناهج التعليم تدرس تاريخ كل المناطق والأهم وتراثها إلا تاريخ حضرموت وتراثها.

وجاءت حقبة الوحدة مترافقة مع العولمة. فاعترب الأبناء عن تراثهم وواقعهم، فلم يعد الآباء يقصون أمجاد ومفاخر أجدادهم، ذلك لأن الآباء منشغلون عن الأبناء بتخزين القات ومشاكل الحياة، وانشغل الأبناء عن الآباء بمشاهدة شاشات التلفزة، فأصبحت أبصارهم مشدودة وقلوبهم معلقة بأبطال مسلسلات الكرتون وأبطال المسلسلات المدبلجة، فضلا عن انشغالهم بوسائل التواصل الاجتماعي الحديثة. وظلت مناهج التعليم خالية من تراث حضرموت وتاريخها.



مدينة الحامي

إننا لا نقصد مما سبق أن يمتن كل أبنائنا مهنة الملاحة البحرية، ولكن يجب أن تمتلئ قلوبهم بالقيم الإيجابية لتلك المهنة من إيمان عميق بالله وحب للعمل والشجاعة والمغامرة والإبداع وعدم الشعور باليأس. ذلك أن الحياة محيط كبير تتناوبه أحوال متفاوتة بين سكون تهب عليه رياح طيبة، وحالة تهب عليها رياح مزعجة وعواصف هوجاء وأمواج هائجة. وكل مهنة من المهن هي سفينة نركبها نكتسب منها ما كتبته الله لنا من رزق، وننفع بها أهلنا ومجتمعنا. لهذا يجب علينا أن ننمي تلك القيم في نفوس أبنائنا بصرف النظر عن المهنة التي يمتنونها، من خلال حكايات ومغامرات الأجداد والتركيز على الجوانب الإيجابية فيها، ومن هنا يكتسب التراث قيمته وأهميته.

إنزال حطام سفينته التي أقلتها سفينة أخرى رست أمام منزله الكائن بجوار مسجد المحضر. والتقيت الناقذة عبد الله سالم حبيشان والناقذة غالب بن عبد الرب السعدي. كما التقيت بعد ذلك بسنوات في موضوع مرتبط بالملاحة البحرية عوض عمر باصالح وعوض بن تمام (بو شليح) وهما في درجة آخر جيل من البحارة الذين استمروا في العمل الملاحي بالسفن الخشبية التي انقرضت في الثمانينات وتوقف العمل بها وسيلة للنقل البحري.

ولكن للأسف الشديد ومع عدم استقرار، وكثرة انتقالاتي وأسفاري، ضاع كل مادونته، ولم يمكث في الذاكرة إلا الشئ القليل.

إبراهيم مكنون كثيرا من حكايات البحر عندما كنت صغيرا. واستمعت الى حكايات أخرى من بعض النواخذة والبحارة الذين كانوا يرتادون دكان خالي إبراهيم حسين مكنون، من أمثال الناقذة المشهور الشيخ شيخ بن محمد باعباد، والعم سعيد بن محمد المقدي والعم حسين أحمد عديد. كانت تلك الحكايات تغرس وتنمي في نفسي مشاعر الحب والإجلال والإكبار لأجدادنا الذين كانوا يحملون في قلوبهم إيمانا قويا بالله أورثهم قيمة عظيمة من أهمها: الصبر وحب العمل والمغامرة وعدم الشعور باليأس مهما حدث، فكانوا كلما غرق وتحطم لهم مركب بنوا مركبا آخر وعادوا إلى البحر. وقد قال فيهم الشاعر سالمين بن عمر بن مسلم الشحري (ت ١٩٤ هـ):

بن مسلم قال بالناظور خايل ساعية

تنتخت من زنجبار

وسعتها شبان ذي ما يحسبون التالية

يطعمون الحلو قار

ومما عزز فينا ذلك الإعجاب والإكبار صدور كتابي المؤرخ الحضرمي محمد عبد القادر بامطرف وهما: الرفيق النافع والشهداء السبعة للذين أشار فيهما إلى دور ملاحي الحامي في مقاومة الغزاة البرتغاليين. إن هذا الحب والإعجاب والإكبار دفعني وأنا في المرحلة الإعدادية لمحاولة إعداد موضوع عن ملاحي الحامي. فأشار علي الأستاذ أحمد سالم باشحري أن استقي معلوماتي حول هذا الموضوع، من النواخذة والربابنة الذين ما زالوا على قيد الحياة.

فالتقيت الملاح المعمر الشيخ محمد بن عبد الله باعباد في جلسات عدة. وكنت لا أزال أذكر وصول خبر غرق إحدى السفن وتحطمها ووفاة أفضل بحارته وأشهرهم جوهر، وكان وقع الخبر عليه مؤلما، وعم الحزن مدينة الحامي. كما التقيت صديقه الناقذة أحمد سعيد باهيال، الذي شهدت قبل ذلك ببضع سنين إنزال حطام سفينته التي تعرضت لعاصفة هوجاء حطمت السفينة وأغرقتها، وقد نجا مع جميع بحارته بعد أن أنقذتهم سفينة أخرى. وفي مشهد مؤثر لا زلت أذكره توافد أهل الحامي إلى بيته يواسونه ويساعدونه في عمل طوعي جماعي في

كل تلك القيم التي حاول الأجداد غرسها فينا، من حب العمل والتفاني فيه وحب المغامرة والإبداع، حال دون نموها كساد مهنة النقل البحري بالسفن الخشبية التي حلت محلها الناقلات البحرية العملاقة. وتحول الآباء من العمل بمهنة الأجداد إلى الاغتراب والعمل في الدول النفطية الخليجية خصوصا الكويت. وأصبح جل همهم جمع قليل من المال لشراء الهدايا وبعض الملابس للتفاخر بها عند العودة للبلاد. فكان الأبناء يتطلعون إلى تقليد آبائهم. فأصبح هدف كل منهم في الحياة السفر إلى الكويت، فانقطع الكثير منهم عن الدراسة وسافروا إلى الكويت، والقليل منهم واصل الدراسة هناك.

كما حال دون نمو تلك القيم مشروع الاغتراب الثقافي في الحقبة الاشتراكية.



عادات البناء في مدينة شبام



د. محمد صالح بلعفير

شبام حضرموت عالم حضاري قائم بذاته ولذاته ، ومع ذلك كان منفتحاً على كل الفضاءات القريبة منه والبعيدة ، وهنا في أعماق الماضي وصيرورة الحاضر، يقبع هذا المارد الطيني مسوراً بالجدران ومحاطاً بهالة الزمان، زمان العمالققة في كل شيء في أخلاق البشر، ومبادئ الاقتصاد، وقواعد التجارة، وأرقام البورصات قبل أن تعرف شاشاتها الإلكترونية قبل عقود قليلة ماضية . إذاً فهي شبام مدينة التجارة والبورصة والعمارة الأسطورية، المدينة التي تعلمنا أبجديات الحياة من ألفها إلى يائها، وهي تقدم قصة نجاح لمن يريد أن يتعلم مبادئ الحياة وأصولها، وكذلك شروط النجاح على الطبيعة وليس على رسائل شركات الجوال التي تدغدغ عواطف المشتركين على طريقة كيف تصبح مليونيراً!

خلاصة القول إن مدينة شبام هي مدرسة للتاريخ والاقتصاد والعمارة الطينية والفنون الزخرفية، وهي بكلمة موجزة مدينة حضارية .

والصلابة، والذي عادة ما يستخدم في التغطية وصنع النوافذ والأبواب والأعمدة (الأسهم) وتيجانها (الكباش) وزخرفتها، إضافة إلى أخشاب أخرى مثل اليعبور.

ومثلما هي الحال في مدينة تريم (٣)، فإنه إذا سئم صاحب المنزل من النجار ورأى ضرورة الاستغناء عنه بحجة أنه لم يقيم بعمله على أكمل وجه، يعطيه تعويضاً (قصوعة) ومن ثم يأذن له بالانصراف، فإن مثل هذه العادة متبعة أيضاً في شبام، وإلا فإن صاحب المنزل لن يجد نجاراً آخر للعمل لديه، بل إن الأخير يسأل عن النجار السابق والحصول على إثبات منه يؤكد أنه قد استلم القصوعة.

وفي خطوة تالية، وقبل الشروع في عملية إعادة البناء يتم عقد اتفاقية بين كبير البنائين أو معلّم البناء ومالك

الداخلي، وبعبارة أخرى توجد عدة خطوات لابد من إنجازها حتى يصبح المنزل صالحاً للسكن (١).

وفي هذا السياق جرت العادة أن يقوم كبير البنائين - في خطوة أولى - قبل تهديم المنزل بأخذ مقاييس النوافذ والفتحات مثل فتحات المزاريب (حنك) والعكر وهي الفتحات المستطيلة الصغيرة التي تمد الطابوق الأرضي بالضوء والهواء وغيرها من العناصر المعمارية (٢)، ثم يقدّر كل ما يحتاجه المنزل الجديد من أخشاب، الأمر الذي يفرض على صاحبه البحث عن أمهر النجارين في مدينة شبام، ويتولى الأخير مهمة توفير الأخشاب بعد توقيع اتفاقية تظل سارية المفعول حتى الانتهاء من عملية البناء. ويأتي في مقدمة الأخشاب التي ينبغي على النجار توفيرها خشب شجر السدر (العلب) الذي يتميز بالقوة

في شبام ومثلها مدينة تريم، توجد عادات عديدة متبعة في البناء بدءاً من حفر الأساس وحتى اكتمال بناء المنزل، ويعود ذلك التشابه إلى أن مالك المنزل عندما يريد إعادة بناء منزله أو منزل آخر آلت إليه ملكيته عن طريق الشراء، يبحث أولاً عن أمهر البنائين والمسوسين (المفرد: باني الأساس)، من أبناء مدينة شبام نفسها أو مدينة تريم التي اشتهرت بنخب من أبنائها في مجال البناء ليس في تريم وحدها وإنما في داخل حضرموت وخارجها، خاصة في عمارة البيوت الكبيرة، والمساجد ذات المنائر العالية والحقيقة التي بدت لنا من العمل الميداني في المدينة وزيارتنا لها ولقاءاتنا مع عدد من معالمة البناء، أن هناك عدداً من العادات التي تربط مالك البيت بأطراف مختلفة من عمال البناء والنجارين والمختصين بالتبليط



المنزل فيما إذا كان البناء سيكون عن طريق المقاول أو الأجر اليومي وإن كان الأخير هو المعمول به إلى أيامنا هذه. وعادة ما يكون ضمن بنود الاتفاقية إلزام مالك المنزل بتقديم ملابس العمل للعمال وبعض الأغنام التي تذبح في أثناء عملية البناء، ومقدار من التمور التي يتناولها العمال في فترة الراحة.

ويلاحظ أن معلم البناء هو الطرف الاعتباري الذي تعقد معه الاتفاقية المذكورة، أما العمال فلا يدرون شيئاً عنها عدا ما يسـتـلمونه من أجر من المعلم وعلى فترات في أثناء العمل فقط.

ومن أسف أننا لم نعثر أو لم نحصل على نسخ من هذه الاتفاقيات وبنودها، وما تتضمنه من التزامات كلا الطرفين.

وبعد الانتهاء من بناء الأساس من الحجر، وقبل البدء بوضع المدرة (الطوبة) الأولى وفي اليوم المحدد لوضعها، يوجه صاحب المنزل دعوات لأهله وأقاربه وجيرانه فضلاً عن القائم بأعمال الشرع والعدل في المدينة وهو في الوقت نفسه ناظر (خيل السد) المسئول عن سد المدينة الذي يوزع المياه إلى الحقول الزراعية ويحميها في ذات الوقت من خطر السيول، وذلك لحضور هذا الحفل البهيج. وفي الصباح الباكر يتوافد المدعون ومعلم وعمال البناء، وقبل وضع الطوبة يذبح ماعزاً أو خروفاً على إحدى زوايا الأساس (الخشم وجمعه خشوم)، ثم ينثر الدم على كل الزوايا ليمنع الجن من الدخول للمنزل، ويلى ذلك وضمن الطقوس المتبعة أن يطلق أحد العمال بأعلى صوته ترنيمة تدعو بالحظ السعيد ويرددها العمال تباعاً، وهذه الترنيمة تسمى (التخوية) يقول فيها صاحبها: "إذا جاؤوا للشاذلية يعطي من أعطى، والصبر والتقوى، ولا يجني في خطأ، يامن حقّه يجمّله ويستتره وهكذا المليح واللّه اللّه في الجودة بالجيران".

وبالنسبة إلى الذبيحة فإن الجزء الأكبر منها يذهب للمسوّس (باني الأساس) والعمال الآخرين، في حين يحصل مالك المنزل على الخمس منها. وبمعزل عن نصيب صاحب المنزل الذي يتصرف كيفما يشاء، فإنه يعد ضيافة خاصة ومنفردة حيث يذبح ماعز أو خروف أو اثنين، ومثل هذه العادة موجودة أيضاً في مدينة تريم.

أما فيما يتعلق بالتخوية فهي ليست مقتصرة على يوم وضع الطوبة الأولى بل تتباعد على العمال من الجيران والأقارب القهوة الشاذلية في كل مراحل البناء، وليس لها أية علاقة بصاحب المنزل، إذ كانت تقدم كهبة من هؤلاء وحينها يطلق العمال تخويلاهم، وهي عبارة عن كلمة شكر وثناء على صنيع الجيران، وهي مجرد دين ووفاء يعيده صاحب المنزل لجيرانه وأقاربه عند تشييد أحدهم لبيته الجديد. وبتعبير آخر، إنه في شبام كما هي الحال في مدينة تريم، يضمن الجار بشكل غير كتابي خدمات أقرب ما تكون إجبارية ككرم ساند بين الجيران. ففي كل وقت

الجدير بالإشارة هنا إلى أن مثل هذه العادة أصبحت معمرة ليس بالنسبة إلى المواطنين، بل على مستوى المشاريع الحكومية في كل أنحاء العالم حيث يوضع حجر الأساس لأي مشروع في احتفال رسمي.

وفي هذا الصدد، أي بعد وضع الطوبة الأولى يقوم شيخ المدينة وهو القائم بأعمال الشرع والعدل بقراءة الفاتحة، ثم يُحرق بكثرة اللبان (البخور)، وتوزع الشاذلية على الحاضرين وهي القهوة التي تنسب إلى الشيخ الصوفي العارف بالله شمس الدين علي بن عمر بن إبراهيم الشاذلي اليميني المخاني.

ومن الغريب أن هناك عادة أخرى وهي وضع المر والحلثيت وقطعة حديد في إحدى الزوايا اعتقاداً من صاحب البيت بأنها تطرد الشياطين من حوله، وكذا توضع في منتصف البناء قطعة سوداء من القماش أو يعلق حذاء، وأحياناً قرن وعمل لمنع عيون الحساد، وإن زالت هذه العادة أو بدأت تزول من بعض البيوت الجديدة إلا أنها كانت - إلى وقت قريب - متبعة في البيوت القديمة.



إحضار القهوة، يخول العمال ويتوقفون حين ينتهون من شرب القهوة.

وعندما يقترب بناء الدور الأرضي من نهايته أي بعد وضع العوارض وعتبات الطوابق يحصل العمال على مكافأة أخرى وهي الذبيحة الثانية ليكون صاحب المنزل شريكاً لهم، حيث يذبح ماعزاً أو خروفاً على واجهة المنزل ثم يفرش الدم على التيسورة (جمعها تياسير) وكذلك يحصل معلّم البناء على ربع الذبيحة ومثله النجار وصاحب المنزل، وما تبقى يذهب للعمال. وتقام لهذه المناسبة عزومة (وليمة) غداء تعرف بغداء التياسير، وتتتابع هذه العادة عند وضع العوارض والعتبات في كل طابق إلى حين انتهاء البناء.

وباكتمال بناء المنزل، وهو دون شك مناسبة كبيرة لصاحب البيت، تذبج الذبائح للعمال، وتقدم لهم الهدايا والجوائز من الألبسة ومبالغ نقدية يحصل معلّم البناء على ضعفها، وهي ما تسمى (القصوصة). وبهذه المناسبة تزغرد النساء، وبعد حفل التكريم هذا يرقص الرجال ويشاركهم أحياناً الأطفال في صفوف متراسة، ثم ينتقلون إلى التجوال في شوارع المدينة وأزقتها فرحين ومعلنين انتهاء العمل في دار

فلان، ويشاركهم في ذلك بعض أهالي شبام. وبختام هذا الحفل البهيج تنتهي علاقة عمال البناء بمالك المنزل.

إلى هنا لم ينته العمل بصفة نهائية في المنزل قيد الانشاء، إذ تبقى خطوة أخيرة ونهائية حتى يكون المنزل صالحاً للسكن، وتتمثل هذه الخطوة في عملية التبليط الداخلي، وهي عملية تتم كما جرت العادة عن طريق المقاوله بين معلّم النورة أي الشخص الذي يقوم بطلاء المنزل بالنورة (الجير) وبين صاحب المنزل، ويوجد لها شيء من الإجراءات كما هي الحال في عملية البناء. فإذا ما تم الاتفاق على المقاوله يتكفل معلّم النورة بتجهيز أدوات العمل كافة وكل ما يحتاجه العمال من أجرة وزاد، وعلى العكس من ذلك إذا كان ذلك عن طريق الأجر اليومي، إذ يظل العمال على صلة وثيقة بمالك البيت كما النجارين حيث يظلون على استعداد تام لتلبية ما يريده أو يرغب في تنفيذه لا سيما في فترات الأعياد أو أية مناسبة أخرى لطلاء منزله سواء كان في الداخل أم الخارج.

وفي صدد النورة يوجد في ضواحي مدينة شبام عدد من الأفران (الكيار ومفردها كير) لصناعتها، وتجلب مادتها من الحجارة الجيرية التي ترص في هذه الأفران ثم تحرق بالأخشاب من أسفل، وبعدها تقوم مجموعة من العمال بإطفاء الجير بالماء ثم يضرب عليه بأعواد على أرضية صلبة إلى حين يصبح ليناً.

وقد جرت العادة أن تتم عملية الطلاء بطبقات مختلفة تبدأ أولاً بالطين المخروط بالماء والتبن (قش القمح) ثم بالرماد وهو بمثابة الاسمنت ويستخدم من القرن



مباشرة بعد الحرق ويليها الجير الذي يصنف حسب رغبة صاحب المنزل ونوعه، وهذه العملية تسمى (الطرقة)، وتليها (الرشوشة) وتتكون من خليط الجير مع الماء والملح، وهي الطلاء الأخير، وعادة مايتزامن التبليط الداخلي مع تركيب النوافذ والأبواب.

وعقب كل هذا العمل الذي يأخذ عدة سنوات ينتقل صاحب المنزل إلى مأواه الجديد، وهنا يحظى بآيات التبريك من الأهل والجيران ثم تتوج عملية النقل بإقامة وليمة خاصة للرجال وأخرى للنساء وتنتهي بالموالد حيث توزع الحلويات والقهوة على الحاضرين.

الهوامش :

(١) قبل الشروع في إعداد هذا المقال تذكرت موضوعاً للأخ والزميل في مرحلة البكالوريوس بجامعة عدن محمد ناصر الكلي الذي كتب عن عادات وتقاليد البناء في مدينة شبام، ونشره في مجلة الحكمة في مطلع الثمانينات من القرن الماضي (العشرين)، ومن أسف أنني أضعت ذلك العدد ماعدا مقتطفات منه، وحتى هو فقد العدد المذكور، وعليه ومن باب الأمانة العلمية رأيت أن من الأهمية بمكان الإشارة إليه، لا سيما وأن المكتبة الوطنية بعدن التي كنت أعول عليها في العثور على ذلك المقال قد خرجت عن الجاهزية، ولم تعد كما كانت ملاذاً علمياً للباحثين.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن ثقافة إعادة البناء في مدينة شبام، وبخاصة أخذ مقاييس النوافذ والفتحات وبقيّة العناصر المعمارية الأخرى قبل تهديم المنزل، وهي العملية التي تعرف ببيان شل المنافذ، ينظر موضوعنا بعنوان: أضواء على التراث المعماري لمدينة شبام حضرموت (ثقافة إعادة البناء)، في مجلة حضرموت الثقافية السنة الأولى العدد ٢، ربيع الأول ١٤٣٨ هـ، ديسمبر ٢٠١٦، ص ٧٦-٧٩.

(٣) في هذه المقالة، ثمة معلومات مأخوذة من بحث علمي للمستشرق الإنجليزي سرجنت باللغة الإنجليزية بعنوان: البناء والبنائون في Serjeant. R.B. Building and Builders in Hadhramaut, Le. Museon, Louvain, ١٩٤٩.



ورقة نقدية حول تقرير البعثة الفرنسية للتنقيب عن الآثار في منطقة شرمة - حضرموت *

بحوالي ٩٨٠م - ١١٥٠م - (٢٧٠هـ - ٥٤٥هـ).

٦- لسوء الحظ، لم يكن تحديد الأزمنة وترتيب تسلسلها في شرمة واضحاً، بقدر ما كان متوقفاً، حيث إن عمق الرواسب الأثرية لا يتجاوز مطلقاً مترين بين سطح الأرض والطبقة السفلية التي ظهرت في عدة أماكن، علاوة على ذلك فإن التعرية الشديدة قضت على الطبقات العلوية والأرضيات، وهذا يعني عدم توافر المستويات المدفونة بشكل أكبر.

٧- كما كانت شرمة مأهولة في فترة حضارة جنوب الجزيرة العربية.

٨- ويرى الباحثون أن رأس شرمة كان معزولاً ويصعب الوصول إليه من داخل البر.

٩- إن شرمة لم تكن ميناءً يمينياً بالمعنى المفهوم، بالرغم من أننا لا نزال نجهل الكثير عن تاريخ حضرموت لتلك الفترة، إلا أننا نعرف أنه لم تكن هناك سلطة مركزية قوية تحكم تلك المنطقة، كما أنه من الصعب أن نتصور قبيلة محلية تفلح في إنشاء مركز اقتصادي على هذا الطراز وتنفخ على الفور في تجارة مع مناطق بعيدة مثل الصين وأفريقيا.

البضائع بدون دفع ضرائب عليها، ونقطة عبور (ترانزيت) للسفن والمراكب، أسس بوساطة تجار أجانب على الأرجح أنهم إيرانيون.

٣- إن الدمار الذي لحق بالمركز التجاري في (سيراف - إيران) بفعل الزلزال الذي وقع ٩٧٧م .. أدى ذلك إلى إعادة التنظيم الكامل لشبكات الخطوط التجارية الخليجية في القرن ١١م ونهوض مراكز اقتصادية جديدة في (قيس وهرمز)، ولذلك يحتمل أن تأسيس شرمة والنشاطات المتعلقة بها، له علاقة بهذا التحول الرئيسي في تجارة القرون الوسطى.

٤- أما فيما يخص الهجرة المفاجئة من الميناء، فإن دراسة الواردات الصينية، أشارت إلى أنه حدث حوالي ١١٥٠م ... ويبدو أن هذه الحادثة المثيرة لها علاقة بوصول المصريين إلى هذا الرأس الممتد في البحر، وفي الحقيقة من الممكن أن شرمة دمرت أو هجرت نتيجة حملة مصرية، هذه الفرضية تدعمها حالة التوتر السائدة في ذلك الوقت بين التجار الخليجيين والفاطميين.

٥- لذلك تعد شرمة موقعاً غير نمطي (غير قياسي) ذات مدى زمني دقيق يقدر



سالم فرج مفلح

أولاً: نقد الجانب الحضاري:

١- تدل الخصائص المتميزة نوعاً ما للموقع، على أن شرمة لم تكن بلدة ذات مرفأً عادي في العصور الوسطى، كما كان ميناء الشحر المجاور المعاصر على سبيل المثال. حيث كانت على الأرجح ميناءً تجارياً أكثر تحصيلاً ونقطة عبور أمامية (ترانزيت)، تأسست بوساطة تجار كانوا في السابق قد أجادوا إنشاء شبكات خطوط تجارية... إن هذا المكان كان بكل تأكيد متصلاً بشبكات التجار الخليجيين (يقصد الفرس) الذين سيطروا على الطرق التجارية للمحيط الهندي في القرنين ال ٩ و ١٠ للميلاد.

٢- إن هذا الموقع كان مرفأً متميز جداً وميناءً تجارياً لتصدير واستيراد وعبور



ثانياً: نقد الجانب التاريخي:

• اعتمد التقرير على الوجود التاريخي لميناء شرمة و نشاطه التجاري الكبير على ما ذكره كل من المؤرخ المقدسي في عام ٩٨٥م والمؤرخ الإدريسي في عام ١١٥٠م (**)، وعلى ذلك قدرت البعثة عمر هذا الميناء منذ الظهور حتى انتهاء الدور بحوالي قرن ونصف القرن . غير أن لهذا الميناء بموقعه المعروف اليوم ذكر واضح ومحدد في خريطة الرحالة بطليموس في منتصف القرن الثاني للميلاد - ١٤٠م - ، فقد ذكر ميناء (الاسعا) أي الشحر كمركز تجاري تؤمه السفن عابرة المحيط الهندي ، وذكر غربها ميناء (بروم) وشرقها ميناء (شرمة) (١) .

كما ذكرها المؤرخ الرحالة أبو عبد الله محمد بن طالب الأنصاري الدمشقي - ١٣٢٧م - ٧٢٨هـ - عند ذكر حضرموت في كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) ، حيث قال : (و لهذا الصقع على ساحل البحر فرضتان : أحدهما شرمة والأخرى الشحر) (٢) .

و على ما ذكره بطليموس والأنصاري يتحقق ما يلي :

١ - الوجود التاريخي التجاري لميناء شرمة المتقدم في التاريخ الميلادي والمتأخر عن ما قرره التقرير بحوالي قرنين .

٢ - وهنا تسقط فرضية الوجود ونهاية الدور المذكورة في التقرير ، كما تسقط فرضية مسؤولية الفرس عن إنشائه والمصريين عن انتهاء دوره و تدميره حيث لا يوجد أي أثر كان للأعمال العسكرية من تخريب وحرائق وتدمير ، خاصة أن منطقة بحر العرب لم تعرف للفاطميين أي نشاط عسكري بحري فيها طيلة فترة حكمهم في مصر . .

٣ - اعتماداً على استمرار وجود الميناء ونشاطه حتى عهد المؤرخ الأنصاري عام ١٣٢٧م - ٧٢٨هـ ، فإن هذا يعني غياب أي أثر لحفريات لما بعد تاريخ نهاية الميناء الذي حدده التقرير - ١١٥١م - ١٣٢٧م ، و غياب أي أثر لما قبل تاريخ



خريطة مرسى شرمة في القرون الوسطى كما ورد في تقرير البعثة - وهي نفس خريطة المرسى اليوم - أي أنها خريطة لما بعد البركان والطوفان

ذلك لأنه وعلى مدى العصور الوسطى (أن العرب تفوقوا عليهم في النشاط التجاري والقيام بحركة الوصل بين أرجاء المحيط ، كما أن ذلك لا ينقص من دور الإيرانيين لأنهم أبعدوا وأضافوا للإنسانية الكثير في مجالات أخرى) (٣) ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن عرب السواحل الجنوبية للجزيرة العربية (القبائل المحلية بلغة التقرير) ليسوا في حاجة إلى وساطة الفرس التجارية منذ ما قبل الإسلام ، فقد (أظهروا نشاطاً في ركوب البحر لا نجده عند أهل السواحل الغربية) (٤) ، أما أهل حضرموت ، فقد (أظهروا في ركوب البحر بروراً لا نجده عند غيرهم من سكان السواحل) (٥) ، وفي كل الأحوال ، فإن النشاط التجاري في المحيط الهندي (كان نشاطاً واسعاً ، وأنه كان موجوداً قبل قيام الامبراطورية الفارسية ، وأن العرب بوصفهم من أوائل رواد الملاحة التجارية كانوا يقومون بنقل البضائع والمنتجات الهندية إلى بابل) (٦) . وعلى ذلك فإنه (يمكن القول بأن الملاحة التجارية في البحر العربي قد تزامنت على الأرجح مع فجر الحضارة ، وأن السكان

الظهور الذي حدده التقرير - ١٤٠م - ٩٧٩م ، ويظل السؤال أين اختفت تلك الآثار؟ وهذا السؤال هو سؤال فرعي من سؤال آخر كبير وأوسع وهو : أين اختفت آثار الحياة الانسانية والتجارية تماماً من سطح الهضبة ، فلا بقايا سكن ولا مقابر ولا أسواق ولا مخازن ولا تحصينات عسكرية (الطبقات العلوية والأرضيات) . ثم لماذا غاصت الأثرية التي عثر عليها في أعماق الهضبة دون ظهرها ؟ . أن الادعاء كما يقول التقرير أن ذلك كان بفعل التعرية القوية ، أمر غير مقبول البتة ، فما كان لعوامل التعرية أن تعدم كل أثر لحياة استمرت قروناً مديدة على هضبة الموقع مهما كانت قوتها .

٤ - و إذ يقر التقرير بحدوث (هجرة مفاجئة من الميناء) (ويعتد ذلك بـ (الحادثة المثيرة) ، فإنه لم يقدم تعليلاً لما يقره ، فحادثة الغزو المصري التي اعتمدها التقرير رغم تبين بطلانها ، لا تبرر ذلك ، كما أنها لا تبرر نهاية دور الميناء على الإطلاق .

ادعاء التقرير بسيطرة الفرس على ملاحية المحيط الهندي في العصور الوسطى ، إنما هو قول يفتقد للتأسيس ،



ثلاثة أو أربعة طوابق ، وفي أعلاها تقع المطابخ وغرف النوم حيث يقيم الضيف، وأما الطوابق السفلى فيعيش فيها العبيد . أما البضائع التي تم بيعها فهي الذهب و الفضة و المخمل و الحرير الصيني و الأرز و الفلفل و خشب الصندل والصمغيات . أما منتجاتها فهي العنبر والبخور و الجمال السريعة (١١) . هكذا كان مجتمع القبيلة المحلية في حياته العامة و علاقاته التجارية و هكذا كان يتصرف و يكتب على ورق من الذهب إلى ملوك الصين، وهنا تسقط دعوى التقرير بأن ميناء شرمة كان لا يأخذ أية ضرائب على الصادر والوارد ، ويبدو أن ذلك الاستنتاج الذي يزعمه التقرير يقوم على عدم العثور على أية عملة نقدية من أي نوع و من أي عصر في تلك التنقيبات . غير أن تلك القرينة تسقط تماماً إلا إذا كان الغياب شبه الكلي للمقابر خاصة الإسلامية و خرائب المباني في منطقة التنقيب يعني عدم وجود حياة بشرية في تلك المنطقة التي يقول التقرير إنها كانت تعج بنشاط تجاري غير عادي . وفي كل الأحوال ، فإن عدم العثور على أية عملة لأية جهة أو زمان أو عصر في هذا الموقع أمر غير مقبول البتة في الأحوال والظروف الطبيعية و المعتادة ، بل مستبعد حدوثه في حالة الكوارث الطبيعية الكبيرة مثل الزلازل مثلاً ، دون حالة كارثة طبيعية واحدة كما سوف نرى في حالتنا هذه ، و هي كارثة الطوفان العاتي المدمر

تنتفي دعوى تدمير الفاطميين لمدينة شرمة .

٧- وحتى عهد حاكم الشحر والمشقص والمهرة الذي تقع شرمة تحت ولايته عبد الرحمن بن فارس بن إقبال سنة ٦١٩ هـ - ١٢١٩ م - الذي يمثل (القبيلة المحلية) (بلغة التقرير) - ، كانت المنطقة تتمتع بازدهار تجاري و نشاط بحري و رخاء غير عادي ، هذا ما نفهمه من مدح الشاعر أبي حنيفة له ، حيث يقول :

أنت في البر وهاب القرى

أنت في البحر وهاب الفلوك

إن مدح بالكرم معطي المنة

فيما يمتدح معطي اللوك (١٠)

إن المعنى الذي يمكن فهمه من البيتين أعلاه ، هو أن حاكم الشحر ابن إقبال ، كان من الكرم و سعة الأموال ما سمح له بأن تصل مكرماته وهباته وعطاياه إلى صرف مستحقات الدولة من حمولة سفينة تجارية أو قرية عامرة بالحياة و النشاط الاقتصادي أو أن يهب الأموال الطائلة نقداً وعدا .

بل استمر ذلك الرخاء الذي يتمتع به ولاية و حكام الشحر وأهلها حتى منتصف القرن التاسع الهجري (عهد حكم آل أبي دجانة الإباضي) ، حيث يقول أحد التجار الصينيين الذي زار الشحر في تلك الفترة إن حاكم الشحر بعث برسالة إلى ملك الصين عبر هذا التاجر و كانت مكتوبة على ورق من الذهب و هدايا ، وإن بيوت الشحر مبنية من الطين و يبلغ ارتفاعها

الأوائل لجنوب الجزيرة العربية و شرقها كانوا على الأرجح أول الأمم التي مارست الملاحة في المحيط الهندي ، وأول من استورد المنتجات الشرقية لحساب الأقطار الأخرى ، و في الأيام الأولى من نشاط هؤلاء الملاحين و مغامراتهم ، كانوا ينتقلون من منطقة إلى أخرى باذلين جهوداً نشطة بمراكبهم الصغيرة التي كانوا يبحرون بها عبر الشواطئ الآمنة إذا داهمتهم العواصف أو اضطربت الأحوال الجوية في طريقهم ، وبفضل مراقبة العرب للكواكب والنجوم و تتبعهم لمسارها أقبلوا عن الأساليب الملاحية القديمة ، وبدأوا يقومون برحلات بحرية طويلة المدى ، وتمكنوا بفضل الرياح الموسمية من الوصول إلى مناطق بعيدة من العالم. (٧)

٥- من تاريخ (شرمة) في العهد الإسلامي المبكر في القرن الثاني الهجري ، أن الخليفة العباسي هارون الرشيد عندما سمع بتجارة (العنبر) في جنوب الجزيرة العربية ، بعث بثلاثة وفود إلى ثلاث مدن هي : عدن و شرمة وحاسك (٨) ، ومن المؤكد أن الغرض كان تحصيل الزكاة و ضريبة الدولة ، و من الملاحظ أن الحديث في هذا الخبر عن الموانئ الثلاثة بوصفها (مدناً) ساحلية تجارية و شرمة إحداهما ، و سواء ذكرت تلك الموانئ كموانئ أو مدن في هذا الخبر ، فإن من طبيعة العمران البشري أن تقام مدن عامرة حول الموانئ ، و لهذا نجد تقرير البعثة يتحدث عن (بلدة) شرمة ...

٦- و في عهد المؤرخ الشريف الإدريسي ٥٠٩-٤٩٣ هـ - أي في عهد الدولة الأيوبية التي حكمت مصر بعد الفاطميين ، كانت شرمة لازالت عامرة بالحياة و مركزاً مرموقاً في التجارة والملاحة البحرية، يقول المؤرخ الإدريسي : (و مدينة لسعا (يقصد الشحر) و شرمة على ساحل أرض حضرموت ، بينهما يومان في البرية ... و من شرمة المقدم ذكرها على ساحل البحر إلى مدينة مرباط ستة أيام في البحر) (٩) . و هنا



30

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

٨- إن غياب (الطبقات العلوية والأرضيات) الذي على ضوئه (لم يكن ممكناً تحديد الأزمنة و ترتيب تسلسلها في شرمة) كما جاء في التقرير ، يعطي مسوغاً علمياً لكل ما تقدم من هذه الورقة ، كما يعطي مسوغاً للبحث عن اسباب كل ذلك الغموض الذي يحيط بنتائج التنقيب وصعوباته.

ثالثاً : نقد الجانب الجغرافي :

المعنى اللغوي لـ (شرم) : شرم الشيء أي شقه . انشرم : انشق . الشرم : الخليج . الشرم : لجة البحر . و التشريم : التشقق . هذا يعني أن اسم (شرمة) : يدل على

وجود اليوم ، شأنه شأن رأس شرمة ، إذ إن ميناء القرن اليوم يقع في مصب وادٍ كبير ، فلا يوجد هناك (قرن) إلا ما تبقى من بقايا القرن السابق في اتجاه منطقة شرمة . حوض مرسى شرمة التاريخي هو المرسى الصالح لرسو السفن اليوم ولازال محصوراً بين بقايا الرأس والقرن . كما عرفت (شرمة) في الأخباريات الحضرمية باسم (رأس شرمة) ، و لرأس البحري هو عبارة عن جبل ممتد في لجة البحر ، و هذا يعني أن شرمة اليوم ليست شرمة (الرأس) لأنها لم تعد مشرومة ، فهي ليست أكثر من (خور) بحري .



غير أن (خور) شرمة اليوم (البحر الغربي المرسى) تتمتع مياهه بهدوء غير عادي و لا يشبه غيره من الخلجان ، بل لا أبالغ إذا قلت إن ذلك الهدوء لا يكون إلا إذا كان المرسى على وضعه الأساسي كرأس ممتد في لجة البحر يعمل ككاسر للأمواج و يمنعها من الدخول إلى المرسى . فما هي حقيقة الأمر ؟.

الحقيقة أنه فعلاً هناك حاجز و كاسر للأمواج يرتفع من العمق حتى يقترب من سطح البحر ، هذا الحاجز أو الكاسر مكون من أحجار ضخمة عملاقة ، يمتد في البحر طوياً إلى حوالي خمسة كيلومترات حتى يتصل بالمسلة البحرية المقابلة للمرسى ، و يمتد عرضاً بحوالي خمسة كيلومترات أيضاً ، حتى يقترب من الالتصاق بالبحر الشرقي .

مراكب الصيد الكبيرة في انتقالها بين البحرين الشرقي والغربي لا تستطيع

موقع بحري انشق عن يابسة ، شكله لا بد أن يدل على صورة ذلك الانشقاق أي أرض مشرومة ، كأن يكون محصوراً بين جبلين و صورة الانشقاق أن يكون ممتداً في البحر . والأقرب أن يكون في شكله الأصلي بما يطابق المعنى اللغوي على شكل حرف ٧ .

وبهذا فإن منطقة المرسى هي ذلك الحوض المحصور بين لسان (رأس شرمة) و لسان (القرن) المتصل بمنطقة القرن الذي كان مشهوداً في عصور شرمة الزاهرة التي سميت منطقة القرن باسمه ، حيث نجد من المعاني اللغوية لكلمة (القرن) : الجزء الشاخص (البارز) من الجبل ، وعلى هذا المعنى ، اتخذت عدة مناطق في حضرموت اسم (قرن) مثل : قرن باحكيم و قرن بن عدوان و قرن المطملي و قرن بامسعود وغيرها. هذا (القرن) ، أي قرن شرمة ، لم يعد له

قطع المسافة مباشرة عبر المرور في منطقة الحاجز ، و ذلك لاقتراب صخور الحاجز من سطح البحر ، و لهذا فهي تضطر إلى تجنب قطع ذلك الحاجز ، فهي تتصرف و كأن أمامها رأس جبلي ممتد في عرض البحر .

من المؤكد أن ما يبدو للناظر من ساحل المرسى على أنه جزيرة في عرض البحر ، لا يشبه الجزيرة في شيء سوى أنه محاط بالبحر من جميع الجهات إذ ليس له ساحل ، بل مغرور غرزا في لجة البحر ومنتصب القامة ، فهو إذن (مسلة بحرية) و ليس جزيرة ، و هو في حقيقة الأمر ما تبقى من جبل انهك كان يمتد ومتواصلاً مع منطقة الحاجز أو الكاسر للأمواج ومتصلاً بالهضبة ، و هذا سبب ارتفاعه الكبير عن سطح البحر ، هذا الجبل الممتد من ذلك الرأس المتقدم الذي يشبه الجزيرة و المتصل بالساحل عبر ما قلنا إنه الحاجز أو كاسر الأمواج ، كان يشكل ما يطلق عليه في الأخباريات الحضرمية (رأس شرمة) الذي هذه الطوفان و بقيت صخوره الضخمة التي تشكل كاسر الأمواج اليوم .

لكي نعرف الظروف والأسباب التي أدت إلى نهاية (الرأس) بشكله كجبل ممتد في عمق البحر ، لا بد من استكمال البحث في موقع مهم تضمنه منطقة المرسى .

لدينا في طرف المرسى المتجه نحو منطقة القرن ، ما يطلق عليه الصيادون (شعب النار) ، وهو عبارة عن فوهة بركان ضخمة بقطر يزيد عن نصف كيلو متر ، وفوهة أخرى (شعب النار) بنفس الحجم تقع في منتصف منطقة الحاجز الكاسر للأمواج (رأس شرمة سابقاً).

يبدو أن البركانين اللذين كانا في منتصف الرأس والثاني في الجهة المقابلة له من المرسى ، حدث لهما انفجار وثورة في وقت متزامن ، فمن الطبيعي أن ينتج عنهما طوفان مدمر (سونامي) ، حيث غطت مياه البحر الهائلة كامل رأس شرمة و الهضبة أيضاً المتصل بها ، و لما كانت طبيعة



31

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

أنها متصلة باللسان المتجه نحو القرن ،
فإنها اختفت باختفاء اللسان نفسه
وامتداداته ، كل ذلك يعني أن شرمه لم
تكن (معزولة) كما ذهب إلى ذلك تقرير
البعثة ، وإنما كانت العزلة المذكورة بعد
كارثة البركان و الطوفان التي ابتعلت
المرفأ والمدينة معا ودمرت الطرق
والمسالك.....



لا شك أنه كان لذلك (الحدث المثير)
بلغة تقرير البعثة ، تأثيرات و مترتبات
أخرى ليس في منطقة شرمه وحدها ،
بل ما كان لذلك الحدث أن ينحصر تأثيره
على شرمه وحدها ، بل لابد أن يمتد
تأثيره و مترتباته في منطقة واسعة من
الساحل المرتبط بمنطقة شرمه ، فلعله
لم يختف (رأس) شرمه وحده ، بل أيضا
(رأس) باغشوة كمرأ و مدينة عامرة
أيضا الذي يقع إلى الشرق منه ، وأصبح
مجرد (خور) مهجور لا غير .
رأس باغشوة هذا كان مثله مثل شرمه
ميناء مزدهرا و مدينة عامرة بالحياة
حتى عهد الشيخ الشاعر الصوفي عمر
بن عبدالله بامخرمة (ت- ٩٥٢ هـ) في
القرن العاشر الهجري ، حيث يقول في
معرض حديثه عن الشحر:

فانشرح واذكر أحباب القلوب التي ثم
في البلاد التي في سوقها كل مغنم
ذي في اطرافها واوسطها الصفو خيم
بين روكب و باغشوة إذا كنت تفهم

ستينيات القرن الماضي ، لم تكن هناك
طريق مأمونة و سالكة للوصول إلى
شرمه سوى الطريق البحري عبر قوراب
وسفن الصيد ، وهناك طريق جبلي
شديد الارتفاع شديد الخطورة ، يمر في
آخره بمضيق جبلي حاد و شاق مشرف
بشكل حاد أيضا على لجة البحر العميقة
يعبره المرؤ بصعوبة و حذر كبير ، و هو

لهذا لا يصلح اطلاقا لعبور الجمال . هكذا
اختفت الطرق و السبل وأصبح ميناء
شرمه بعد تلك الكارثة مهجورا معزولا
خاليا من أي مظهر من مظاهر الحياة
بعد دهر من العطاء و الرخاء ، وتحولت
الحركة جزئيا في المنطقة إلى ميناء
القرن المجاور أو الملاصق له ، الذي لم
نسمع له ذكرا من قبل ، و لعله ظهر بعد
كارثة شرمه .

أما كيف دمرت المسالك واختفت الطرق
البرية و المنافذ التي كانت تسلكها
قوافل الجمال من وإلى شرمه في
عصرها الذهبي ، فيبدو أن تلك الطرق
التي كانت متصلة بالهضبة مباشرة
حين كانت الهضبة كلها متساوية
الارتفاع إلى منطقة المرسى انتقطعت
بانخفاض مستوى الهضبة المتصلة
بالمرسى ، و هي المنطقة التي أخفضاها
الطوفان ، وأصبح هناك قاطع بين
المنطقتين غير قابل لقطعه بالرجل أو
بالجمال ، و كذلك الطرق التي يفترض

الثورات البركانية ذات امتداد زمني لا
يتوافر للهزات الأرضية ، فإن هذا
الطوفان ظل على قوته فترة ثورة البركان
الذي يبدو أنها استمرت أكثر من يوم .
هذا الطوفان الذي كان مصدره ملاصقا
للساحل و استمر لأكثر من يوم يغطي
كامل الرأس و الهضبة معا ، كان طبيعيا
أن يذيب كامل المواد التي كانت سبب
تماسك صخور الجبل (الرأس) ، و كان
طبيعيا أن تسقط تلك الأحجار في القاع ،
لتشكل الحاجز و كاسر الأمواج غير
المرئي اليوم ، شهادة ليس على وجود
سابق على الجبل الذي كانت تمثله
فحسب ، بل شهادة على كارثة البركان
وما عقبه من مد سونامي مدمر .

وإذا كان ذلك في ما يخص (رأس شرمه)
الجبل الممتد في لجة البحر ، فإن ما
حدث في الهضبة ليس أقل دمارا ، فقد
اكتسح ذلك المد العاتي المدمر الهضبة
كلها و ابتلع المدينة ، وجرف معه كل
شواهد و معالم مرسى شرمه التاريخي
التجاري ، بل كل الشواهد على حياة
الإنسان على تلك الأرض على مدى قرون
مديدة ، حتى إذا جاءت البعثة الفرنسية
اليوم ، لم تجد لتعاقب الأزمان دليلا ،
فقد اكتسح ذلك المد كل الطبقات
العلوية و الأرضيات ، بل لابد أن يكون قد
مسح الهضبة مسحا عنيفا ، وخفض من
مستوى ارتفاعها إلى مستواها اليوم ،
وأخذ معه كل حقائق الحياة و الإنسان
عبر قرون مديدة من النشاط المشهود
عبر التاريخ .

وإذا كان ميناء شرمه لم يكن حينها
ميناء نمطيا من حيث حركته التجارية
والملاحية كما يقول التقرير ، فإنه يترتب
على ذلك أن تكون طرق النقل عبر
الجمال سالكة و في أوج نشاطها
وازدهارها لنقل البضائع و المؤن من
وإلى الميناء ، إذ يستحيل أن يكون
الموقع كميناء و مدينة معزولا كما جاء
في التقرير و يصعب الوصول إليه من
داخل البر . غير أن الأمر تغير جذريا بعد
كارثة البركان و الطوفان ، فحتى



سوق لحفاف لي يحوي كل مغنم
قول ما مثلها شي في القرى والله اعلم
فان فيها و حق الله من الزين شي جم
كل ما قاله القائل في وصفها تم (١٢).

يؤكد المؤرخ ابن حوقل -ت ٣٦٧هـ-
بقوله : (و من آخر الشجر إلى عدن مائة
فرسخ) (١٣).
وإذا اعتمدنا أن الفرسخ يساوي خمسة
كيلومترات ، فإن هذا يعني أن (آخر)



ساحل المرسى اليوم

في هذا الأمر و معرفة حقيقته يتطلب
جهد ذوي الاختصاص .
ما كان لكارثة بحجم كارثة شرمة
المرقا و المدينة كما بينها، أن تغيب عن
الذاكرة الجمعية المتوارثة لدى أهل
المنطقة التي تقع شرمة في محيطها ، إذ
تقول أسطورة متداولة هنا إن سكان
منطقة الديس الشرقية كانوا في الأصل
يقطنون في منطقة (ميناء خلفه) التي لا
تبعد عن شرمة بأكثر من خمسة
كيلومترات ، ثم إن القوم بطروا بأنعم
ربهم ، فأرسل عليهم طوفانا دمر
سكناهم و دورهم وجعلها أثرا بعد عين.

حتى حدثت كارثة شرمة :

لا توجد في المصادر الحضرية أية إفادة
أو خبر يشير إلى تلك الكارثة بموقعها
بالاسم ، غير أن كارثة بهذا الحجم وفي
هذا الموقع الملاحي الهام والحيوي
لعموم سكان حضرموت ساحلها
وواديها، لابد أن تنعكس على حياة الناس
سلبا ، خاصة أن ما حدث كان لا يخص
شرمة وحدها ، بل لابد أن تكون له امتداته
على مجمل ساحل المنطقة وموانئها،
كما أن خبرها لابد أن يسجل حضوره
بهذه الصورة أو تلك في تلك المصادر
حتى وإن لم يذكر (شرمة) بالاسم .

ففي أخبار سنة ٩١٣هـ نجد الخبر التالي:
وفيها وقع طوفان في الشجر من العين
إلى حسي المسك فغرق في البحر ، وفي
الشجر نحو ثلاثين مركبا و من جملة
ذلك مركب فيه ستة من آل كثير و طراد
صغير فيه ولد عقيل بن عبد الله بن
يماني (١٦).

ويبدو أن صاحب ذلك الخبر و مصدره
كان من أهل الوادي و ذلك لعنايته بمن
غرقوا من اهل الوادي كما يبدو من
اسمائهم دون غيرهم من الضحايا .
- وفيها أيضاً : وقع طوفان في بحر الهند
وغير مراكز كثيرة (١٧) .

- وعند الربط بين الأخبار أعلاه ، نجد أن
كارثة كبيرة حدثت في منطقة الشجر
التي تقع شرمة ضمن محيطها وإحدى
مناطقها الإدارية والقبلية ، وأن ما حدث

الشجر يبعد عن عدن خمسمائة كيلومتر
بطرق ومسالك ذلك العصر ، ومن مجمل
تلك الاخبار و الشواهد التي أوردناها
حول المقصود ب (الشجر) نصل إلى
نتيجة لازمة بالضرورة ، وهي أن الشجر
تعني الساحل الجنوبي بين عدن وعمان .
وإذا أخذنا قول أبي الفداء -ت ٧٣٢هـ-
من أن (ظفار قاعدة بلاد الشجر) (١٤) ،
فإن هذا يعني أن (ظفار) هي أول بلاد
الشجر ، و أن مدينة (الأسعى) أي الشجر
حاليا هي إحدى أعمال (إقليم) الشجر
التاريخي ... ولقد ظل اسم (الأسعى)
معتمدا و متداولاً حتى القرن الثامن
الهجري ، حيث نجده معتمدا في خرائط
العهد الرسولي ، إذ كان الرسوليون
يحكمونها وقتئذ ، و كانوا أول من بنى
حولها سورا .

كما أن هناك موانئ قريبة من ميناء
شرمة ذكرت في المصادر الحضرية ،
ظهرت ثم اختفت فجأة ، مثل ميناء خلفه ،
و الظاهر ، و خرد ، و لعله من المفيد هنا
أن نذكر أنه في عام ٩٣٧هـ - ١٥٣٠م ،
ورد اسم شرمة ، باوصفها (جزيرة شرمة)
بدلاً من (رأس شرمة) (١٥) ، في دلالة
واضحة على التغيير الجوهري الذي حدث
في طبيعة منطقة شرمة ، غير أن البحث

مدينة رأس باغشوة لم يبق منها اليوم
الا مقابرها و بعض الأطلال ، أما الرأس
نفسه الذي يفترض أنه كان جزءاً من
المرقا و متصل بالهضبة و من الاتساع
بحيث تقام عليه مصالح كثيرة و مبان
مثله مثل رأس شرمة ، فإنه اليوم عبارة
عن شريط ضيق جدا و معزول عن
الهضبة التي كان جزءاً منها و مهجوراً .
ومن الملاحظ على الشاعر بامخرمة في
القرن العاشر الهجري أنه يخبرنا أن
منطقة رأس باغشوة في الشرق و منطقة
روكب في الغرب هما من أطراف مدينة
الشجر و أوسطها ، و هذا يعني أن
منطقة شرمة الواقعة بين مدينة الشجر
و رأس باغشوة تقع ضمن منطقة الشجر
و سلطتها ، هذا من ناحية ، و من أخرى
فإن الشيخ بامخرمة و من خلال ما قاله ،
ندرك الرخاء والازدهار الذي كانت تنعم
به منطقة الشجر كما حددها الشاعر ،
وهو الأمر الذي يعني أن ميناء شرمة كان
حينها في عز نشاطه و ازدهاره حتى عهد
هذا الشيخ في القرن العاشر الهجري ...

وعودة إلى ما قاله الشيخ بامخرمة في
أبياته السابقة ، من أن لـ (الشجر) طولاً
وامتداداً ، و لها وسط و آخر ، و هو الأمر
الذي يعني أن لها (أول) ايضاً بالضرورة ،



- ١- محمد عبد القادر بامطرف: الشهداء السبعة - ٢٤
- ٢- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن طالب الأنصاري الدمشقي: تحفة الدهر في عجائب البر والبحر - ٢١٨ - طبعة ليبزج - سان بترسبرج .
- ٣- شوقي عبد القوي عثمان: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية - ٦١ - عالم المعرفة - ط - ١٩٩٠ م.
- ٤- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج٧ - ٢٢٣
- ٥- نفسه .
- ٦- س. ب. مايلز: الخليج بلدانه وقبائله: سلطنة عمان - وزارة التراث القومي والثقافة - ١٩٨٣ م.
- ٧- الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق - ٢١ - طبعة ليدن -
- ٨- مايلز: نفسه - ٢٧٥ - ٢٧٦ -
- ٩- سعيد مسعود المعشني: الآثار التاريخية لظفار - ٨١ - سلطنة عمان .
- ١٠- أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد بامخرمة: تاريخ ثغر عدن - ٩٧ -
- ١١- عبد الله أحمد محيرز: رحلات الصينيين الكبرى - ٩٠ -
- ١٢- ديوان عمر بن عبد الله بامخرمة: مخطوط متداول .
- ١٣- ابن حوقل: صورة الأرض - ٤٦ - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت .
- ١٤- أبو الفداء: تقويم البلدان - ٩٣ - طبعة باريس .
- ١٥- محمد بن عمر بافقيه: تاريخ حوادث السنين ووفاة العلماء العاملين والسادة المريين والاولياء الصالحين - دراسة وتحقيق د . أحمد صالح رابضة - اصدار جامعة عدن .
- ١٦- أحمد عبد الله شنبيل: تاريخ حضرموت -
- ١٧- نفسه .
- ١٨- نفسه .
- ١٩- محيرز: نفسه - ١٣٣ -

شأن الشيخ الشاعر عمر بامخرمة الذي قال إن منطقة روكب ورأس باغشوة هما من أطراف مدينة الشحر وأوسطها وتحدث عن ازدهار المنطقة في القرن العاشر الهجري .

ملاحظة ختامية :

على ما تقدم من هذه الورقة النقدية ، فإني لست على يقين تماما بما إذا كان تقرير البعثة هذا قد أضاف كثيرا وجديدا إلى علمنا ومعارفنا حول التجارة الشرقية وعلاقة ميناء شرمة بها وما ورد فيه حول الموقع نفسه وتاريخه وغير ذلك ، ولكنني على ثقة كبيرة بأن إعادة البحث والتنقيب سوف يضيف جديدا ومفيدا ، خاصة وان هناك أواني فخارية وغيرها من متبقيات الميناء التي لا بد أن تكون محفوظة في قاع البحر بين أحضان الصخور الضخمة التي كانت تشكل رأس شرمة في عصرها الذهبي ومجدها الغابر .

المراجع :

- * مواد استرشادية مختارة لموضوع الورقة من تقرير البعثة ، إعداد : أكسيل روجيل - ترجمة: عبد الله صالح النموري - بتاريخ نوفمبر ٢٠١٢ م .
- (**) - قال المؤرخ الادريسي - ٤٩٣ هـ - ٥٥٩ هـ - : (و مدينة لسعا صغيرة جدا على ضفة بحر الملح ، و منها إلى شرمة على الساحل يوم ، و بين شرمة و لسعا قرية كبيرة فيها حمة حامية كالجابية ، وأهل تلك النواحي يتطهرون فيها ويجلبون إليها مرضاهم فيصحبون بها من آلامهم وأنواع أسقامهم . و مدينة لسعا و شرمة على ساحل أرض حضرموت و بينهما يومين في البرية .) - نزهة المشتاق في اختراق الأفاق - ٢١ - طبعة ليدن سنة ١٨٦٢ م .

هو بعينه ما يتوقع من كارثة بركان وفيضان شرمة .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أن ينعكس الأمر سلبا على معاشات الناس في عموم حضرموت ، و لهذا نجد الخبر التالي في نفس سنة تلك الكوارث المذكورة :

- فيها : أصاب الناس مجاعة عظيمة حتى هفوا من الجوع خلق كثير في جهة حضرموت (يقصد الوادي) ، و السواحل ، و غلا كل شيء من قلة الثمار و القطر ، حتى بلغ الطعام مصري وربع بدرهم و التمر رطلين و الغزل سبع واق شحري والعطب عشر واق والحنظل مدين بدرهم شحري والدوم ثلاث مصاري ثمن حمل حنظل بستين دينار ، و قطع حمل الدوم اربعين دينار و أجرة الملحفة يومئذ شحري في نصف و منها خمسة ، والدوم كيل بكيل بالتمر صبرا إلى أوانه ، و سرّوا في تريم يومئذ خمسة عشر رأس بقر و لقطوا البسر بالليل على ضوء النار (١٨) .

- وفي خبر المجاعة هذا ، وإن ربطت بحالة الجفاف ، إلا أنه لا بد أن يكون لتلك الحوادث البحرية حضورها في تلك المجاعة متمثلا في شحة الوارد .

لا شك أنه حدثت مجاعات كبيرة في عموم حضرموت قبل السنة و المذكورة و بعدها ، غير أننا لا نجد أية مجاعة ارتبطت سنتها بأحداث و كوارث بحرية كبيرة كسنة ٩١٣ هـ ، و بهذا فإن تلك السنة هي على الأرجح التي شهدت كارثة ميناء شرمة و نهايته المثيرة و ما رافقها من تغييرات كبيرة على سواحل المنطقة و موانئها .

وهكذا نجد أن الاحتمال الأكبر أن ميناء شرمة استمر في ازدهاره و عطائه حتى مطلع القرن العاشر الهجري ، خاصة أن ذلك الازدهار الاقتصادي الذي كانت تمتعت به الشحر في منتصف القرن التاسع الهجري الذي ذكره التاجر الرحالة الصيني ، يلزم عنه وجود ميناء شرمة في تلك الفترة ، بوصفه أحد أهم روافد ذلك الازدهار ، خاصة إذا علمنا أن الصينيين (درجوا على اطلاق اسم الميناء على الاقليم كله) (١٩) ، شأنهم في ذلك



تدوين ما تجاهله المدونون من الحكايات الشعبية

(الجزء الثاني - الأخير)



لمحة سريعة :

شملت الحكايات الشعبية عناصر العمل القصصي المعروفة: الحادثة - والسرد - والبناء - والشخصية - والزمان - والمكان - والفكرة، فهي حكايات في شكل قصص أو قصص في شكل حكايات بلهجة عامية، لذا فهي فن من فنون الأدب، وما دام هي كذلك، نستعرض بصورة موجزة تاريخ نشوء القصة في الأدب العربي. حيث كان للعرب قصص وأساطير وأسماير تعبر عن حياتهم تعبيراً صادقاً منذ العصر

الجاهلي. ولما ظهر الإسلام اتسعت الفتوحات وجال العرب في كل مكان، واطلعوا على كثير من أقاصيص الفرس والروم والهنود وغيرهم من الأمم القديمة، واتسع خيالهم ونمت مواهبهم في فن القصة وتوسعوا في ذلك كثيراً وألفوا في فن السيرة وفي التاريخ.

ولما جاء العصر العباسي اتسعت العناية بالقصة وكثرت القصص والأساطير في الأدب العربي وألفت فيها الكثير والكثير من الكتب التي تعد من أهم المصادر في العصر الحديث. ويمثل كتاب ألف ليلة وليلة ومقامات البديع والحريري فن القصة في أروع صورة، ناهيك عن قصص عنتر وأبي زيد الهلالي وغيرها.

وقد تأثر الأوربيون في العصور الوسطى وعصر النهضة بالقصص الشعبية في الأدب العربي، وكانت أثراً من آثار اتصال الغرب بالشرق، وفي الحروب الصليبية، حتى أن قصص الشطار في القرنين السادس عشر والسابع عشر التي تمثل العادات والتقاليد للطبقات الصغيرة في المجتمع تأثرت بأمثالها من القصص في الأدب العربي.

وفي العصر الحديث جاء دور الترجمة للقصص وكتابتها، وعندنا في حضرموت ظهرت القصة القصيرة في نهاية القرن التاسع عشر على يد الأديب الشبامي عبد الله معروف باجمال (١٧٩٥م - ١٨٨٠م) ثم بدأت في البروز أكثر وأكثر بعد ظهور الصحافة الحضرية..

مصدر الأقاصيص الشعبية، وامتزج الشعر الجاد منها بالهازل وأضيف إلى خلعه الشعرية والمجون المنسوب إليه أشعاراً نسبت إليه، حتى حظي بالشهرة عند عامة الناس، فكان مجرد وعاء متنسج ليضع القصاصون الشعبيون سخرياتهم فيه ووجدت الحباية عويوز ملائها فراحات تضيف بكل براعة خيالاتها وتروي حكاياتها بكل حكمة واقتدار، على أن أهم شخصها هو أبو نواس متناسية في ذلك البطل الحقيقي الذي عانى الأمرين وشرب من كؤوس المعاناة حتى شبع .

الحباية عويوز وأبونواس :

إن هذا الأدب الهازل الذي أغفله الجادون من الأدباء يعد مصدر الهامهم الأول، فكلما كان الأديب صغيراً يستمتع لمثل هذه الحكايات الممتعة ونمي ذوقه وسعة خياله بها حتى يخرج عما ألفه، والخروج عن المألوف والتجاوز أدعى إلى الشهرة، فولد هذا تناقضاً في الحياة الأدبية وانسجاماً في سرد الحكاية وامتزج الأدب الجاد بالأدب الهازل كما كان في صدى الأهواء في ألف ليلة وليلة) وأصبحت أشعار أبي نواس



أحمد عمر مسجدي



35

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

وأما البيت الذي هو مهين بحرف ورهين
بحذف قول أبي نواس :
لقد ضاع شعري على بابكم

كما ضاع در على خالصة
وقد أشرنا سابقاً أن المقامات هي حكايات
أدبية ممزوجة بالشعر الفصيح لها بطل
وراو خياليان . فلهذا الحال كانت أشعار أبي
نواس تصل إلى الخواص من الناس
والعوام منهم فينقلها الركبان في حلهم
وترحالهم ويسمعها السامر وينقلها إلى
بيته ثم تسمعها العجوز وتنسجم لها ثم
تحكيها للأطفال بلهجتها العامية جيلاً بعد
جيل وهكذا دواليك . وبهذا النقل تكون
الزيادة والنقصان لاسيما من الخواص وقد
كان ذلك واضحاً في اختلاف تاريخ ميلاده
حسب ما جاء في ديوانه الصادر عن المكتبة
الأهلية بيروت ناهيك عن الاختلاف في
رواية الأشعار كما في البيت الأخير بين
رواية در وفي بعضها عقد .

وبراعة الحباية عويوز وتفننها في سرد
أحداث الحكايات الشعبية متخذة بعض
الشخصيات المشهورة كشخصية أبي
نواس لتضعها في محمل السخرية حيناً
وكرمز للحيل والخداع أحيان كثيرة حتى
تعطي للحكاية أبهى صورها . وخلاصة
النواصي أو مجون شعره أو المنسوب إليه
رويت ملحونة وأضاف القصاصون
الشعبيون إلى أبي نواس ما يشكل
الأقاصيص الساخرة بلهو القصور .

والحباية عويوز تروي في بعض حكاياتها
الشعبية المتمثلة في الخروج من المازق
بحفر الخنادق من بيته إلى قصر السلطان
ليعبث بما في القصر ويتلذذ بشهوة مجونه
وفي بعض الأحيان تصوره بالشخص الحاد
الذكاء حتى أنه يراهن السلطان بأن جميع
سكان سلطنته عريان واتهامه للسلطان
بحكمه لشعب أعمى ليهيج غضب السلطان
عليه ولكنه يخرج من هذا المأزق الذي وقع
فيه كما تخرج الشعرة من العجين لا يلتصق
بها من المجون شيء ، وذلك بطلبه كاتب
من كتاب ديوان السلطان ليكون شاهداً
على ما يقول .

فأذن مؤذن بعد صلاة الجمعة ليخرجن
كل مصل من الباب الرئيس للمسجد بعد
إغلاق جميع الأبواب الأخرى ويجلس هو
وكاتب السلطان أمام الباب الرئيسي وأخذ
بانواس سكيناً ليحفر بها على مقربة من

في حكاياتنا الشعبية وسنددل على ذلك
لاحقاً . ونفينا هذا لا يأتي من فراغ لأن آل با
نواس أناس لهم سمعتهم الطيبة
وأخلاقهم الحميدة ولم تنز أنفسهم إلى
الخداع كما ورد في الحكايات إضافة إلى
ذلك أنه لم يشتهر بينهم شخص باسمه
الكامل في الحكايات الشعبية غير با نواس
الذي هو اسم لشخص خيالي وليس كنية له
. وأن أبا نواس الشاعر ليس با نواس الناثر
وربما لشهرة النواصي الشاعر حذفت ألف
الأسماء الخمسة كما هي معتادة في ساحل
حضر موت حتى لفظ الاسم با نواس بديلاً
من أن يلفظ أبا نواس .

وإذا قلنا إن ألف أخو وأبو من الأسماء
الخمسية لا تنطق في بعض المناطق
الحضرية وبالذات الساحلية ويقولون :خو
فلان ، بو فلان ، بدون ألف فليس ما يمنع
ذلك إن كان قد لفظ الراوي أبا نواس
(المنصوبة) أمام العوام وبدورهم رددوها
بدون ألف على أن الاسم با نواس . فمن هو
أبو نواس وما علاقة حكاياتنا الشعبية به ؟

أبو نواس هو الحسن بن هاني بن
عبد الأول بن صباح الحكمي أبو نواس
شاعر العراق في عصره ولد بالأهواز من
بلاد خوزستان سنة ١٤٦ هـ - ٧٦٣ م ونشأ
بالبصرة ورحل إلى بغداد فاتصل فيها
بالخلفاء من بني العباس ومدح بعضهم
وخرج إلى دمشق ومنها إلى مصر ثم عاد
إلى بغداد فأقام فيها إلى أن توفي سنة
١٩٨ هـ - ٨١٤ م فكان يعب من العلوم
بذكاء متوقد ويتلمذ لبعض المجان والخلفاء
وعاش في السكر واللهو والمجون وهو شاعر
الخمرة بلا منازع . هذا وقد تعدت شهرته
بلاد العراق فذاع صيته في أقاصي البلاد
الإسلامية وتناقل السمار أشعاره حتى
حفظها العوام من الناس وكتبها الخواص
منهم مثلما ذكر بديع الزمان الهمداني بعضاً
من أشعاره في المقامة العراقية حيث كتب
برواية عيسى بن هشام : أن البيت الذي
سمح وضعه وحسن قطعه قول أبي نواس :

فتنا يرانا الله شر عصابة

تجرر أذيال الفسوق ولا فخر
والبيت الذي لا يمكن لمسه قول أبي
نواس :

نسيم عبير في غلالة ماء

وتثال نور في أديم هواء

وأبو نواس يلفظ عامياً (بانواس) وقد
اتخذ العوام هذه اللفظة للإنسان
المتذبذب الذي لا يستقر على حال وقد
وردت لفظة (النواس) في القاموس بمعنى
تذبذب الشيء أيضاً وهكذا فالعوام من
الناس يطلقون هذه اللفظة لمن يتقلب في
أمره ويدعم حججه بالخداع ليأخذ ما يريد
وينال ما يتمنى من غريمه ، حتى قيل : فلان
مثل بانواس في خداعه وتحايله على
الناس ، وهذا ما يظهر لنا في بعض
الحكايات التي بطلها الثاني بانواس مع أن
هذه اللفظة تطلق جزافاً على أحد شخوص
الحكايات متناسية الحباية عويوز الشخص
الحقيقي للحكاية . وليس معنى ذلك أن
الشخص الحقيقي هو الذي يقوم به
بانواس مع يقيني أن هذه اللفظة رمز
الخداع ولجؤ من لم يستطع الوصول إلى
مراده بوساطتها وليس بالضرورة أن
يكون بانواس هو حقيقة الواقع في
الحكايات الشعبية فربما تحكي عجوز البيت
لأحفادها وأقاربه المر في السنوات العجاف
التي مرت بها من عمرها وأنها البطة
الحقيقية ولكنها لا تجزم على التفوه بهذا
القول كي لا تحمل أحفادها حملاً لا يطاق
لتظل المعلمة الوفية لهم حتى يقابل ذلك
بالاستحسان والاستمتاع بالاستماع ويوحي
لها هذا بـجذب أكثر عدد من الأطفال
المستمعين وانتشار ما ترويه من حكايات .

وعند ما قلنا واقعها المر لا نقصد من
السياق الرواية الخيالية للحكايات الشعبية
بللفظنا الحباية عويوز وإنما واقع العجوز
التي تحكي بلسان الحباية عويوز ولأننا
ربطنا حكاياتنا بالمقامات والمقامات لها
راو خيالي مثل ما للحكايات راو خيالي . وأما
ما أضيف إلى خيال الأميين فهو واقع يمتزج
بخيال الحكاية ليكون خيالاً ناتجاً عن واقع
حقيقي يروي بلسان الحباية عويوز كاسم
الرواية الخيالية للحكايات الشعبية فهل
بانواس المجهول هو أبو نواس المعروف ؟
كثير ذكر با نواس في الحكايات الشعبية
حتى عرفت بعض الحكايات باسمه فقالوا :
(أسفرة با نواس)) مع أنه البطل الثاني فيها
بعد السلطان وأن في المجتمع الحضرمي
من يكتن با نواس ومع هذا فبانواس
الحضرمي ليس با نواس الحكواتي وأن
الأخير هو المرادف للشاعر العباسي أبي
نواس بالشهرة الذي لم يكن له دور البتة



36

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

باب المسجد حتى إذا خرج أحد المصلين سأل بانواس ماذا تفعل يا أبانواس؟ فأجاب يا كاتب السلطان أكتب أن هذا الشخص أعمى، وهكذا استمر في فعلته حتى خرج آخر من المسجد موجهاً إليه السؤال نفسه. وبذلك أثبت للسلطان أن الجميع عميان بسؤالهم عما يفعله مع أنهم يرونه يحفر بالسكين فنجا من عقوبة السلطان بدهائه ومكره واستحق الأجر.

قد يسمع الشخص هذه الحكاية برواية أخرى في مكان ما وقد يسمعها بعدة روايات في المكان نفسه، ولكن وإن اختلف الرواة في سرد الأحداث إلا أن الهدف والمغزى واحد في كل الحالات.

وهذه الحكاية التي لخصناها لا تثبت العمى للجميع ولا تنفيه عن الجميع لأن الأعمى قد يسأل السؤال نفسه إن سمع به، وإن طرح هذا السؤال يأتي للتوكيد مثلما سأل الله كلمه موسى عليه السلام بقوله: ((وما تلك بيمينك يا موسى . قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ...)) وذلك لتأكيد الكلام لأن الله عز وجل يعلم ما بيمين موسى عليه السلام ويعلم ما على الأرض جميعاً.

وليس من بديهة القول أن تكون مثل هذه الحكاية الهائلة للشاعر المعروف أبي نواس وهو أظرف الناس منطقاً، وأغزرهم أدباً، وأقدرهم على الكلام، وأسرعهم جواباً، وأفصح الأدباء لساناً، وأكثرهم نوادر، وهو أعلمهم كيف تكلمت العرب. ولأن كلامه شعر موزون صيغ على ذلك بعض من أشعاره ودونت في كتب التراث. ومن المفيد أن نعرف أن سبب لقبه (أبونواس) فهو من اختيار خلف الأحمر العالم وأراد أن يعد نسبه إلى ملوك اليمن. وقد حدث المبرد عن علي بن القاسم بن علي بن سليمان قال: سمعت أبا عبيدة يقول: ذهبت اليمن بجذ الشعر وهزله: امرؤ القيس بجده وأبو نواس بهزله. أما بانواس الحضرمي فإنه لم تثبت له أشعار بالفصحى غير تلك الحكايات الشعبية الهائلة. وإذا خطر ببالنا نوادر الشاعر أبي نواس الكثيرة مع أمير المؤمنين هارون الرشيد الممتزجة بالشعر الفصيح فلنعلم أن الرشيد ليس هو السلطان بطل حكاياتنا الشعبية الذي سيأتي ذكره لاحقاً.

وهكذا فالحبابة عويوز في سردها لهذه الحكايات الهائلة إنما تهدف بقصد أو بغير قصد تعليم الأطفال ما لم يتعلموه في الكتاتيب إن وجدت وتحاول تأديبهم وإخطارهم بما يعانيه الناس من شظف العيش ومكابدة الأهوال وركوب الأخطار، وفي الوقت نفسه تشد انتباههم للاستماع الواعي لما يحكى لهم.

ويجدر بنا القول إن الحبابة عويوز شخصيات بتسمية واحدة، فالطفل المتلقي يحفظ ما لقي عليه ليقوم بمحاكاته لأتراه أو من هم دونه سنناً على أن الحكاية أو السفرة هي سفرة الحبابة عويوز وهكذا تتناقل الحكايات الشعبية على أنها حكايات الحبابة عويوز ..

من هو سلطان الحكايات الشعبية

الغربة في الحكايات الشعبية هي الخروج عن مآزق الجمود الذي فرضه واقع الزمن المعيش بحثاً عن الرزق حتى في حالات الشؤم كما صورها الشاعر اللبناني (إلياس فرحات):

أغرب خلف الرزق وهو مشرق

وأقسم لو شرقت كان يغرب
وليس إلياس فرحات وحده الذي ساء حظه في كسب رزقه بقدر ما أن هناك شاعراً آخر صور تلك المعاناة في أفصح صورها وربما لم يسبقه شاعر آخر في إساءة حظه وحظ من حوله مع الأخذ بعين الاعتبار في رواية هذه الأبيات حين قال:

إن حظي كدقيق فوق شوك نثره

ثم قالوا خنفاة يوم ريح اجمعوه

تعب القوم وملوا ثم قالوا أتركوه

إن من أشقاء ربي كيف أتم تسعدوه

هذه هي معاناة الاغتراب وسوء الحظ ولكن تأتي الغربة ذاتية وقد تكون تغييراً لهوى النفس. وعلى كل حال ظل الإنسان يشرق ويغرب خلف الرزق ويقضي حياته بين كر وفر غير مهتم بأيام حياته الماضية ولا مكثر بسنوات حياته القادمة وهو يخالط بنفسه في كسب غنائمه كما قال الشاعر:

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة

إن الجلوس مع العيال قبيح

فيفارق الإنسان عياله ليحظى ببعض ما يكسبه لهم وأحياناً رغم الفراق الشاق قد لا

ينال ما يتمناه وينال غيره ذلك كما قال الشاعر:

والرزق يخطئ باب عاقل قومه

وبيت بواباً باب الأحمق

ولكن لا يمنع هذا الاغتراب من أن تكون الغربة بمجرد السفر والتنزه عند بعض الوجهاء أو الترويح عن النفس مع أن هذا الاغتراب مهما كان نوعه هو جزء من حياة الفرد وعمره.

والفرد لا يستطيع أن يوفر لنفسه شيئاً فهو بحاجة إلى المجتمع ليضم طاقته إلى طاقته فيعمل فيه بتكافل ليعيش خبرته وخبرة الآخرين، وهم جميعاً يستفيدون من خبرات السابقين ومما حققوه مضيفين إليها خبراتهم ليورثوها جميعاً لللاحقين ليتابعوا مسيرة الكفاح في تقدم مستمر نحو تحقيق تطلعات الإنسان وطموحاته في مستقبل أفضل.

والسلطان عند الحبابة عويوز في حكاياتها الشعبية هو ذلك الإنسان الذي رأى ظاهرة الزمن وأدرك الحركة وارتبط بالآخرين في المجتمع بغض النظر عن موقعه الاجتماعي في طبقات المجتمع الإنساني حاكماً كان أو محكوماً، قاطناً أو مغترباً، كما تصوره في أغلب حكاياتها على أنه القوة والعظمة والشجاعة والمتحدي للواقع من لطعات الزمن الجائرة وأن اغترابه قد لا يكون بحثاً عن الرزق وقد لا يكون زيارة دبلوماسية وإنما لأهداف متوخاة من حل الإنسان وترحاله. ومن المعروف أن السلطان بيده الأمر والنهي ويمكنه العيش في بلاده في أشهى صور الحياة وأعلىها وإنما ترى الحبابة عويوز فيه الشخصية التي باستطاعتها العيش داخل البلاد وخارجها ويمكن لهذه الشخصية الفذة الاغتراب والسفر إلى بلدان أخرى متى ما شاء.

والمتتبع للحكايات الشعبية يرى أن بطل هذه الحكايات هو السلطان وربما أن تسمية السلطان جاءت من أيام السلطنات، وعندما أعجب الناس بهذه الشخصية الفذة وما تتميز به داخل المجتمع جعلوها بطلاً للحكايات الشعبية التي تتناقل عن طريق الرواية الشفوية. وليس بالضرورة أن يكون السلطان هو سلطان السلطنة نفسه بقدر ما هو سلطان الشخصية الرمزية في الحكايات الشعبية التي يعلق الناس عليها



37

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

فاطمة: هل ترين من أبيك شيئاً؟
قالت فاطمة: قرمته.
وطرحت الزوجة (الخالة) السؤال للمرة الثانية: هل ترين من أبيك شيئاً؟
قالت فاطمة: كوفيتته.
وهكذا إلى أن قالت: لقد غاب كله.
اطمأنت الزوجة أن السلطان قد غاب فأجبرت فاطمة على الخروج إلى الوادي كرهاً للحطب تحت مبرر مساعدة والدها السلطان. وقد حاولت فاطمة إظهار نفسها على أنها بنت السلطان التي لا يمكن أن تخرج لمثل هذا العمل ولكن الزوجة أجبرتها على ذلك لأنها قد بيّنت النية للتخلص منها في الوادي بعدما أحسست الزوجة بالدونية والاضطهاد لخدمة فاطمة والبـيت. ولما وصلت الوادي أمرتها بأن تمشي هي في وادٍ وفاطمة في وادٍ آخر، حتى هامت فاطمة على وجهها وتاهت بـين الجبال، ولما ينست من التعرف على الطريق الصحيح إلى البيت جلست تبكي بقرب صخرة كبيرة حتى انشقت الصخرة إلى نصفين فدخلت فاطمة في الشق فإذا هي في مغارة للجن فأخذوها وأعجب بها أحدهم فتزوجها وأنجب له عدداً من الأولاد.

وفي يوم من الأيام بعدما تأكدت الزوجة من أن فاطمة قد ماتت بالوادي جوعاً وعطشاً عرضت بعضاً من البر الحب (القمح) كعادتھا للشمس فوق سطح البيت (الريم) وكان أولاد فاطمة الجن ينقلبون إلى طيور يأكلون بر الزوجة فتقول للطيور: ((ذي لكن دية! من وين جننت يا طيور الجن؟)) فقالت لها الطيور: ((الدية تدي بوش، والبر ما هو بر بوش، البر بر أبو فاطمة لي في الجبال هائمة)).

وبعد أسبوع فقط من هذا الحدث انتشر خبر قدوم السلطان فقامت زوجته بذبح (ضانة) ودفنتها في سقيفة القصر وعندما وصل السلطان أخذت الزوجة تبكي وتبكي فسألها السلطان عن سبب البكاء، فقالت: إن فاطمة قد ماتت ومن حبي لها دفنتها في السقيفة. فبكى السلطان وجلس يقرأ على القبر وعندما سمع الأطفال أن السلطان يقرأ يرددون: (السلطان يقرأ على الضان، السلطان يبكي على الضان) فاستغرب السلطان من حديثهم وسأل عما يرددونه، فقالت له الزوجة إنهم يريدون بعض الهدايا فأعطاهم من صاروم

لتوضيح المعنى وتقويته فليس بالأمر المستبعد أن يستعمله الأدباء الشعبيون، لأن الفصحاء لم يكونوا كذلك إلا بعد ما تشبعوا بالأدب الشعبي صغاراً. وهكذا روت الحكايات الشعبية عن فاطمة بنت السلطان التي تهيم في الجبال والأودية وبها تظهر حالة الناس في الفترة التي رويت فيها هذه الحكايات وهي فترة شظف وبؤس فلا راحة لحاكم ولا محكوم كما جاء في حكاية (الانتقام) التي ستعرض لها لاحقاً وما تعرضت له فاطمة من قهر أدى إلى ضياعها في إحدى الأودية نتيجة لضعفها وبالمقابل ذبحوا (ضانة) بدلاً عنها وحفر لها قبر في سقيفة القصر (والسقيفة هي فناء عند المدخل الرئيسي للبيت) على أن يكون ذلك القبر هو قبر فاطمة بنت السلطان.

لكن هذا الفعل الذي ينوء بالمكائد ما لبث أن وقع فيه العائد، وأخذ يقرأ ويقرأ، ولن يسأل ويتجرأ، لأنه يعتقد أن في القبر فاطمة، ولم يدرك بأنها في الجبال هائمة، لأنهم بذلك أخبروه، وبذلك الإيحاء أوهموه. وهكذا ظل السلطان يقرأ مرة وأخرى يبكي على الضان، أمام البنات والصبيان، وينقلب القوي إلى مكسور، والضعيف في الوادي مستور. ويستمر على هذه الحال غير مبال بالقليل والقال، حتى انكشف له ثوب الخداع، وخلع عن وجهه القناع وتبين له ما استتر وعرف سبب القبر الذي حفر، ومن في القبر قبر.

ملخص الحكاية الشعبية:

(يحكى أن السلطان كان يحكم بلاده وفي الوقت نفسه يعمل حطاباً من حين لآخر ومعه ابنته المسماة (فاطمة) وبنته هذه تساعده في جلب الحطب من الوادي إضافة إلى ما تقوم به من عمل في البيت بعد موت أمها. وفي يوم من الأيام أشار السلطان إلى ابنته فاطمة ليتزوج من امرأة أخرى لتعينها في العمل في البيت والوادي لترتاح هي من ذلك، وبعد موافقة فاطمة تزوج السلطان وعندما عزم على السفر كعادته قال لزوجته: الله لله في فاطمة، هي أمانه في رقبتي حتى أعود من السفر. وهكذا تركها والدها السلطان عند زوجته بعدما آمن أنها ستحافظ عليها وأصبحت الزوجة خادمة لفاطمة والبيت في آن واحد. ولما غاب خبر السلطان سألت الخالة

تحقيق ما لم يتحقق لهم والوصول بوساطتها إلى ما لم يستطيعوا الوصول إليه، لذا جعل الناس السلطان البطل الخيالي لحكاياتهم، وليس معنى ذلك أن الحكايات الشعبية هي تدوين لأسفار السلاطين إطلاقاً ولم تذكر هذه الحكايات اسم سلطان بعينه وإلا عرفنا بالتحديد الفترة التي رويت فيها، وقد أوضحنا سلفاً تسمية الحكايات بالأسفار وليس بالضرورة أن يكون المسمى العامي يحمل المعنى الفصيح نفسه وبالمقابل لا نؤكد أن يحمل المسمى الفصيح المعنى العامي له بل ليس معنى ذلك القول أن يكون ناتجاً عن تطور اللغة أو انحطاطها. وحتى ندحض قول المشككين في أصالة تراثنا الحكواتي نقول لهم إن هذه الحكايات ليست تدويناً لأسفار السلاطين أو أي من كان فالتدوين كما هو معروف يسجل الاسم بالكامل وإنما لفظة السلطان التي ملأت الحكايات الشعبية ما هي إلا رمز للقوة والنفوذ وأن هاتين الصفتين لا تاتيان إلا بالحركة، والحركة جهد إنساني فاتخذ الناس السلطان رمزاً للحركة والجهد في الحكايات الشعبية، لكي تجسد فيه قيمة الجهد الإنساني المبذول ضمن المجتمع لا لأن تجسد فيه جهد شخصية بعينها.

فاطمة بنت السلطان:

فإذا عرفنا من سياق الحديث أن السلطان هو رمز الجهد الإنساني المبذول بغض النظر قاطناً أو راحلاً فإن ابنته (فاطمة) قد أوردتها الحكايات الشعبية رمزاً للتشرد والغربة القسرية، فلا تخلو حكاية من ذكر اسمها إلا وهي هائمة في الجبال أو أنها تحطب في الوادي كرهاً مع أنها بنت السلطان التي تعيش في القصر محروسة بخدمها وحشمها ولكن لهذا مغزى وبيان متناقضين بين الغربة وبين الجلوس في القصر.

ولأن شخصيات هذه الحكايات خيالية فليس غريباً أن يختار الإنسان السلطان رمزاً للقوة وابنته فاطمة رمزاً للضعف، وإن كان هذا التناقض بين القوة والضعف في هاتين الشخصيتين المتجانستين لكي يظهر حسن القوة مقابل الضعف المملوء بالاستصغار والرتاء بين السلطان القوي وابنته الضعيفة والضعف يظهر حسنة الضد والتضاد كما يستعمله الأدباء الفصحاء



38

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

الانتقام والخلافة:

وتظل فاطمة رمز التشرد والمعاناة في الحكايات الشعبية ويظل السلطان رمز القوة والمتحدي لكوارث الزمن. ولنا أن نطرح الأسئلة التالية:

١ لماذا أقدمت زوجة السلطان على التخلص من فاطمة بإضاعته في بطن الوادي؟
٢ ولماذا انتقم السلطان من زوجته بهذه الطريقة البشعة؟

٣ وهل فاطمة تستحق الموت جوعاً؟

٤ وهل تستحق الزوجة الموت بالطبخ؟

٥ وهل هناك تشابه بين حكاية (الانتقام) الشعبية و(خلافة) سعيد عولقي من حيث المشكلة الاجتماعية والنفسية؟

إن سلطان الحبابة عويوز وبطل حكايتها الأخرى لم يخرج للانتقام في حكاية (الانتقام) ولكنه عاد لينتقم من زوجته التي أضاعته ابنته في بطن الوادي، وكأنها تقطع بذلك اغتراب الإنسان. وأما احتدام الصراع في هذه اللحظة يمثل عقدة الحكاية، وفي الوقت نفسه نرى هذه الزوجة وهي تمثل حالة البؤس والاضطهاد في المجتمع والتي التقت السلطان وأصبحت زوجة له وذاقت ما ذاقته منه ومن ابنته، كما عانت من الطيور التي تأكل كل ما لذ لها وطاب من حبوب وتعود إلى وكناتها لا تأبه بسلطان أو طاغية. ويتبين لنا ذلك عندما طرحت الزوجة البهر الحب وما دار من حديث بينها والطيور. وكثيرة ما تحس به الزوجة في بيئة دخيلة عليها وقلة حيلتها تجاه السلطان قررت أن تجلس أنفاسها حتى عودة السلطان من السفر بعد التخلص من ابنته فاطمة فأجهشت بالبكاء وذرفت الدموع المصطنعة حتى عرف السلطان أن هذه الدموع ما هي إلا دموع تماسيح فانتقم بطبخها مع الغذاء وتقديمها كوجبة دسمة لأهلها.

هذه الحكاية واحدة من حكايات الحبابة عويوز لكي نتعرف فيها عن مفهوم السلطان كبطل خيالي لمجمل حكاياتها بصرف النظر كان حاكماً أو محكوماً، سلطاناً يجلس في قصر حكمه أو سلطاناً يحمل فأسه ويخرج للحطب.

وتكاد حكاياتنا أن تكون واقعاً معيشاً في فترة ما ولكن القصاصين الشعبيين يضيفون برعاً وخيالاً لهم عليها.

وكوفية. ولما كرر الأطفال سجعهم تلك عرف أن في الأمر شيئاً حتى عرف أن القبر المحفور في السقيفة ليس قبر ابنته فاطمة، فانتقم من زوجته بذبحها وطبخها مع الأرز وقدمها كعزومة لأهلها الذين سألوا عن غيابها وأجابهم السلطان بعد أن فرغوا من الغذاء بأنها في بطونهم. أما خبر فاطمة فقد تتبع السلطان الطيور (أولاد فاطمة) إلى أن وصلوا تلك الصخرة فوجد فاطمة هناك واستأذن ملك الجن وأخذ ابنته وعاد بها إلى البيت).

هذا ملخص ما سمعته عن حكاية (الانتقام) حيث إنها حملت مجموعة من الأفكار منها:

- ١ خروج السلطان للحطب مع أنه سلطان.
- ٢ إحساس زوجته بالمعاناة والاضطهاد لخدمة فاطمة والبيت.
- ٣ إجبار فاطمة على الخروج إلى الوادي.
- ٤ مكيدة الزوجة لفاطمة.
- ٥ انتقام السلطان من زوجته وتفهمه للطيور.

والحبابة عويوز تفتن في رواية أحداث هذه السفرة ليتعرف الأطفال أن الناس سواسية ولكل شخص حق في العمل والحكايات جميعها تحث على العمل مثلاً حثت الكثير من الروايات الأدبية العالمية على أحقية الإنسان للعمل. فقد دعا الأديب الروسي (مكسيم غوركي) في قصته (عندما قبلنا الأرض) الإنسان إلى الإيمان بقدرته على عمل المستحيلات وتطويع الطبيعة وتذليلها وتقديس فكرة العمل وخاصة إذا انطوت على خير عظيم يعود على الإنسان بالنفع والفائدة.

وإذا أخذنا ميزة العمل كحادثة من أحداث هذه الحكاية نجد الحبابة عويوز في سردها لهذه الحكايات الشعبية إنما تحث الأطفال على حب العمل بغض النظر عن موقع الإنسان الاجتماعي حتى إن كان يعتلي عرش السلطنة، فالعمل شرف لصاحبه كما تمقت التطفل والعيش في البحبوحة على حساب الآخرين، وحتى بنات السلاطين طالبتن بالعمل ولا عيب في ذلك. وإن رأينا في الحكاية تشرد فاطمة وضياعاها بين الجبال إلا أن جميع الحكايات الشعبية تظهر فاطمة بنت السلطان في مظهر التشرد والغربة القسرية.

ويظهر لنا جلياً في هذه الحكاية من يخرج عن طوع السلطان ذي القوة والجبروت. والمفهوم العام في هذه الحكاية يجرنا إلى معاناة الزوجة التي تمثل المظلومين من الناس للخروج عن المألوف النظامي للمجتمع وما يتعرض له البشر الضعاف من حكم السلطان وجبروته المتسلط على رقابهم حتى أقرب المقربين منه كزوجته.

ونرى الزوجة من حيث المشكلة الاجتماعية والنفسية في حكاية (الانتقام) هي نفس مشكلة (فضيل) في قصة (الخلافة) للقاص / سعيد عولقي في مجموعته (الهجرة مرتين) مع أن حكاية الانتقام لا تشير إلى الفترة الزمنية التي دارت فيها أحداث هذه الحكاية وتفتقر إلى الخلفية التاريخية بمفهومها الأدبي كصعوبة تحديد الزمن الذي تتحرك فيه شخص الحكاية إضافة إلى الاختلاف البسيط في أن (فضيل) سعيد عولقي مزارع بسيط، مقهور قادم من أعماق الريف الذي تحتويه المدينة بمخالبها وتناقضاتها الطبقة الحادة ليشد إحساسه الداخلي بوطاة الاستغلال الاجتماعي وشراسة التمايز الطبقي فيحتدم الصراع الداخلي ويعقد العزم ويبعث النية على الانتقام والتمرد حتى يعتلي (منصة السوق) بدلاً من غريمه (الحاج فارغ) من حيث إن زوجة السلطان تحس بالاضطهاد نفسه من ابنته فاطمة رغم قربها من السلطان بوصفها زوجة إلا أن إحساسها بالدونية والنقص والضعف وسط مجتمع السلطان القاسي الذي لا يرحم ويطحن برحاه البائس والفقير بل القريب المقرب منه على حد سواء وكل من يخرج عن طوعه وقد رأينا نهاية الزوجة في الحكاية.

فالمشكلة الاجتماعية في (الانتقام) و(الخلافة) هي التمايز الطبقي بين فئات المجتمع. ف(فضيل) و(زوجة السلطان) يمثلان تلك الطبقة الفقيرة من المجتمع إضافة إلى طموح الزوجة في اعتلاء قصر السلطان والتحكم فيه كونها زوجته بدلاً من ابنته فاطمة التي تخلصت منها ليخلو لها الجو، وطموح فضيل في اعتلاء منصة السوق لتحقيق أهدافه الخاصة به، ولهذا جنى الحسرة والندم، بينما نرى (الحاج فارغ) في قصة الخلافة و(فاطمة) في حكاية الانتقام يمثلان الطبقة البرجوازية في المجتمع.



39

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

تعني الضياع. وربما تكون حكاية (الضحية) هي جوهر المعاناة لفاطمة وهي ما تتردد كثيراً على ألسنة الناس، وذلك عندما تزوج السلطان بامرأة حسناء أنجبت له بنتاً جميلة لا تشبهها بنت في جمالها ولسوء حظها ماتت أمها وهي صغيرة فتزوج أبوها السلطان بأخرى أنجبت له بنتاً أيضاً اسمها (فاطمة) وهي لم تكن على قدر من الجمال. فشبت البنات إلى أن بلغتا سن الزواج فجاء رجل ليخطب ابنة السلطان الكبرى المتميزة بجمالها ولكن السلطان وبأمر من زوجته الثانية خدعا الرجل وأعطياه بنتهما الصغيرة (فاطمة) على أنها البنت التي يريدونها زوجة له بعدما أخفيا البنت الكبرى ذات الجمال المميز، فتزوج الرجل من الصغرى، وبعد أيام من زواجه ذهب لزيارة السلطان في قصره فرأى البنت الكبرى الجميلة فعرف الخداع الذي وقع فيه فكتم سره وحبس غيظه وعاد إلى بيته بزوجته المسكينة فاطمة وأخذ يفكر في حيلة للتخلص منها. وبعد ذلك قرر أن يأخذها إلى مكان بعيد في أحد الأودية كي يتخلص منها بعدما عرف أنها ليست من طلبها.

فهامت فاطمة على وجهها بين الجبال حتى رأت قطاراً من الناس مارين بالوادي سألتهم عن والدها السلطان إن كانوا يعرفونه فقالوا: ومن لا يعرف السلطان؟ فقالت لهم تلك المأثرة الشائعة:

ياذا القطار ياذا القطار سلم على أمي وبوي

وقل لهم شي فاطمة تحت الجبال الهامة

وهكذا كانت فاطمة ضحية الحسد والغيرة مع أن الحكاية لم تغنق نجاة فاطمة من عدمه أو كيفية تصرف السلطان بعدما وصل إليه الخبر في هذه الحكاية.

هذا ما سمعته فقط عن حكاية (الضحية) المبتورة مع كثرة انتشارها ولكن يكفيني أن نعيش معاناة فاطمة. فهل هي ضحية أم أن هذا تضحية؟

الحكايات الشعبية مليئة بالإيثار والتضحية فالخروج إلى الوادي للحطب ومقارعة الخطوب هو بحد ذاته تضحية وما أذهأ تضحية في قضاء اليوم مع الجن والوحوش في الوادي لكسب اللقمة الحلال بقدر ما نجد داخل المجتمع من متطفلين ومتربصين يستفيدون من خلوة البيوت..

بالتراث الصورة الواضحة لفن الحكايات الشعبية حتى يعيشوا ما أمكنهم ذلك مع هذه الحكايات وليكتشفوا أثر الواقع الموضوعي والاهتمام بهذا التراث الفني المنسي، ولهذا لم نتناول كل شخص الحكاية. وفي الأخير يبقى كل بطل يتكلم على سجيته ليكون أقرب إلى الواقع في الحال والمقال.

وقد سبق أن قلنا إن السلطان في الحكايات الشعبية هو الإنسان الذي وعى الزمن وأن هذا الزمن هو القيمة الإنسانية المرتبطة بجده. فمعنى ذلك أن الحكايات الشعبية اتخذت من السلطان مثلاً للجهد الإنساني في حله وترحاله؛ عاملاً في بلده أو خارجه، وجسدت فيه الحركة الدووية والسعي المستمر وقد قال تعالى: ((وإن ليس للإنسان إلا ما سعى))

إذن فهذا السعي الدووي للسلطان في الحكايات الشعبية إنما هو تعليم بحد ذاته يتعلم منه الأطفال حب العمل مهما كانت درجة الإنسان في طبقات المجتمع، غنياً كان أو فقيراً معدماً، مع أن أكثر الحكايات الشعبية لا تعبر اهتماماً لصفة الغنى لأنها نشأت في ظروف معيشية صعبة وقاسية حتى أنها تصور لنا السلطان في الحكاية السابقة يعمل حطاباً. فهل من سلطان في الدنيا يعمل كذلك؟ لا أعتقد ذلك وإنما إيمان القصاصين الشعبيين لحبهم للعمل جسد ذلك.

وخلاصة القول أن السلطان هو القوة الخارقة التي تتحدى مكاره الزمن بوساطة العمل، ومع ذلك فهناك تناقضات كثيرة في المجتمع الواحد وهذا مسلم به، فكلما تجد الإنسان العامل تجد العاطل والمتطفل وتجد الشاذ الذي يتجرا على أكل الأطفال عندما يتضوع جوعاً، فكل هذا بلا شك هو سلسلة الجهد الإنساني بل هو تاريخ جهد الإنسان بكل ما فيه من خير وشر.

وكما أسلفنا القول إن السلطان يأتي ملازماً لابنته (فاطمة) في الحكايات الشعبية فبقدر ما يمثل السلطان الجهد الإنساني الخيري، نجد فاطمة تمثل المعاناة والبؤس والشقاء الذي يؤدي إلى التشرذم ليس في حكاية واحدة بحد ذاتها بل في جميع الحكايات الأخرى التي يأتي اسمها كإحدى الشخصيات المهمة في الحكايات والتي

أما المشكلة النفسية هي شعور فضيل في (الخلافة) و زوجة السلطان في (الانتقام) بالدونية. فضيل يستجدي الليل أن يضع حداً لأرقه، وزوجة السلطان تفكر في كيفية الخلاص من فاطمة. وهناك تشابه واختلاف في بعض الأحداث بين القصتين. ومادامنا لا نهدف من الكتابة إلى المقارنة بين القصص الأدبية والحكايات الشعبية فقد بينا فقط سبب قدوم زوجة السلطان على ما أقدمت عليه تجاه ابنته فاطمة، لذا أبرزنا المشكلة الاجتماعية والنفسية للحكاية وما خلفته معاناة الزوجة رغم المعاشرة التي فضحت جواهر الأخلاق ورغم خدمتها للبيت وإحساسها بالمرارة المستمرة ناهيك عن دور فاطمة المتطفلة كالبغير الذي يأكل التخ ولا يعصر كما يقولون.

كما نرى في الحكاية استخدام الصراع الطبقي بينهما في عقدة الحكاية وإصرار زوجة السلطان على خروج فاطمة للحطب في الوادي، ليس خروجاً قصد الخروج وإنما لإشعار فاطمة بما تكابده من خدمة البيت والتخلص منها بأية طريقة.

وكل ما عملته الزوجة من مكائد لفاطمة إنما كثورة نفسية من هذا الاضطهاد وتخفيفاً لوطأة المعاناة والإحساس بالحسرة حتى وإن أدى ذلك إلى الموت المحتوم. وشعورها بالدونية حتى وإن كانت بمثابة السلطانة لأنها من طبقة دونية وقد قال الشاعر القديم:

الحر حر وإن مسه الضر

والعبد عبد وإن ملك الدر

مع أنها لم تتحرر ولم تملك الدار ولم تبلغ مرامها.

وأما ذبح الزوجة (ضانة) ودفنها في السقيفة ليس إلا تمويه للسلطان وفي الوقت نفسه ليتكسب ضعاف الناس من ريع السلطان (صاروم وكوفية) وهذا أقل القليل قبل أن يعرف السلطان حقيقة الأمر.

هذا مثال لحكايات الحبابة عويوز ليس لعرضها أو لسردها ثم تحليلها أو نقدها لأن هذا من اختصاص الأدباء والنقاد لمعرفة لغة السرد في قصة الخلافة وحكاية الانتقام المتناقضتين في بنية الطرح القصصي، ولكن طرحنا الحكاية إنما نموذجاً لإبراز أهمية الأدب الشعبي الثري حتى نعطي للقارئ الكريم والمهتمين



إله القمر في العملة الحضرمية

جون ولكر (1952) JOHN WALKER

مجلة كلية الدراسات الأفريقية والشرقية - جامعة لندن - المجلد 14 العدد 3

في عام ١٩٣٧ نشرت دراسة عن عملة معدنية جديدة تابعة للجنوب العربي في مجلة العملات النقدية ((Numismatic Chronicle. تظهر هذه العملات -التي جلبتها فريا ستارك من وادي ميفعة في حضرموت وللمرة الأولى صوراً لإله القمر الحضرمي سين.



ترجمة: د. خالد عوض بن مخاشن

تواصل شخصي بيننا إلى أسماء عديدة ثلاثية الأحرف لملوك سبئيين مثل شهر هلال يهنعم Sahar Hilal Yuhan'im، ويرى ريكمانس أن ذلك الحرف المبهم بتلك العملة ربما هو الحرف الأول من اسم أحد هؤلاء الملوك، ولكن لم يظهر أو يوثق في حضرموت أي أسماء ملكية ثلاثية كما أشار لهذا أ.ف.ل. بيستون A. F. L. Beeston حديثاً مقترحاً أن تقرأ الأحرف من الأسفل باتجاه الأعلى: HSY أي إضافة بادئة سببية h- (-و) للفعل تعود لشمر يهرعش: $Smr Yhr's$ الملك السبئي الذي ضم مملكة حضرموت في نهايات القرن الثالث الميلادي، وهذا التاريخ يتوافق تماماً مع التاريخ الذي اقترحته في دراستي للنماذج الأولية من تلك العملة التي نشرت في مجلة العملات النقدية في الصفحة ٢٧٩ إلا وهو بدايات القرن الثاني بعد الميلاد.

في العام ١٩٣٩ أحضر السيد ج. دونيكن J. Duncan إلى المتحف البريطاني عينات أخرى من هذه العملة المرتبطة بإله القمر الحضرمي سين، وفي عام ١٩٥١ أحضر السيد ت. التونيون T. Altounyan عينات إضافية من نوع هذه العملة من شبة موقع عاصمة حضرموت القديمة، كما أحضر أيضاً عينات تنتمي لمجموعة أخرى وبكل سخاء قام بتسليمها إلى إدارة العملات والميداليات.

لهذه العملة أحجام وأوزان مختلفة غير أنها جميعاً تحتوي على الكتابة نفسها. وعلى الرغم من أن بعض أجزاءها قد درست بسبب عامل الزمن فإن الرسم المركب المبني على مقارنة العينات والنماذج كما في الشكل (١) يظهر في وجه إحدى هذه القطع المعدنية رأس رجل غير ملتصق من أذنيه قلابتان طويلتان. يعود هذا الرأس لإله القمر الحضرمي سين وقد كتب اسمه (إلى اليمين) بالخط الجنوبي العربي، أما الحرف (m) في تلك العملة فيبقى غامضاً، وربما يمثل الحرف الأول من اسم دار السك لتلك النقود. في الوجه الآخر للقطعة النقدية نفسها (القفا أو الظهر) يظهر نسر واقف فارشاً جناحيه. فهذا الرأس هو الظهور الأول لإله القمر سين في هذه العملة المعدنية لهذا الجزء من العالم.



شكل رقم (1)

في الجزء الأيسر من الواجهة نفسها (الظهر) يظهر الاسم $\phi\phi$ بمعنى شقر $\phi\phi$ وقد كتب معكوساً كما هو حال كل الكتابات التي وجدت في هذا النوع من العملات، وربما يعود السبب في ذلك إلى أن هذه العملات قد تم سكها بوساطة قوالب عديدة مختلفة. سيتم الحديث بإسهاب عن هذا الاسم لاحقاً. وعلى يمين هذه الواجهة يظهر الاسم $\psi\psi$ يوشا YSH وقد أثارت هذه الكتابة الكثير من التخمينات. لفت انتباهي البروفسور جي ريكمانس (G. Ryckmans) من خلال



(الشكل 2)



41

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

من الملاحظ أن الاسمين *SIN* (سين) و *ŠKR* (شقر) استخدموا على نحو تبادلي في كل مجموعة من مجموعات هذه العملة المعدنية، فعندما يظهر أحد هذين الاسمين في وجه إحدى هذه العملات، يظهر الآخر في ظهرها.

في تقديري أن *ŠKR* (شقر) هو اسم جديد لإله القمر الحضرمي. تحدث السيد بيستون Beeston في دراسته المذكورة عن أهمية اللفظة *ŠKR* وتتبع أصلها وتاريخها معتبرها صفة من صفات إله القمر سين وأنها ترجع إلى جذر يعني (الحق أو الصواب). إضافة إلى الأدلة الموجودة في هذه العملة والمذكورة آنفاً هناك أدلة واستنتاجات أخرى تؤكد ما ذهب إليه في أن الاسم شقر ما هو إلا الاسم الجديد لإله القمر. فالكلمة *ŠKR* (شقر) تعني عموماً (السقف) أو الجزء الأعلى من البناية (انظر كي. كونتي روسيني K. Conti Rossini). إن هذه اللفظة تظهر باستمرار في العبارة

بمعنى (من أساسها إلى سقفا). إذاً في اعتقادي أن هذه العملة المعدنية تقدم لنا تفسيراً عن سبب تسمية هذا الجزء من البناية (شقر). فإذا صح فهمي وتفسيري لما كتب على هذه العملة المعدنية، فإن شقر تعني إله القمر في حضرموت لأنه في تلك الأزمنة كانت الناس تضع ما يمثل إله القمر على أسقف المعابد والبنائيات (2). هذا الأمر يؤكد هذا اللوح من المرمر الذي تم جلبه من أرض اليمن ويوجد الآن في متحف عشقي صارك Eski Sark Museum في أسطنبول (الشكل 6)، فهو الجزء العلوي من أحد المعابد السبئية، تظهر بوضوح تام في سقف المعبد هذا قرون ثور ناتئة من أحد أبراجه وتمثل إله القمر.



(شكل 6)

هناك دليل توضيحي آخر وثيق الصلة بهذا الموضوع وهو الميازيب الناتئة من جوانب الأسطح على صورة رؤوس ثيران التي أخذت من سطح أحد المعابد في حجة التي أشار إليها سي راثجنز C. Rathjens و اتش. في. وايسمن H. v. Wissmann's عام ١٩٣٢م في الصفحة 55 من (عصور ما قبل الإسلام).

يبدو لي أن هذه الأشياء كلها تمثل *ŠKR* (شقر) إله القمر ومع تقادم الزمن صار الاسم يطلق على هذه الأسطح حيث كانت تعرض تماثيل ذلك الإله.

١- المونوجرام أو نُعُوت الحَاكِم والْقَابِه؛ علامة ترمز إلى شخص ما وتتألف من أحرف اسمه الأولى (المترجم)

٢- من الجدير بالذكر أن هذه العادة لا تزال موجودة في حضرموت إلى عصرنا هذا رغم أن الغاية الأصلية من ورائها قد نسيت واندثرت، فقد نشرت فريا ستارك (١٩٣٨) في كتابها البوابات الجنوبية للجزيرة العربية - في الفصل الذي يحمل عنوان (في حضرموت) صفحة (٢٨) صورة لأحد البيوت وقد نصبت في سقفه قرون الوعل (المؤلف).

في وجه بعض من هذه العيّنات التي لم تنشر من قبل يظهر رأس إله القمر سين (المشع) تارة تظهر الجهة اليمنى من الوجه والرأس، وتارة الجهة اليسرى (انظر الشكل 2)، بينما كتب الحرف

الأول من اسم إله القمر سين: *h* أسفل الرأس، وفي ظهر العملة، حيث كان يوجد النسر في تلك العملة التي أحضرتها فريا ستارك، نجد رأس ثور ناظراً إلى جهة اليمين وقد كتب أعلى الرأس *ŠKR* (1) إضافة إلى الطرة *h* أمام رأس الثور.

توجد مجموعة أخرى من العملة المعدنية تشبه بشكل كبير العينة المذكورة أعلاه (انظر الشكل 3).

وقد طبع بوجه إله القمر بينما يظهر في ظهرها رأس ثور مقابل (رسم من الامام)، وقد كتبت فيها الأحرف باتجاه الأسفل من الجهة اليمنى. ولسوء الحظ لا يمكننا التأكد فيما إذا كانت هناك كتابة أخرى في الجهة اليسرى نظراً لما لحق بتلك العملة من تآكل وتلف.



(شكل 3)

كما توجد مجموعة أخرى لا يوجد لها وجه، فبدلاً من صورة إله القمر التي عادة ما تظهر في وجه العملة نجد الكتابة *ŠKR* (وفي ظهر تلك العملة أعلى رأس الثور كتب *SIN* (انظر الشكل 4)



(شكل 4)

توجد مجموعة أخرى (انظر الشكل 5) لها وجه يشبه وجوه العملة الموضحة في الشكل (4)، ولكن في ظهرها يوجد رأس الثور (المقابل)، تماماً مثل العملة الموضحة في الشكل (3)، ولكن بها كتابة مختلفة فقد كتبت فيها الأحرف الثلاثة لاسم إله القمر سين *SIN* مرتبة على هذا النحو: الحرف الأول في أعلى العملة والحرف الثاني على يمينها بينما الثالث في يسارها.



(شكل 5)



42

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

من الأعلام الحضرمية في المدينة المنورة

السيد صافي بن عبد الرحمن الجفري

"قراءة في وثائق الأرشيف العثماني"



هناك العديد من الأسر ذات الأصول الحضرمية تواجدت في الحجاز ومنها المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام منذ فترات موعلة في القدم ، ومن هذه الأسر الحضرمية الحجازية (السادة العلويون) ، كان منهم في أثناء فترة الحكم العثماني: آل السقاف - وآل جمل الليل - وآل بافقيه - وآل البيتي - وآل الجفري ، الذين كان لهم ثروة ونفوذ في المدينة المنورة ، وكان منهم صاحب الترجمة السيد صافي بن عبد الرحمن بن صالح بن أحمد بن محمد بن صالح بن عبد الله بن عبد الرحمن الجفري المدني .

يكن بد من إجابة الطلب فبعث شيخ السادة بختنه السيد صافي ، فكان في جملة مأخذ : ستة صحون من الذهب مرصعة بالجواهر ، قُومَت في تركته باثني عشر ألف جنيه ، وعلى إثر رجوعه إلى المدينة أمر السلطان عبد المجيد بزيادته المعروفة في الحرم الشريف ، فكانت النفقة على السيد صافي ، فابتنى له عدة قصور شاهقة ، وتأثّل أموالاً طائلة كان بها أغنى أهل المدينة " (٢) .

كان للسيد صافي شأن كبير ، ونفوذ قوي داخل المجتمع المدني ، وله علاقة طيبة مع السلاطين العثمانيين عبد المجيد وخليفته عبد الحميد ، فقد كثر ورود اسمه في الوثائق العثمانية مبينة ما يحصل عليه السيد صافي من

ترجم له السيد ابن عبيد الله السقاف قائلاً: " نجع من حوفاة إلى المدينة المشرفة ولم يكن له عمل إلا الإنشاد على ضرب الطار (هو إحدى آلات الدف) حتى ضمه حفل مع شيخ السادة بها ، وهو السيد الجليل عبدالرحيم بن سالم ، فلم يرقه أن يكون علوي قوَّالاً ، فأخذه إلى بيته وعاتبه فاعتذر بالحاجة ، فقال له : الزم بيتي وأنا أكفيك المؤونة ، ففعل وخدم بنشاط ، فأحبه وزوجه من بنته آمنة ، ولم يزل معه في حال طيب ، حتى جاء الأمر من السلطان عبد المجيد باستقدام شيخ السادة هذا أو السيد المجمع على صلاحه وولايته السيد عمر بن عبد الله الجفري للتبرك بأحدهما والصلاة خلفه ، فلم يرغب في ذلك ، ولم



د. خالد حسن الجوهي

نشأ السيد صافي في بلدة حوفاة (١) بحضرموت ، وكانت حالته المادية متواضعة ، ولكن حظّه الوافر نقله من مكانة اجتماعية إلى أخرى بعد أن هاجر إلى المدينة المنورة ثم إلى استانبول في عهد السلطان عبد المجيد ، وقد



43

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

الداخلية طالباً فيها نقل خير الله أفندي ونائبه بسبب تعاملهما غير اللائق في الحرم النبوي ضد السيد صافي (١٣).

نخلص من ذلك إلى أن النفوذ الذي كان يتمتع به السيد صافي كان كبيراً، فقد استطاع أن يجمع حوله مؤيدين كثيراً، وأغلبهم من عشيرته العلويين الحضارمة، وعزل موقف شيخ الحرم النبوي.

لقد تعمد شيخ الحرم إذلال السيد صافي من خلال استغلال وجوده في المسجد النبوي في أثناء سلامه على النبي صلى الله عليه وسلم وحوله السادة العلويون وذلك بالحاحه على السيد صافي للمجيء إلى المشيخة، ونتيجة تكرار الطلب رد عليه السيد صافي بأنه لن يتوجه إلى المذكور، وإذا أراد منه شيئاً فليراجع الحكومة، ولهذا انزعج شيخ الحرم واعتبره إهانة موجهة إليه وإلى المنصب الذي يشغله. (١٤)

وبهذا خرج السيد صافي منتصراً من هذه المعركة، بسبب التعاطف الذي حظي به من قبل علماء وأعيان المدينة المنورة. وفي ٢٧ جمادى الآخرة ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٦ م بعث شيخ الحرم النبوي تقريراً مفصلاً عن أوضاع السيد صافي، وتجاوزاته إلى جناب الصدر الأعظم، متهماً السيد صافي بعدد من الاتهامات الخطيرة التي من شأنها أن تضر مكانة السيد صافي لدى السلطنة، وهذه التجاوزات التي بينها التقرير تتمثل في الآتي:

١- ذكر فيه معلومات عن السيد صافي، عن أصله ومكان مجيئه، فذكر أنه من أهالي حضرموت، ثم صار من مجاوري المدينة المنورة، وأن توجهاته معادية للدولة العثمانية.

٢- إن له منزليين في ساحة المدينة، وثمانية دكاكين قام بالاستيلاء عليها ظلماً وعدواناً من خلال أعمال السلب والنهب، واغتصاب الأراضي.

٣- استأجر بعض الأوقاف الخاصة بالحرم النبوي الشريف من الدولة لمدة

شخصية بين الطرفين.

وفي إحدى الوثائق العثمانية التي نُشرت تبين وقوع صراع آخر بين السيد صافي وبين شيخ الحرم النبوي الشريف آنذاك (حسن خير الله أفندي)، وتعود الوثيقة إلى عام ١٢٩٧ هـ / ١٨٨٠ م، وهي عبارة عن شكوى رفعها شيخ الحرم ضد السيد صافي، جاء فيه مع بعض التصرف مايلي "أن السيد صافي بعد مجيئه من جدة، أخذ ينشُر أراجيف بخصوص عزلي، وأتم تعلمون جزاء من يقوم بهذا العمل، ومع ذلك لم أجازه بشيء، ولم أدعه إلى بيت المشيخة لأعاقبه، وعندما رأيته في صلاة الظهر خطر ببالي أن أدعوه لكي أنصحه عما يشيعه ضدي، وعندما أرسلت إليه المستخدم شتمه وصاح عليه، ثم أرسلت إليه السيد زين جمال الليل والسيد عبد القادر هاشم، فقال السيد عبد القادر لي بأنه لن يحضر، كما علمت أن السيد صافي قد جمع عدداً من السادة ومن غيرهم، ومرادهم إثارة فتنة في الحرم النبوي الشريف، ولهذا حررت هذه المذكرة لسعادتكم إعلاماً بما وقع لهيبة وشرف المشيخة الجليلة" (١١).

ولم تبين الوثيقة الجهة المرسل إليها الخطاب وبناء على هذا الخطاب، فقد اجتمع أئمة الحرم النبوي الشريف، وأعيان المدينة المنورة من السادة الأشراف، وكتبوا محضراً بالشكوى ضد تصرفات شيخ الحرم النبوي ونائبه (تحسين آغا) الرامية إلى إذلالهم، وقد شمل الخطاب نحو ثمانية وأربعين اسماً معظمهم من السادة العلويين، كما رفع خطاب آخر من قبل اثنين وأربعين شخصاً من السادة الأشراف موجه إلى أمير مكة المكرمة يطالبون فيه بعزل شيخ الحرم النبوي حسن خير الله بتاريخ ٢٩ شعبان ١٢٩٧ هـ / ١٦ أغسطس ١٨٨٠ م بسبب تعامله غير اللائق مع السيد صافي، (١٢) واستجابة لطلبهم رفع أمير مكة المكرمة معروضاً إلى نظارة

مساعدات مالية ومناصب إدارية، فقد بذلت له الدولة العثمانية أموالاً لكي يقوم بترميم منزله في المدينة المنورة على دفعتين، أحدهما عام ١٢٨٠ هـ / ١٨٦٣ م، (٣) والأخرى عام ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٧ م لعدم كفاية المبلغ السابق (٤)، كما خصصت له راتباً من خزينة الأوقاف عام ١٢٦٧ هـ / ١٨٥٠ م (٥)، كما صدرت الإرادة السلطانية للسيد صافي بمنحه الوسام المجيدي من الدرجة الثانية (٦)، وأيضاً تم تعيينه في منصب الفراشة الشريفة (٧) بعد وفاة الوكيل عبد الله أفندي في ١٦ ربيع الثاني ١٢٦٧ هـ / ١٨٥٠ م (٨).

علاقة السيد صافي مع مشيخة الحرم النبوي الشريف :

لم تكن علاقة السيد صافي مع مديري مشيخة الحرم النبوي جيدة، فقد خاض السيد صافي صراعاً استمر عدة سنوات مع مديري المشيخة، ويبدو أن دواعي هذا الصراع هو التنافس على الوجاهة والنفوذ داخل المجتمع المدني، وأن هذا النوع من التنافس كان موجوداً في بعض مناطق النفوذ العثماني في الجزيرة العربية ويقع بين شخصيات اجتماعية ومسؤولين إداريين وعسكريين. ففي عام ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٦ م رفع كل من شيخ الحرم النبوي جمال باشا، ومدير الحرم النبوي أحمد عطابك ثلاثة محاضر إلى الباب العالي متضمنة شكاوى ضد السيد صافي، وفي الوقت نفسه أرسل خطاباً إلى الباب العالي من قبل قضاة المدينة المنورة يتضمن عدم الارتياح العام لأحمد عطابك، ومن ثم جاءت الخطابات متضاربة في محتواها، مما أدى إلى عدم اتخاذ قرار من قبل مجلس الوكلاء (٩) الذي قرأ هذه المحاضر، ومن ثم أرسلت هذه المحاضر إلى ولاية الحجاز للتحقيق فيها (١٠) ويعني ذلك أن القضاة في المدينة المنورة قد رجحوا كفة السيد صافي وأن هناك صراعات



44

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

١٥-٢٠ سنة، وعلى ذمته الآن ١٥ ألف قرش لم يدفعها .

٤- قيامه بسرقة المياه من خلال تحويله مجرى العين الزرقاء، (١٥) كما عرض على موظف الاحتساب نيته بناء مجمع أسواق في المدينة المنورة، حيث قام ببناء بيت كبير في الساحة، وقام بدعوة المحافظ إلى هذا المنزل، ولم يكن من حقه الاستيلاء على هذه الأراضي لأنها وقف .

٥- عند مجيء أحد أقارب أمير فاس (١٦) ودخله إلى السيد صافي مع السيد جمل الليل، تسلف الرجل أموالاً من السيد صافي فأعطاه إياها بأكثر من سعرها .

٦- قيامه بإضافة أراض من الرباط الهندي إلى أرضه الملاصقة له .

٧- استيلائه على المنزل الذي يملكه الشريف على بن الشريف حسين .

٨- قيامه بتأجير بعض الحدائق والاستراحات من غير إذن من أصحابها .

٩- قيامه بالاستيلاء على أموال ومجوهرات نامي أفندي الذي كان مديراً للمال في المدينة المنورة (١٧) .

واستناداً إلى هذا التقرير المذكور قام الصدر الأعظم بإرسال خطاب إلى السلطان العثماني في ٨ شعبان ١١٣٠ هـ / ١٨٨٦ م جاء فيه: "أن السيد صافي من أهالي حزموت وأنه جاء مجاوراً إلى المدينة المنورة، وأنه كان من أفقر أهل المدينة المنورة، أما اليوم فقد أصبح ذا ثروة وغنى، ولديه أموال طائلة، وكان يُفترض مقابله هذه الأموال أن يفني عمره في سبيل خدمة السلطنة ولكنه يعمل على عكس ذلك، فهو يعمل بالتجارة والبيع والشراء والمرابحة ويتعدى على عباد الله ولا يتقيد بأحكام الدولة العثمانية، ولما طلع قرار المحكمة بالقبض عليه، كان ينوي الفرار إلى مكة المكرمة وأعماله كله تدل على الإخلال بالمنطقة

وبموجب قرار المحكمة تقرر نفيه إلى الليث، ولكن السلطان قام بالعفو عنه لعله يرجع عن أفكاره هذه" (١٨) .

يبدو أن السلطان العثماني لم يتجاوب مع هذه الخطابات، ولذلك استمرت الخطابات الموجهة إلى السلطات العثمانية بخصوص السيد صافي، ففي العام التالي ٧ شوال ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ م بعث خطاب مشترك من قبل شيخ الحرم النبوي ومحافظ المدينة المنورة إلى الصدر الأعظم جاء فيه بعض الملاحظات والانتقادات على السيد صافي وهي "أن السيد صافي مستمر في أعماله العدائية مما اضطرنا إلى عرض هذه التجاوزات على سيادتكم والتي منها: إلقاء الفساد بين أمراء الحجاز، وقبائل العرب، والتفريق بين عباد الله، وهو متفق مع شيوخ القبائل خارج المدينة، وهؤلاء يأتون إلى المدينة المنورة ويذهبون إلى منزله ويستشيرونه في أمورهم، وإذا كانت له قضية لا يستطيع تحقيقها يذهب إلى شيوخ القبائل فيأتي ببعض الأعوان، ويؤلبهم على الدولة للإخلال بالأمن في البلاد وهو أمر قام به مرتين خلال هذه السنة، وإذا لفت نظره إلى خطأ هذا الفعل يعمل على التهديد وأنه سوف يعمل على قتل وإبعاد من يقول ذلك، وقبل عدة أيام قدم إلى المدينة شخص من السودان، ومعه فرمان أعطاه لحذيفة (١٩) ورغم التصييق على حذيفة للعثور على هذه الورقـة، إلا أن المحاولات باءت بالفشل، حيث تم منع حذيفة من قيامه بالفساد في المدينة، كما أن شيوخ القبائل متحالفون مع السودانيين وأصبحت المدينة وكأنها جزيرة خاضعة للقبائل الذين يتبعون السيد صافي، كما أن السيد صافي قام بضم بعض أوقاف الحرم إلى أراضيه، كما أنه قام بمنع بناء المنزل المشروط

على مدرسة (كيلي ناظري) (٢٠) مع أنه ليس من حقه الاعتراض، وقام برفع دعوى ضد الحكومة، رغم أن ناظر الوقف من العلماء والمدرسين بالحرم النبوي وهو شيخ جليل (خليل خربوطي) وعند ذهاب خربوطي إلى السوق يتلفظ عليه السيد صافي بألفاظ سوقية كما قام بضربه واستحقاره وهو ماحكاه الشيخ بنفسه" (٢١) .

يتضح مما سبق أن المدينة المنورة كانت تعيش حالة من الانفلات الأمني، وأن هذا التقرير قد بالغ كثيراً في تحميل السيد صافي المسؤولية الوحيدة عن هذا الوضع، وبدا وكأن السيد صافي هو الحاكم بأمره فيها، وقد يكون الغرض من هذا التقرير هو تهويل الأمر حتى يتم اتخاذ إجراءات حاسمة ضده، خاصة أن السلطات العثمانية لم تفعل شيئاً إزاء الخطابات السابقة التي رفعت قبل عام، ومن هنا تجاوب السلطان العثماني مع هذا الخطاب بعدم أن وصل الأمر إلى درجة التحريض وإغلاق الأمن، حيث صور الخطاب وكأن المدينة أصبحت خارج السيطرة، لذلك صدر أمر سلطاني بنفي السيد صافي إلى جبل شمر، ولكن يبدو أن القرار لم ينفذ، وهذا ما ستوضحه الوثيقة التي سوف نستعرضها لاحقاً والتي هي عبارة عن خطاب وجهه الصدر الأعظم إلى وزارة الخارجية في ٢١ ذي القعدة عام ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ م وجاء في مضمونه "إن السيد صافي يعمل على الترويج بين العربـان، وأنه رغم صدور الأمر السلطاني بنفيه إلى جبل شمر، إلا أن السيد صافي قد حسن من أخلاقه في المدينة المنورة أخيراً، إلا أنه رجع إلى سابق عهده بالاستمرار في الفضائح، ولهذا فلا يجوز إبقاؤه في المدينة المنورة أبداً، ولهذا فقد رأت مشيخة الحرم الشريف أن يتم نفيه وعائلته إلى



45

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

المدينة المنورة، ط ٢٠٠٥، ١ ص ١٤٨

(١٦) هناك علاقات تربط بين السادة العلويين الحضارمة وبين سلاطين المغرب، وقد جرت العادة منذ فترات طويلة، أن يرسل سلاطين المغرب أموالاً للسادة العلويين الموجودين في حضرموت والحجاز سنوياً حيث يتم توزيعها على كل من ينتسب إلى السادة العلويين، وهنا يستغل السادة هذه المناسبة لجمع وتجميع أنساب فروع السادة في بلدان حضرموت والحجاز ذكوراً وإناثاً وعمل المشجرات لذلك (الحداد، عقود الألباس، ج ٢، ص ٢٨، شافعي، الأربطة في مكة المكرمة، ص ٦٥-٦٧)، ولهذا يبدو أن الأمر قد التبس على شيخ الحرم النبوي.

(١٧) الإرشيف العثماني، تصنيف: Y.A.HUS. ٢٠٢/٣٣.

(١٨) الإرشيف العثماني، تصنيف: Y.A.HUS. ٢٠٢/٣٣.

(١٩) هو شيخ قبيلة حرب بالمدينة المنورة وقد ورد اسم هذه الشخصية في الوثائق العثمانية لعام ١٢٥٧هـ / ١٨٤١م، بأنه يمثل شيخاً لمشايخ العربان في المدينة المنورة، إسماعيل حقي أوزون جارشيلي، والي وقائد عام الحجاز عثمان نوري باشا يعزل أمير مكة الشريف عبدالمطلب، تقديم وترجمة: صالح سعداوي، مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد الثامن، العدد الأول، ١٩٩٣م، ص ٩٥.

(٢٠) كيلي ناظري: مدرسة أسسها مصطفى كيلي ناظري عام ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م وكانت تقع في شارع الساحة وتتكون من ثلاثة أدوار ونصف وبها أربع وعشرون غرفة (سحر بنت عبد الرحمن الصديقي: أثر الوقف الإسلامي في الحياة العلمية بالمدينة المنورة، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ١٥٩).

(٢١) الإرشيف العثماني، تصنيف: Y.A.HUS. ٣١٥/٤٠.

(٢٢) الإرشيف العثماني، تصنيف: Y.A.HUS. ٣١٥/٤٠.

(٢٣) حمد الجاسر، رسائل في تاريخ المدينة المنورة، منشورات دار اليمامة، الرياض (د.ت) ص ٥٠.

(٢٤) المرجع نفسه، ص ٥٤.

(٢٥) المرجع نفسه، ص ٤٣.

(٢٦) محمد حسين زيدان: العهود الثلاثة، ط ١، ١٩٨٨م، ص ٦٨.

(٢٧) السقاف، إدام القوت، ص ١٨٢.

الهوامش:

(١) إحدى قرى وادي دوعن الأيسر بحضرموت.

(٢) عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف: إدام

القوت في ذكر بلدان حضرموت، تحقيق:

إبراهيم أحمد المقحفي وعبد الرحمن حسن

السقاف، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ١،

٢٠٠٢م، ص ١٨٢.

(٣) الإرشيف العثماني، تصنيف: A.MKT.MHM.

٢٨٥/٣٨

(٤) الإرشيف العثماني، تصنيف: A.MKT.MHM.

٣٨٨/٩٠٠

(٥) الإرشيف العثماني، تصنيف: A.MKT.MHM.

١١٢٠/٧٥٤

(٦) صابان، مراسلات الباب العالي، ص ٦٦

(٧) الفراشة الشريفة: إحدى خدمات الحرم

الشريف، وتعني الاهتمام بأمور النظافة في

الحرم وكان السلطان العثماني متكفلاً،

بالقيام بأداء هذه الخدمة بدفع كافة

المصروفات من جيبه ويقوم عنه من ينيبه،

ويشترك مع السلطان في هذه الخدمة)

صابان - مراسلات الباب العالي، ص ٥٠)

(٨) الإرشيف العثماني تصنيف: A.MKT.NZD.

٦/٢٧.

(٩) اصطلاح العثمانيون على تسمية مجلس

الوزراء بمجلس الوكلاء (صابان، مكة

المكرمة والمدينة المنورة، ص ٩٤)

(١٠) صابان، مراسلات الباب العالي، ص ١٨٣

(١١) سهيل صابان، من أعلام المدينة المنورة

عام ١٢٩٧هـ - ١٨٨٠م، مجلة دار الوثيقة

العدد الأول، ربيع الآخر، ١٤٢٢هـ، ص ٦

(١٢) المرجع نفسه، ص ٦-٧

(١٣) المرجع نفسه، ص ٨

(١٤) المرجع نفسه، ص ٩

(١٥) العين الزرقاء: أجراها مروان بن الحكم

عامل المدينة المنورة بأمر من معاوية بن

أبي سفيان وأصلها من قباء من بئر كبيرة

غرب مسجد قباء في حديقة نخل تسمى

(الجعفرية) وقد أوصلت إلى باب المدينة ثم

إلى مصلى الأعياد، ثم إلى باب الرحمة، وقام

بإيصالها الأمير سيف الدين الحسين بن أبي

الهيضاء سنة ٥٦٠هـ - ١١٦٤م وجعل لها

مصرفاً من تحت الأرض، وكان قد جعل منها

قناة تدخل إلى صحن المسجد النبوي وجعل

لها درجاً على عقد يخرج الماء إليه لينتفع به

الناس في الوضوء وغيره (أحمد هاشم

بدرشيني، أوقاف الحرمين الشريفين في

العصر المملوكي، مركز بحوث ودراسات

حضرموت أو إلى محل آخر" (٢٢).

نخلص مما سبق أن السيد صافي قد تمتع بنفوذ وتأثير كبير داخل فئات المجتمع المدني بين العلماء والقبائل البدوية التي تعيش في المدينة المنورة وأطرافها، مما أدى إلى محاربة هذا النفوذ من قبل مشيخة الحرم النبوي الشريف وبمساندة الصدر الأعظم، ولهذا كانت الحرب شرسة بين الطرفين. فقد كانت شخصية السيد صافي تتسم بالعصبية والعناد، فهو لا يرضى بالهزيمة وبطبيعته هو رجل مشاكس، عكس ما تتسم به بقية إخوانه من الحضارم الذين يتسمون بالهدوء، والذين يتنازلون عن حقهم مقابل سلامة البال وعدم الدخول في صراعات، وعدم الالتجاء إلى المحاكم بل يتم التراضي فيما بينهم وبين الخصوم، وكان السيد صافي في وضع مالي لا يستهان به مما مكّنه من امتلاك الدور والأسواق والمراكز التجارية والحدائق، وكانت بيوته تقع في الساحة التي تعتبر من أعظم حارات المدينة المنورة (٢٣). أما حدائقه فتوجد في زقاق درب الجنائز، سكن النخالة (٢٤). والسوق التجاري أو الخان فقد أنشأه السيد صافي في زقاق الشبونة وهو زقاق نافذ إلى الصالحية (٢٥). كما يعتبر السيد صافي من رجالات السلطان عبد المجيد وابنه السلطان عبد الحميد حيث عاش طويلاً في استانبول وارتبط بروابط قوية مع بعض الشخصيات الإسلامية مثل السيد جمال الدين الأفغاني، واقتنى السيد صافي أغلى المجوهرات، ولذلك يُقال في المدينة المنورة: (ثلاث عرايس يمكن أن يتحلوا بمصاغ جارية من بيت الصافي)، وكان في آخر عهده أي في عام ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م يحمل على عربة يدفعها حسان لعدم قدرته على المشي (٢٦) وقد مات عن مائة وعشرين عاماً (٢٧).



46

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

المحسن الكبير الشيخ أحمد بن محمد بن سعيد بغلف



للحضارمة دور لا ينكر في ازدهار الحضارة الإنسانية في وطنهم الأم وفي مهاجرهم المتعددة في مجالات العمل التطوعي والخيري وبناء المساجد والمدارس والمستشفيات وتسبيل مياه الشرب والسقايات وبناء خزانات وسدود المياه وغيرها من مبرات الخير التي عرفوا بها. ومن بين حضارمة الحجاز الذين نرحموا من وادي وساحل حضرموت وواديي دوعن، برز أشخاص من مراجيح الحضارمة التصق العمل الخيري بأسمائهم، فلا يذكر المشروع الفلاني إلا ويذكر من شارك في إنجاحه ويدل من حر ماله في سبيل الارتقاء بوطنه أرضاً وإنساناً. وفي هذه العجالة نتحدث عن شخصية فريدة التصق اسمها بفعل الخير والسعي في بذله، وهي شخصية الشيخ الكريم والمحسن العظيم أحمد بن محمد بغلف، وطالما تردد على مسامعنا اسم هذه الشخصية في العقدين الماضيين، يتحدث عنه المواطنون الحضارمة بكل فخر واعتزاز، وصار اسمه مضرب مثل في الثراء وفعل الخير، وكان باراً بأهله وبلده بما تركه من بصمات خيرية في المساجد والمدارس ومشاريع المياه.

الأعمال التجارية، وافتتح شركة صرافة ثم صارت مؤسسة من أكبر المؤسسات المصرفية العالمية، وكانت له صدقات سرية على فقراء ومحتاجي الحرم منذ أن عمل يتصدق بجزء من راتبه عليهم وعرف بذلك إلى أن توفاه الله، حتى صار اسمه مضرب المثل بين الحضارمة في التصدق والإنفاق، وكان يلقب بالظافر بالله، وهو الاسم الذي تعنون به معظم رسائله وبرقيات، ومن ظفر بريه لم يلتفت إلى غيره.

وكان رحمه الله يشارك في الأعمال الاجتماعية التي يعود نفعها إلى أهله وذويه، فقد كان أحد أعضاء لجنة هيئة الإنقاذ والمواساة بدوعن المشكّلة في مدينة الخبر بالسعودية، وذلك للسعي في إقامة بعض المشاريع الحيوية،

الشريفيين كغيره من أبناء دوعن، وقد مكث بمكة المكرمة متردداً على الحرم المكي، ومتلمذاً على بعض كبار العلماء فيه ومنهم الشيخ إبراهيم الحلواني الذي أثر فيه تأثيراً بارزاً ظهر بعد ذلك في حياته العملية والاجتماعية. وفي مكة زاول بغلف بعض الأعمال لطلب لقمة العيش الكريمة، فقد عمل في أحد البيوت بمكة بأربعة قروش، يقوم بخدمتهم وتوفير ملتزماتهم كغيره من صغار الحضارمة، ثم بعد ذلك عمل صرافاً متجولاً أمام أبواب الحرم المكي والمسعى ومنى وعرفة، يقوم بالصرافة للحجاج والمعتمرين، ثم انتقل إلى المنطقة الشرقية بالسعودية وعمل في الصرافة، ومن هنا بدأت تجارته الراحبة فقد كون له رأس مال لا بأس به من تلك



محمد علوي باهارون

ولد الشيخ بغلف بقرية خسوفر بوادي دوعن الأيمن في سنة ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩ م)، وكانت وفاته يوم عرفة سنة ١٤١١ هـ (١٩٩١ م)، وقد عاش طفولته في قرية خسوفر وتلقى بداية تعليمه على الشيخ عبد الله بن محمد بلخير، وعمل في دوعن، ثم هاجر إلى الحرمين



لقد ترك الشيخ أحمد بن محمد بغلف آثاراً مجيدة جديرة بالدراسة والتوثيق والتخليد وابرازها لأبناء العصر ليروا ما كان عليهم آباؤهم في السنوات القريبة من مجاهدات ومكابدات وبناء مجدهم بأيديهم، من غير اتكال على غيرهم.

لقد ترك الشيخ أحمد بن محمد بغلف (الظافر بالله) آثاراً مجيدة جديرة بالدراسة والتوثيق والتخليد وإبرازها لأبناء العصر ليروا ما كان عليه آباؤهم الحضارمة في السنوات القريبة، من مجاهدات ومكابدات وبناء مجدهم بأيديهم من غير اتكال على غيرهم حتى شاركوا في بناء حضارات العديد من الدول الإسلامية في الجزيرة العربية وجنوب شرق آسيا وشرقي أفريقيا، ويعتبر الشيخ بغلف من أبرز مراجيح الحضارمة الذين أسهموا في النشاط الاقتصادي بالمملكة العربية السعودية، والعمل التطوعي ولم ينسوا أهلهم وأوطانهم من إصلاحاتهم وصلاتهم وبذلك خلد لهم الزمن الذكر الحسن، وثناء الناس عليهم على مدى الأعوام، والذكر للإنسان عمر ثان.

المراجع:

- د. عادل أحمد الكسادي، العمل التطوعي في حضرموت مدخل تاريخي ومعاصر، مجلة كلية الآداب، جامعة عدن، العدد السابع، نوفمبر ٢٠١٠م.
- سند بايعشوت، لقاء عن بغلف مع الشيخ عمر محمد بانبيلة، موقع محافظة حضرموت الإلكتروني.
- صحيفة الرائد، العدد ٢٣، ١٢٦ يونيو ١٩٦٣م.
- يوسف عمر باسنبل، منطقة لجرات .. حزام أخضر يتوسط وادي دوعن الأيمن، مجلة حضرموت الثقافية العدد الأول ذو الحجة ١٤٣٧هـ.

في السعي لتوفير مياه الشرب لمناطق عديدة في حضرموت واليمن وذلك منذ العقد الخامس من القرن العشرين. ويشير أحد القائمين في مشاريعه الخيرية بحضرموت وهو الشيخ عمر محمد بانبيلة أن مشاريعه عمت معظم المناطق النائية في حضرموت، وكان الرئيس علي ناصر محمد يقدر له تلك المشاريع الخيرية التي أنجزها ويوجه إلى المسؤولين بتسهيل مهام مشاريع بغلف. ولما زار الشيخ بغلف حضرموت في أيام المحافظ محمد علي باشماخ استقبل استقبالاً حافلاً وكان برفقته عدد من تجار السعودية.

المساجد التي بناها.

قام الشيخ بغلف بتجديد وبناء عشرات المساجد رجاء ثواب الله الذي وعد به نبيه الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم في حديثه الصحيح (من بنى لله بيتاً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه. ومن تلك المساجد بمناطق ساحل حضرموت:

- مسجد الجامع بمعيان المساجدة شمال مدينة الشحر في التسعينات.
- جامع المقد، شمال مدينة الحامي، في بداية التسعينات.
- مسجد أبوبكر بن شيخ بافقيه بمدينة الشحر.
- سقف مسجد الرشاد بمدينة الحامي عند تأسيسه عام ١٩٨٨م.

ومنها السعي لجمع التبرعات في بناء مستشفى دوعن التكاملية بكافة متطلباته وكان ذلك في عام ١٩٦٣م.

أعماله الخيرية:

للشيخ بغلف إسهامات رائدة في الأعمال الخيرية في الحرمين الشريفين وفي بلاده دوعن وغيره من البلاد الحضرمية، وما تزال آثاره قائمة في بناء المساجد والمدارس وخزانات المياه، وقد ارتبط اسمه في مشاريع المياه في مناطق حضرموت وشبوة، فكان يبني الخزانات الواسعة ويوصل المياه بالمواسير إلى المناطق البعيدة موفياً بقسمه الذي كما قيل إنه أقسم بالله أن يبني الخزانات ويوصل الماء إلى كل بيت محروم منه بقدر استطاعته. وقد بر بقسمه وخزانات المياه شاهدة على ذلك في مناطق وادي دوعن الأيمن والأيسر ووادي العين ووادي عمد ولم تقتصر على منطقته لجرات ووادي دوعن، بل في عموم مناطق اليمن، إضافة إلى ما كان يقوم به من الإنفاق في سبيل الله على البلدان المجاورة والأسر الفقيرة المحتاجة حتى شبهه بعضهم بحاتم الطائي في عصره. وقد ظل على تواصل دائم في تقديم المشاريع والمساعدات للمناطق المحرومة والفقيرة راجياً في ذلك أولاً ثواب الله ثم مساعدة الأهالي خاصة في المناطق النائية بإمدادها بأنابيب المياه وحفر الآبار، ولقد سار على نهجه من بعده أولاده مقتفين أثر والدهم فيما خلفه لهم من مآثر وأفعال حسنة، منتشرة على طول البلاد وعرضها. ويذكر د. عادل الكسادي في دراسته عن العمل التطوعي في حضرموت أن المفكرين الحضارم أعطوا أهمية بالغة لمشاريع المياه في مناطقهم لمعرفةهم بصعوبة الحصول على مصادر الشرب في أيام الجفاف، ومن أبرزهم في هذا الميدان رجل الخير والبر الشيخ أحمد محمد بغلف الذي كانت له اليد الطولى



الأستاذ عثمان أبوبكر باعمر العمودي

رائد التعليم الحديث في دوعن ١٩٣٠م



ميلاده ونشأته :

ولد الشيخ الأستاذ عثمان أبوبكر باعمر العمودي عام ١٩١٥م في منطقة صبيخ بوادي دوعن الأيسر، وبدأ دراسته في منطقة صيف بعد أن ذهب للدراسة فيها والسكن عند أخواله من آل بامعروف العمودي وكان عمره حينها ٦ سنوات، وفي سن الـ ٨ هاجر إلى مكة المكرمة حيث يعيش والده هناك وجمع بين العلم والعمل، ثم هاجر إلى جزيرة جاوا الإندونيسية، وعاد وهو في العشرينيات من عمره إلى أرض الوطن متسلحاً بالعلم ليبدأ رحلته مع مهنة التدريس في منطقة صبيخ مسقط رأسه عام ١٩٣٠م.

وساعدت والدها في تدريس البنات لمدة خمسة عشر عاماً، ثم انسحبت بعد أن انتشر الاختلاط في المدارس . وفي عام ١٩٤٦م انتقل الأستاذ عثمان باعمر إلى المدرسة الوسطى بغيل باوزير ليعمل مدرساً هناك قبل أن يعود إلى صبيخ عندما تم تحويل المدرسة إلى حكومية نظامية وتوفير المدرسين لها أمثال الأستاذ فرج بكورة والأستاذ عبدالرحمن الملاحي .

بين عامي ١٩٦٢ / ١٩٦٣م افتتحت المدرسة الوسطى بالجحي، فانتقل إلى هناك ليشغل منصب المدير لمدة عامين، لينتقل عام ١٩٦٤م / ١٩٦٥م إلى منطقة بضه بعد افتتاح مدرستها ويتولى زمام الإدارة لمدة عامين ومن ثم يعود مجدداً إلى صبيخ .

(مدرسة صبيخ الابتدائية) وتأسست عام ١٩٣٤م، وهي نواة لمدرسة ٣٠ نوفمبر التي أنشئت في منطقة مدهون ضاحية صبيخ، وقام على أنقاضها مجمع الشيخ عبداللّٰه سعيد بقشان يرحمه الله، الذي افتتح عام ٢٠٠٤م .

واجهت الأستاذ عثمان باعمر الذي كان يلقب بالشيخ عثمان مصاعب عديدة كادت أن توقف مهامه النبيلة في نشر العملية التعليمية؛ لأن بعض الجهات والطوائف كانت أفكارهم مغايرة لما يحمله من فكر، لكنه واجههم بالحجج والبراهين، وكذلك عندما فكر في تعليم الفتاة لاقي معارضة شديدة من الأهالي؛ لأن تعليم البنات لم يعرفه أحد، لكن الشيخ عثمان باعمر دفع باثنتين من بناته ليجلسن في مقاعد الدرس مع الطلاب حتى تخرجت أحدهن



يوسف عمر باسنبل

رحلته مع التدريس :

بدأت الرحلة مع التعليم الحديث عام ١٩٣٠م عندما قام بفتح فصول للتدريس في بيته، وكانت البداية بفصلين ومع زيادة أعداد الطلاب وتلقيه مساعدات من أهالي المنطقة قام ببناء مدرسته الخاصة المكونة من أربعة فصول وتم تسميتها



مدرسة الأستاذ باعمر وملحقها من الأسفل



مرحباً بنا ، وسارع إلى حمار الشاب يفك رباط حمولته وينقل بعضها إلى الداخل ، ثم دعانا للدخول ، وهكذا قابلت الشيخ الصارم المهاب معلم الحساب ، والعنصر الثائر ابن حركة الإرشاد الداعية إلى إصلاح وضع حضرموت في عصر التنوير، سنتان قضيتهما معلماً في تلك المدينة ، زاملت فيها الشيخ الجليل ، وكان لقب الأستاذية للأستاذ عثمان أبوبكر باعمر العمودي شائعاً بمدينة صبيخ ، ومدن وادي ليسر عامة، ولم تكن له الريادة فقط في تعليم الذكور، بل أسهمت عائلته في تعليم الفتيات فكانت ابنته شبيهة بأبيها في هذا المجال ، أستاذة جادة في خدمة المجتمع فمن شابه أباه ما ظلم)) .

من أبرز تلاميذه :

تخرج على يدي الأستاذ عثمان باعمر العمودي يرحمه الله كوكبة من الطلاب الذين أثبتوا جدارتهم في سوق الحياة وصاروا أسماء معروفة يشار إليها بالبنان في المجالات كافة ، ومن بينهم الأستاذ سالم أحمد الخنبشي محافظ حضرموت السابق، ومحمد عثمان العمودي تاجر في السعودية، ومحمد عبود بامعروف تاجر في السعودية أيضاً، والدكتور العرابي، والدكتور عبد الله سعيد باوزير أخصائي أطفال بعدين، ود/ خالد الديباني وعثمان

في وادي دوعن الأيسر، وكان يتمتع بأسلوب خاص في حل المشاكل، وكان شخصية اجتماعية في المنطقة وساعياً في الخير، وجعل من بيته سكناً للمعلمين والطلاب .

قال عنه الأستاذ الراحل عبدالرحمن عبدالكريم الملاحي: بأنه مصباح صبيخ السحري عندما قال إذا حدثك أحد أبناء منطقة صبيخ بأن الأستاذ فعل كذا أو قال كذا فاعلم أنه الأستاذ عثمان باعمر؛ لأن لقب الأستاذية التصق بذلك الشيخ الجليل، ويتذكر الملاحي أنه عندما كان طالباً في وسطى الغيل كان الأستاذ عثمان معلماً هناك، لكن لم يمكث إلا شهراً واحداً في السنة التي التحق فيها الملاحي بالمدرسة الوسطى، لكن أحد زملائه كان يردد بيتاً شعرياً يقول :

لناس هم ولي في اليوم همان

هم الحساب وهم الشيخ عثمان وأضاف الملاحي قائلاً: ((إنهم كانوا يرددون هذا البيت دون وعي لما يحتويه من مضمون إلا أن التساؤل كان يدور عن من يكون هذا الشيخ حتى يهتم به زميلنا ؟ وطافت الرؤيا بخاطري وأنا أمر بشوارع المدينة المتعرجة الصاعدة إلى سفح الجبل الحاضن للمدينة الذي يطلقون عليه الحيد، نرتفع مع كل حجرة إلى أعلى حتى بلغنا بوابة منزل الشيخ الجليل الذي وقف خارجه

في رحلته التدريسية كان الأستاذ عثمان يبعث بطلابه المتميزين إلى وسطى الغيل لمواصلة تعليمهم ومن بينهم الأستاذ صالح عمر جمعان .

أسلوبه في التدريس :

كان الأستاذ عثمان باعمر حازماً وصارماً في الصف وخارجة، ولا يقبل الكسل والتكاسل، وكان يقوم بتأليف وإخراج المسرحيات لطلابه كأسلوب من أساليب التشويق للدرس؛ حيث اشتملت على مسرحيات تاريخية مثل مسرحية عن نكبة فلسطين، إضافة إلى المواضيع الثقافية والفكاهية، التي كانت تقام في سطح المدرسة أو في منزل المرحوم أحمد سليمان بقشان بخيلة وهي جزء لا يتجزأ من الأنشطة اللاصفية التي يتم فيها أيضاً تنظيم المباريات بعد تكوين الفريق المدرسي وتخصيص حصة أسبوعية للرياضة لألعاب الجمباز والألعاب السويدية، وكان أول الموجودين في النشاطات اللاصفية ويشرف بنفسه على المسرحيات الأدبية والهزلية والخطب والمنولوجات الهادفة التي يقوم بإعدادها

إسهاماته وأعماله :

كان الأستاذ عثمان باعمر خطيباً لجامع صبيخ لسنين عديدة، ومحاضراً فيه يلقي عليهم الدروس، وعمل أيضاً أميناً للأنكحة



50

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

تشكيل لجنة من بين خريجي المدرسة ممن لازالوا على قيد الحياة من أجل البحث عن وثائق المدرسة وأرشفتها بطرق علمية حديثة، مع التفكير بإنشاء جائزة تحمل اسم الأستاذ عثمان باعمر للمبدعين والمتفوقين من أبناء دوعن .

والآن وبعد أن رحل عن دنيانا الفانية الشيخ الأستاذ عثمان أبوبكر باعمر العمودي يرحمه الله الذي يعد رائد التعليم في دوعن ورائد تعليم الفتاة ومؤسس أول مدرسة في دوعن ١٩٣٠ ربما لم يعرف الكثيرون عنه شيئاً، وربما لاقى الجحود والنكران؛ لأنه بعد وفاته تم قطع راتبه



مكتب الأستاذ عثمان بالمدرسة

وهم صغار، ولا تزال إحدى بناته على قيد الحياة وله من الأحفاد ٢٥ من الذكور والإناث .

وعبدالرحيم بالعرج وصالح جمعان وعمر مخارش ويسلم بومندر وعمر محارق وأحمد عبيد محارق ومحمد عمر بن عيسى العمودي والدقيل عبداللّه بلشرف وحامد مقبيل وجمعان باعمر ومحمد عبيد محارق وأحمد سليمان بقشان والدكتور عمر سالم الحامدي والأستاذ سالم عمر الخضر الخنبشي وغيرهم من الأسماء لما يقارب من ٢٠٠ اسم تلقوا تعليمهم على يديه وبعضهم من مناطق خيلة بقشان وصبيخ وجريف والدوفة والعرسمة وبلاد الماء وقيدون إضافة إلى بعض من أبناء بضه منهم الشيخ عبدالرحمن المنصب العمودي وعلي بن زقر .

وفاته:

توفي الشيخ الأستاذ عثمان أبوبكر العمودي في مسقط رأسه بصبيخ في ١٤ / ١٢ / ١٤١١ هـ الموافق يونيو ١٩٩١ م عن عمر ناهز ٧٦ عاماً قضاها في حياة حافلة بالجد والسيرة الحسنة والتواضع، وخلف من الأبناء ثلاثة: ولداً وبنتين توفيت إحداهما في حياته بينما توفي له ثلاثة أولاد وبنت

وماذا بعد؟

وقال الأستاذ سالم أحمد الخنبشي محافظ حضرموت الأسبق في مهرجان رياضي أقيم في دوعن عام ٢٠٠٨ م حمل اسم الأستاذ عثمان باعمر العمودي: إنه يقترح أن يتم ترميم وصيانة المبنى القديم لمدرسة صبيخ الابتدائية وتحويلها إلى مركز تنمية وإطلاق اسم المرحوم عليها على منوال المدرسة الوسطى بالغيل، مع



منزل الأستاذ عثمان باعمر

التقاعدي مباشرة، ورحل دون أن يهتم به أحد في المديرية سوى المهرجان الذي نظمه له المهندس الشيخ عبداللّه أحمد بقشان في صيف ٢٠٠٨ م وفاء وعرفاناً للأستاذ عثمان باعمر بينما غابت السلطة المحلية ولم يحضر سوى محافظ حضرموت حينها سالم الخنبشي ولم يتم تقديم شيء أو عمل شيء من المقترحات التي تم تقديمها، ولم تكرم السلطة المحلية الأستاذ عثمان باعمر ولو بعد وفاته من باب

رد الجميل !!!

هل سنرى تكريماً يليق لما قدمه الأستاذ عثمان يرحمه الله؟؟ هل سيتم العمل بمقترح الأستاذ سالم الخنبشي بإنشاء جائزة علمية للطلاب المتفوقين من أبناء دوعن؟؟ وهل سيتم إطلاق اسمه على إحدى المدارس بالمديرية تخليداً لذكراه؟؟ أو بمضي الأيام والسنين سيتناسى الجيل الحالي ومن سيخلفهم سيرة رائد التعليم في دوعن !!



بعض من كتابات الأستاذ عثمان في سقف غرفته



أعلام من النساء الحضرميات

(١ - ٢)

(نماذج من الدور العلمي والعلمي التربوي للمرأة الحضرمية)

قال الشاعر الشهير أبو الطيب المتنبي :

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيت لاسم الشمس عيب ولا التدكير فخر للهِلال

عَرَفْنَا في العالم الإسلامي نساءً إذا ذكرت أسماءهنَّ اهتزت عروش الملوك ودور الحكم، هذا الأمر الذي يحدث من اضطراب وقلق وغيره ليس لقوتهنَّ أو لجبروتهنَّ بل لعلمهنَّ وحكمتهنَّ، حتى قيل "وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة".
عندما نطالع كتب التاريخ تصادفنا في كثير من طبيعتها ذكر لشاردة أو واردة من أخبار النساء، هذه الإشارات التي جعلت في ما بعد كتب منفصلة، جعلها بعضهم مخصصة في جانب أو مجال معين من أمثال هذا النوع كتاب لطيف للإمام جلال الدين السيوطي عن من عرف بالشعر من النساء وجمع فيه عدداً لا بأس به وهو مطبوع، ومنهم من جعل التأليف عن النساء عاملاً فمن أمثلة هذا النوع كتاب "معجم أعلام النساء اليمنيات" للأستاذ عبد الله بن محمد الحبشي، هذا الكتاب مطبوع لكن يكاد أن تكون نسخته معدومة، وأخيراً صدر كتاب لطيف جداً للأستاذ طارق بن محمد العمودي باسم "النساء الحضرميات إشرافات ونوادر من أخبارهن".

أولاً : نماذج من عالمات

نساء الحضارم

قال العلامة عبدالرحمن بن عبيد الله السقاف في كتابه "إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت" عند حديثه عن منطقة صبيخ الدوعنية ما نصه : "وكانت صبيخ مهد علم ومغرس معارف حتى لقد اجتمع فيها أربعون عذراء يحفظن إرشاد ابن المقرئ" (١) في الفقه الشافعي .

النموذج الأول : الشيخة العالمية سلطنة بنت علي الزبيدية :

يعود نسبها إلى آل الزبيدي وهم من قبيلة بني الحارث الكنديّة، وقيل من مدحج، وقيل من بني أمية (٢)، تُعدُّ هذه المرأة علامة فارقة في مسيرة التاريخ النسوي للنساء الحضرميات، فهي رابعة حضرموت كذا سماها بعضهم، قال

بالبنان، كلا الجانبين يعدان من الجوانب المهمة في البناء المجتمعي للكيان الحضرمي الذي عرف بالعلم والتدين، لكن تقف أمامنا عقبات في مثل هذه الأبحاث منها أن الحديث عن النساء يعدُّ في مجتمعنا الحضرمي والعربي من المحرمات والعيوب وإن كان ذلك الحديث مدحاً فيهن .
قسّمت هذه الوقفات إلى قسمين هامّين في المسيرة العلمية للمرأة الحضرمية، الوقفة الأولى عن النساء اللواتي عرفن بالعلم والتمكن منه، والوقفة الثانية عن الدور التربوي العلمي (الكواليسي) للمرأة الحضرمية - أي ما كان خلف الستار في إعداد الأبناء إلى أن يصبحوا أعلاماً بارزين - وخاتمة، ذكرت في ثناياها أسماء بعض النساء الحضرميات اللواتي لم أذكرهن في البحث مع أنهن في استحقاق لذلك، وجعلت قبل كل وقفة منهما فقرة كالتمهيد .



عادل حاج باعكيم

حاولت قبل فترة ليست بالقصيرة أن أجمع شيئاً ولو يسيراً عن بعض النماذج المشرفة للمرأة الحضرمية وجعلت هذه النماذج خاصة بجوانب معينة منها الدور العلمي الذاتي لها الخاص بشخصها كطلب العلم والتوسع فيه، والجانب الآخر هو الدور التي قامت به بعض النساء إلى أن أصبح أولادهن أعلاماً يشار إليهم



52

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

العلامة ابن عبيد الله السقاف: "وهي من أكابر الصالحين، لها عبادات وأحوال تشبه أحوال رابعة العدوية"، وقال أيضاً: "قال الشيخ محمد بن أبي بكر بأعباد في ترجمته للشيخ عبد الله بن محمد القديم: كان الشيخ عمر الزبيدي الحارثي من الصالحين، وكانت له أخت اسمها سلطنة، لها أحوال عظيمة، وقد تحكمت للشيخ محمد بن عبد الله القديم هي وإخوانها ورجعوا عن طريق العوام، وكان الشيخ عبد الرحمن السقاف وأولاده أبو بكر وعمر يزورونها، وقد بنت رباطاً بالعر" (٣).

وقال المؤرخ محمد بن أحمد الشاطري: "كانت الشيخة سلطنة - مع أنها آنسة متبيلة لم ترض بالزواج - تشارك في عقد الجلسات للمباحثات العلمية، والمذاكرات التصوفية مع أئمة القطر الحضرمي وعلمائه وشيوخه في عصرها، وفي مقدمتهم الشيخ عبد الرحمن السقاف العلوي، وبنوه السكران والمحضر والحسن وكانت تنظم القصائد والمقاطع، ومعظمها في التصوف، وفي المحبة الإلهية، وفي مدح السقاف المشار إليه، وتكاد تنهج نفس النهج الذي تسلكه رابعة في شعرها - على قلته - أنعم ديباجة وفصيح معرب، بينما لا تتقيد سلطنة بالقواعد النحوية ولا بالألفاظ الفصيحة، لأن أشعارها شعبية دارجة تعبر عما تجيش به العامة في تكلم الأوساط الصوفية" (٤). قالت في إحدى قصائدها تمتدح شيخها الشيخ عبد الرحمن السقاف - رحمه الله -:

جيوش المعرفة غنت وقالت
تناديهم هلموا لي ومالت
على العشاق يا أخواني تعالت
رقاها السيد الغوث الهمام
وأهل المعرفة تشهد بفضله
في حسن الظن في هذا ونجله
وحاشا شيخنا لا شيخ مثله

لأنه تاج سادات كرام (٥)
ومن بليغ كلامها رحمه الله قولها:
"كذب من ادعى محبة الحق جلّ وعلا، فإذا جنّ
الليل نام في فراش، والنوم ضد المقامات"،
توفيت هذه الشيخة الفاضلة في حوطتها
الموسومة بحوطة سلطنة شرقي مدينة
سيئون سنة ٨٤٣ هـ رحمه الله.

النموذج الثاني: الشـيخة العالمية الفقيهة خديجة بنت العلامة الفقيه عمر

بن أحمد بن محمد بن عثمان العمودي:

توفي والدها سنة ٩٤٧ هـ (٦)، عاشت هذه العالمية في منطقة قيدون بدوعن في القرن العاشر الهجري تحت رعاية أبيها العلامة الشـهير، ذكرت كتب التاريخ الحضرمي أنها كتبت بيدها كتاب النهاية للإمام الرملي وهو يقع في ثمانية أجزاء، وجاء في رواية أخرى أنها كتبت شرح الإمام الدميري على المنهاج وكلا الكتابين في الفقه الشافعي، لكن العجيب هي العبارة التي وجدت مكتوبة في آخر ذلك الكتاب وهي: "فليعذرني من وجد فيه سقطاً أو غلطاً، فأني نسخته وأنا مرضع" (٧)، هذه العبارة تدلنا على أن هذه المرأة شغفت بالعلم وشغلت به ولم تبعد عنه حتى وهي في أصعب وأتعّب حالاتها وهي حالة الرضاة والعناية بالمولود الجديد، فها حظ هذا المولود.

قال الأستاذ طارق العمودي: "اختلف الروايين في ذكر الكتاب الذي نسخته يدل على تعدد الواقعة في نفس الفترة، وهذا جهد كبير من تلك المرأة الفاضلة فرحات ربي على تلك العظام الطاهرة" (٨). توفيت هذه العالمية الفقيهة في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري رحمه الله.

النموذج الثالث: الشـيخة الشريفة الأديبة خديجة بنت الحبيب العلامة علي

بن محمد الحبشي:

ترجم لها السيد الفقيه أبو بكر بن أحمد بن حسين الحبشي في ثبته المسمى بـ "الدليل المشير إلى فلك أسانيد الاتصال بالحبيب البشير صلى الله عليه وسلم"، قال - بتصرف يسير -: "هي الجوهرة المضئية، ذات الأخلاق العلوية، والأحوال السلفية خديجة بنت شيخنا الحبيب علي بن الجد الحبيب محمد بن حسين بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله الحبشي إلى آخر النسب المشهور. ولدت شيختنا المترجمة بسيئون حوالي سنة (١٢٩٨ هـ) (٩)، ونشأت في جبر والدها الإمام، وتأديت به واقتدت به في جميع أحواله، ولا حظها الملاحظة

التامة، وذكرها في بعض قصائده مثنياً عليها، ومحرضاً لها على انتهاج سيرة سلفها، واتباع السبيل التي سلكها أهلها، فنشأت على حالة عظيمة من التقوى والصلاح، حتى اشتهرت في تلك الديار وذاع صيت فضلها إلى ما وراء البحار، فصارت لها المنزلة العظيمة في النفوس، والمكانة الجلية في القلوب، وأصبحت ملاذاً لكل طالب، ومقصداً لكل زائر، وقد تزوجت السيد عبد الله بن حسين علوي السقاف، ثم مات عنها، وخلف منها بنات نشأت في جبرها وتربيت تحت رعايتها وتأديت بها. وقد أخذت عن والدها، وتوفيت سنة (١٣٥٣ هـ).

قال الأستاذ عبد الله صالح حداد: "فقد نشأت في بيت علم وقد حظيت برعايته (أي أبيها) وقرأت عليه العديد من الأنشطة الثقافية واكتسبت معارف جمّة، انعكست على نشاطها الأدبي، فقد نظمت الشعر العامي وفاقت أقرانها من الرجال والنساء، وكانت قصائدها أو مجملها على أصوات الألحان الحضرمية الشائعة والرقصات الشعبية التي تمارس في محيطها، وكان شعرها مزيجاً من الحب الحقيقي والمجازي، سلكت به سلوك أهل التصوف في عشقها للعلم وحبها للغناء. لها ديوان شعر منضد، نأمل أن يصدر محققاً ومطبوعاً" (١٠).

هذا الديوان المشار إليه قد رأيت في سيئون ببيت الشاعرة بيت مقام الحبيب العلامة علي بن محمد الحبشي، مسمى بـ: "ديوان الشريفة الحباة خديجة بنت علي بن محمد الحبشي"، وهو مصفوف بالكمبيوتر في ٢٢٧ صفحة ويضم ١٣٦ قصيدة غنائية ومسرحية كانت تغنى وترددها النساء في مجالسهن بألحان الدان المتنوعة. هذا الديوان جمعه الأستاذ القدير علي بن محمد بن عبد الرحمن السقاف عام ١٩٨٧م وصفّه عام ٢٠٠٠م، قالت الشريفة الأديبة خديجة في بعض ثنايا هذا الديوان:

قال الذي بات ساهر يا عرب طول الليالي
أشياء في القلب مستورة
لو حد درى ما بقلبي .. يا محبيني رثالي
با شكي إلى الواحد المعبود



53

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

لها كرمٌ كويل الغيث لَمَّا
تحدَّر فوق آكام الرمال
وأخلاق تبارك من براها
وجملها بها أسمى جمال
تلاقي البائسين بكل بشر
وتكرم جاههم قبل السؤال
فلو كن النساء كمن فقدنا
لفضلت النساء على الرجال
فوا أسفي على تلك المزايا
الكريمة والمقامات العوالي (١٤)

النموذج الرابع: الشريفة سيّدة بنت العلامة

عبدالله بن حسين بن طاهر العلوي:

ولدت بقرية المسيلة بضاحية تريم
ونشأت في بيئة علمية صالحة، كان أبوها
العلامة عبدالله حريصاً على تربيته
وتعليمها منذ الصغر، وكان عمها العلامة
طاهر يعتني بها ويلاحظها، فهي من جملة
شيوخ العلامة علوي بن عبدالرحمن المشهور،
قال صاحب لوامع النور: "ومن جملة الذين
انتفع بهم سيدي الجد علوي واستجازهم
وارتبط بسلسلة مشايخهم السيدة التقية
النقية الصافية الصوفية الشريفة سيّدة
بنت الحبيب عبدالله بن حسين بن طاهر"،
وقال أيضاً: "ترجم لها صاحب الدليل
المشير ترجمة موجزة وذكر أن وفاتها
كانت بالمسيلة سنة ١٣٤٦ هـ" (١٥).

وذكرها أيضاً المحدث الشيخ أبو الفيض
أحمد بن محمد الصديق الغماري في
معجم شيوخه المسمى بـ "المعجم الوجيز
للمستجيز"، ووصفها بعلو السند، فقال: "تروي
عن والدها عبدالله بن الحسين بن
طاهر بأسانيد المذكرة في "عقد
اليواقيت" فإنه من شيوخ عيّدروس بن
عمر الحبشي، وهذا سند في غاية العلو،
والحمد لله" (١٦).

النموذج الخامس: الشريفة

فاطمة بنت أبي بكر بن عبدالله بن عمر

بن يحيى - الشهير بصاحب البقرة -:

ذكرها أيضاً المحدث الشيخ أبو الفيض
أحمد الصديق الغماري في معجم شيوخه
المسمى بـ "المعجم الوجيز للمستجيز"،
وقال عنها: "تروي عن السيّد عبدالله بن
حسين بن طاهر شيخ صاحب "عقد

سلمت عليها رحبت بي بخطاب مؤثر كانت
تلقيه وكأنه ينساب من حنفية وفي الوقت
نفسه ظلت تراقبني وتمسكني بإحدى
يديها وتشير بالأخرى لجذب انتباه قطيعها
وكانت تنقط جملها بأصابعها القصيرة
والجميلة المنقوشة بالحناء ولم تنس أن
تضمن حديثها بعض الآيات القرآنية
وبعض الأحاديث النبوية، واقتبست كذلك
أقوال الشعراء أذ أنها نفسها كانت شاعرة
وشاركت في مساجلات شعرية شعبية
وتحصلت في إحدى المرات على طقم
أواني للشاي كجائزة وأخبرتني أن النساء
يجتمعن عندها يومياً ليستمعن إلى القرآن
أو صحيح البخاري أو صحيح مسلم، أو أحد
كتابين تقليديين نسيت اسمهما وقد
صادف أنني أعرف شيئاً عن صحيح البخاري
وعندما استطلعت أن استذكر نصف جملة
من أقواله شرعت المرأة دون أن تترد ثانية
في الحديث عن الفلسفة والقيمة العليا
للدين وسألته لماذا لا تسكني هنا؟
سيكون باستطاعتنا أن نجتمع وتناقش
كل يوم. إلى أن تقول: "وقد غادرت
السيدة التي أخبرتني أن هناك سيدات
متعلمات أخريات في سـيـنـون وتريم
مدينتي الدين، والعلم لكنهن مترمّات
جداً: أما هي فلم تكن كذلك فذراعها
كانتا مفتوحتين إلى المستمعة المسيحية،
وكانت تكن لي مودة مخلص (١٣).

توفيت الأديبة الشريفة خديجة في ٦
ربيع الثاني سنة ١٣٥٣ هـ، فرثها
بعضهم، منهم السيّد الأديب محمد بن
عبد الرحمن السقاف بمرثية طويلة نورد
منها هنا بعض الأبيات، قال رحمه الله:

لعمرك لست معدوم المثل
بما قد حلّ بي في كل حال
بفقد فقيدة الإسلام من قد

حبها الله مرتبة الكمال
وحازت كل فخر لا يوازيها
تقاصر عنه أرباب المعالي
وأصبح ذكرها في كل قطر
كمثل الشمس شاع وكالهلال
فحدث عن شمائلها وأيقن
بأن صفاتها فوق المقال

حيّاً زمن يومنا حب الغناء لي قلب سالي
لكن شوكتي مكسورة
عذبنا الشوق شو كل من نظر جسمي رثالي
كلّين مطلق ونا مقيود

وقالت أيضاً:

كل من له قلب بفرع
في المحبة قال با اسمع
لي دخل سوق القتال

قال غارة يا رجالي
عاد له داعي مجيب
من سمع مخلوق يسجع
ما قدر في الدرب يجزع
شوه يا حادي الجمال

كل من له قلب سالي
صبّت دموعه صبيب (١١)

وقال الأستاذ طارق العمودي: "ولعلها
التي عنتها فرياً ستارك لدى رحلتها إلى
سينون"، وقال أيضاً: "ويعتقد الأستاذ
بارجاء أن المقصودة بحديث ستارك هي
"الجبابة" الجدة أو الشريفة خديجة بنت
علي بن محمد الحبشي العلم الشهير" (١٢).

قالت السيّدة فرياً ستارك التي زارت
سينون عام ١٩٣٥ م: "وصلتني رسالة من
أرملة متعلمة من سينون تطلب مني فيها
أن أزورها وقد قادتني إليها خادمة تجرجر
خلفها ذيل ثوبها الأخضر وسط النخيل ثم
صعدنا سلماً مطلياً بالنورة الجير الأبيض
قادنا إلى غرفة واسعة ذات أعمدة،
ومفروشة بسجاد، وتحلقت نحو عشرين
امراًة يلبسن فساتين قطنية مزهرة
وأثقلت أيديهن بالأساور العنبرية حول
زعيمتهن الروحية لقد ذكرني
بمتحذلقات مولير "أما الأرملة نفسها فقد
كانت شابة ومستديرة وكانت عيناها
تلمعان وقد تددت ضفירתان على جانبي
وجهها وعندما رأته أدخلت شـرعت في
القراءة في نسخة من صحيح البخاري كان
موضوعاً فوق خشبة صغيرة أمامها وبينما
انهمكت هي في القراءة بصوت له رنين
غير معبر كانت النساء حولها يتململن
بحرارة، وقد انقسمت بين الرغبة في
الاستماع للقارئة كما هي العادة، والرغبة
الجامحة في رؤيتها. ثم تقدّمت وسط
النساء واقتربت من ربّة البيت وبعد أن



54

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

اليواقيت الجوهريّة"، وهو من عوالي الأسانيد أيضاً" (١٧).

النموذج السادس: الشّيخة الصالحة البرّة التقية الشريفة أمانة بنت الحبيب العلامة محمد بن حسين بن عبد الله بن شيخ الحبشي؛

ترجم لها السيّد الفقيه أبو بكر بن أحمد بن حسين الحبشي في ثبته المسمّى بـ: "الدليل المشير إلى فلك أسانيد الاتصال بالحبيب البشير صلى الله عليه وسلم"، قال - بتصرف يسير - متحدّثاً عنها: "ولدت بسيوّن بعد عام (١٢٦٠ هـ) بسنتين أو ثلاث، وقد توفيت والدتها وهي صغيرة وتربّت على يد أم أخيها الشريفة علوية بنت الحسين الجفري، وتزوجت من السيّد علوي بن أحمد بن عبد الرحمن السقاف بمكة وخلفت منه أولاداً منها والدتي السيّدة نور، وما زالت بمكة، ثم لحقت بلحج قرب عدن حينما هرب بها زوجها من شريف مكة عون، ثم ما لبثت أن عادت معه إلى مكة، وقد توفيت ابنتها السيدة الوالدة نور وهي بسيوّن سنة ١٣٢٥ هـ، وكانت شديدة التعلّق بها وما وسعها إلا أن سلّمت أمرها لمن له الأمر وقالت: "إنا لله وإنا إليه راجعون". وقد توفي زوجها بمكة سنة ١٣٣٥ هـ، وما زالت بعد وفاته مقيمة بمكة في صلاح وتقوى وعبادة ودعوة إلى الله تعالى، حيث يؤم محلّها الكثير من النساء، حتى كانت سنة ١٣٤٢ هـ فقامت بأداء الحج مع ابنها السيد الخال أحمد، ونزلت من منى وهي مريضة، حتى إنها لم تطف ولم تسع، فوافاهما الأجل وانتقلت من دار الفناء إلى دار البقاء في ليلة السبت السابع عشر من ذي الحجة الحرام سنة ١٣٤٢ هـ، وشيعت جنازتها، وصلي عليها بالمسجد الحرام، ودفنت بالمعلاة، بحوطة السادة العلويين. وكان أخذ سيدتي الجدة أمانة عن أبيها الإمام مفتي الشافعية بمكة، وعن زوجها الإمام الحبيب الجد علوي بن أحمد السقاف شيخ السادة العلويين بأم القرى. وقد نشأت في حجرها، وتربيت في دارها مدة من الزمان،

وكانت تحبني كثيراً، وتلاحظني ملاحظة عظيمة، وتلهج دوماً بالدعاء لي، وقد حفظت منها أوراداً، وسمعت منها كثيراً من ديوان الحبيب عبد الله الحداد، وديوان الحبيب عبد الله بن حسين بن طاهر، وكانت هي شديدة التعلّق بالديوانين المذكورين، وفي بعض الأوقات تأمرني أن أقرأ لها ما تريده من الديوانين المذكورين، واستفدت كثيراً منها، ومن مجالسها الشذية وأخلاقها المرضية" (١٨) رحمها الله تعالى.

النموذج السابع: الشّيخة الشريفة خديجة بنت محمد بن أحمد المحضار؛

ذكرها المحدث أبو الفيض أحمد بن محمد الصديق الغماري المغربي في معجم شيوخه المسمّى بـ "المعجم الوجيز للمستجيز" فقال: "تروي عن زوجها العارف السيّد أحمد بن حسن العطاس، وهو يروي عن عيدروس بن عمر الحبشي، وأحمد بن عبد الله بن عيدروس البار الراوي عن عبد الرحمن الكزبري، وعن غيرهما" (١٩)، هذا السند يُعتبر من الأسانيد العالية، والعلو مطلوب عند أهل الحديث والأثر رحمهم الله.

النموذج الثامن: الشريفة زهراء بنت عبد الله بن أبي بكر المشهور؛

ترجم لها السيّد أبو بكر العدني المشهور في كتابه اللوامع فقال: "ومن أخصّ المنتفعين به والأخذين عنها والمتأدبين بأدبه، زوجته الصالحة العفيفة الشريفة زهراء بنت عمّه عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن علوي بن محمد المشهور. ولدت بترميم ونشأت في بيت العلم والتقوى والطهر والنقاء وقرأت القرآن ومتون الفقه الشافعي وقرأت كتباً عديدة في السيرة والتصوّف والعربية، وكان جلّ انتفاعها بأبيها وجدها، ونالت من عناية والدتها ما فتح لها باب الاستئناس إلى الطاعة والعبادة والاطمئنان بها".

أنجبت هذه الفاضلة للعلامة علوي بن عبد الرحمن المشهور أربعة من الذكور وجميعهم من الأفاضل، أمّا من البنات فأنجبت له بهيّة (٢٠) وعائشة وشيخة

وكلهن حظين بنصيب وافر من العلم. توفيت الشريفة زهراء بعد وفاة زوجها العلامة علوي المتوفى سنة ١٣٤١ هـ بعدة سنوات رحمها الله تعالى (٢١).

الهوامش:

١. ينظر ص ٣٧٣.
٢. ينظر أدوار التاريخ الحضرمي للشاطري ج ٢ ص ٣٠٨، وإدام القوت ص ٧٦٠.
٣. ينظر إدام القوت ص ٧٥٧.
٤. ينظر أدوار التاريخ الحضرمي ج ٢ ص ٣٠٩.
٥. ينظر المنهل العجيب الصاف في فضيلة وكيفية حضرة الشيخ عبد الرحمن السقاف للمشهور ص ٢١.
٦. ينظر ترجمته في الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي ص ١٥١.
٧. ينظر الشامل للعلامة علوي بن طاهر الحداد، وتاج الأعراس في مناقب الحبيب صالح بن عبد الله العطاس للسيّد علي بن حسين العطاس ج ٢ ص ٥٦٣.
٨. ينظر النساء الحضرميات ص ٥٤.
٩. وقال الأستاذ الباحث عبد الله صالح حدّاد في معجم شعراء العاميّة الحضارم: "ولدت بمدينة سيوّن عام ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٦ م".
١٠. ينظر معجم شعراء العاميّة الحضارم ص ٥٧.
١١. ينظر الديوان ص ٨ و ٦١.
١٢. ينظر النساء الحضرميات إشراقات ص ١٣ - ٥١.
١٣. ينظر المرجع السابق ص ١١.
١٤. ينظر ديوان الشريفة الحبابة خديجة بنت علي بن محمد الحبشي ص ٦.
١٥. ينظر لوامع النور للسيّد أبو بكر المشهور ج ١ ص ٢٧٠.
١٦. ينظر المعجم الوجيز للمستجيز ص ٣٢.
١٧. ينظر المصدر السابق ص ٣٢.
١٨. ينظر النساء الحضرميات إشراقات ص ٥١.
١٩. ينظر المعجم الوجيز ص ٣٢.
٢٠. تزوجت السيّد أحمد بن حسن بلقيه وأنجبت له بنتاً اسمها شبيخة يطلق عليه أسم شبيخة فقيهة، لعل هذا لتمكنها من علم الفقه، والله أعلم. ينظر لوامع النوار ج ٢ ص ٢١٣ - ٢١٧ - ٢٢٠.
٢١. ينظر لوامع النوار ج ٢ ص ٢١٢.



55

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

الأستاذ التربوي عبداللاه هاشم

في حديث صريح لـ "حضر مؤثر الثقافيت" :

تعلمت من جدي لأمي الشيخ عبدالله الناهبي ووالدي احترام الوقت والانضباط والمثابرة في العمل .. وأناشد الجهات ذات العلاقة بضرورة تحسين وضع المعلم المعيشي

حاولت بعد تخرجي من جامعة بغداد العمل في العاصمة عدن ولكن !!



الحديث مع الأستاذ التربوي القدير عبداللاه محمد هاشم السقاف حديث ذو شجون ، كيف لا وهو الهامة التربوية السامقة الذي تخرج على يديه الكثير من الكفاءات المقتدرة التي تتبوأ اليوم مناصب عديدة في أعلى السلطات الحكومية والأهلية .. وهو الذي نبت من شجرة مباركة اتصفت بحبها للكثير من الصفات منها : العلم والمثابرة والجد في العمل والأخلاق والسلوك القويم .. هذه الشجرة تمثلت في جده لأمه الشيخ الجليل عبدالله بن أحمد الناهبي ووالده السيد محمد هاشم السقاف ووالدته السيدة فاطمة بنت عبدالله الناهبي المشهورة بـ (الست عبودة) رحمهم الله جميعاً رحمة الأبرار .
والتربوي عبداللاه هاشم لا زال اليوم يتمتع بحيوية الشباب فتراه شعلة من النشاط والحيوية رغم أنه بلغ من العمر عتياً .

دعونا - أعزائي القراء - أن نبحر في هذا اللقاء مع أستاذنا الفاضل التربوي عبداللاه محمد هاشم الذي سأله أولاً عن أبرز محطات حياته العلمية والعملية فقال :

لقاء : عبدالعزيز محمد بامجسون

ترتيب وضعي في ثانوية المكلا ولكن ليوم واحد فقط ، ليتم نقلي إلى إعدادية تريم مع بعض الزملاء ، بعدها تدرجت بالعمل التعليمي ليتم تعييني في العام الدراسي ١٩٧٢ / ١٩٧٣م مسؤولاً بثانوية سيئون لمدة عامين ، ثم بعدها بسنوات إلى بلقيس للبنات بالمكلا ، ثم لثانوية المكلا لعدة سنوات . وخلال هذه المدة في سلك التعليم كسبت خلالها المئات من الطلاب المتميزين والمتفوقين والمبدعين ممن أعتز بهم اليوم وهم يتبشرون مراكز علمية واقتصادية وسياسية في الجهاز الحكومي والمؤسسات الأخرى .

فقد ابتعثت إليها في العام ١٩٦٣م إلى المملكة الليبية المتحدة بثانوية بنغازي المركزية للبنين في عهد الملك إدريس محمد السنوسي ، وبعد إكمال الثانوية العامة التحقت مباشرة للدراسة الجامعية بجامعة بغداد بالعراق ، فتخرجت في العام ١٩٧١م ، وبعد تخرجي من جامعة بغداد مباشرة حاولت العمل حسب تخصصي في العاصمة عدن (آنذاك) إلا أن العوائق السياسية (وقتئذ) حالت دون تقلدي الوظيفة العملية التخصصية ، فلجأت مضطراً إلى المكلا والتحقت بسلك التربية والتعليم وذلك في ١٩٧١ / ١٠ / ٢٣م مدرساً ، وتم

- بداية حياتي العلمية هي ربما لا تختلف عن أغلب أقراني أبناء مدينة المكلا ، حيث درست الابتدائية في المدرسة الغربية (مستشفى مدينة المكلا للأومة والطفولة حالياً) وكان مديرها في ذلك الوقت الأستاذ القدير محمد سعيد بن جوهر ، أما المرحلة المتوسطة فكانت سنواتها الثلاث في عدة مدارس حيث درست أول سنة متوسطة في المدرسة الوسطى بغيل باوزير ، والسنة الثانية في مدرسة النقع بحافة باسويد بديس المكلا ، والسنة الثالثة في المدرسة الوسطى بالمكلا (مدرسة سمية حالياً) ، أما مرحلة الثانوية العامة



56

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

يعد جدي لأمي الشيخ عبدالله أحمد الناجبي رائداً تربوياً وتعليمياً إضافة إلى والدي محمد هاشم شيخان السقاف ووالدتي الفاضلة فاطمة بنت عبدالله أحمد الناجبي (رحمهم الله) .

قدموه لنا من إعداده وأساليب عمل متنوعة
ومحفزة وإدارية .. هؤلاء أبرز اساتذتي
الذين أعتز بهم جميعاً أيما اعتزاز .

• وماذا عن أبرز تلاميذك النجباء ؟

- الحديث عن التلاميذ فإني أقولها
بصراحة أنه خلال مدة ٣٥ عاماً في مجال
التربية والتعليم كل طالب أقابله أبتهج
ويشرح ويثقل صدري للقاءه وأعده من
أبرز الطلاب لأنه حقيقة يكن لي المحبة
وأنا أبادلهم الشعور نفسه ، وكم افتخر
اليوم أن أرى معظم تلاميذي قسامات
علمية رفيعة وعلى مستوى عال سواء
ممن هم خريجو الطب أو الهندسة أو
الإدارات المالية والإدارية ، بل البعض
منهم قادات سياسية ، وكم زادت بهجتي
في السنوات الأخيرة بإنشاء ملتقيات
تخص هؤلاء طلاب الأمس قادات اليوم ،
والأجمل أنهم يذكرون ويدعون
معلميهم عند عقد اللقاءات بهم
واعذرني أخي من عدم ذكر اسم بعينه
فكلهم عزيز وغال علي من أديانهم إلى
أقصاهم .

وكننت أطمع أن التقى بثلاثة كانوا من
أوائل الشهادة الثانوية العامة عندما
كنت مديراً لثانويتي المكلا وسيئون
للبنين وهم : محمد حسين عبدالله
الكاف ، ومحمد عبدالحق عبدالمانع ،
وعمر عوض الكثيري هؤلاء غابوا عني
ولم أراهم بعد تخرجهم ، حيث أكن لهم
كل حب كزملانهم الذين أتابع
نجاحاتهم الدنيوية .

• هل نقول بعد هذه المدة الطويلة التي
قضيتها في خدمة التربية والتعليم أنك قد
لقيت التكريم الذي يليق بمقامك ، سواء من
قبل بعض المؤسسات الحكومية أو الأهلية ؟

به من هم تحت اختصاصي ، وكثير من
الأمر .

• من هم أبرز أساتذتك ؟

- هم أكثر من أعتز بهم كأساتذة لي ،
فمنهم من قضى نحبه " وندعو الله لهم



الشيخ
عبدالله بن أحمد الناجبي

بالرحمة والمغفرة " ، ومنهم من ينتظر "
وندعو الله لهم بطول العمر " ، ولعل
أبرزهم الأساتذة محمد سعيد بن جوهر ،
علي عبد الشيخ جاد الله ، عمر مبروك
حسنون ، أحمد عوض القحوم ، المرحوم
نصر مرسل ، أحمد سالمين عليو ، علي
بن عويش ، المرحوم عمر بن سهيلان ،
المرحوم صالح عبدالله اليماني ، كرامة
بامؤمن ، الدكتور محمد عبدالله بن
ثعلب ، المرحوم فرج أبوبكر باعامر ...
إضافة إلى ثلة من الأساتذة السودانيين
الذين مازالت ذكراهم تعايشنا لما

وفي الأول من يناير ١٩٨١م كلفني
الأستاذ حسن صالح باعوم المدير العام
لمكتب وزارة التربية والتعليم
بالمحافظة حينها بإدارة المعهد
التجاري بفوه الذي افتتح في هذا العام ،
ومكثت فيه أربع سنوات في إدارته ، ليتم
نقلي للعمل بفرع الوزارة حيث تحملت
مسؤولية إدارة التعليم الموحد حينها ،
ثم رئيس شعبة التعليم العام ونائباً
للمدير العام ، وقبلها عينت مديراً لإدارة
التربية والتعليم بمديرية مدينة المكلا
خلال الفترة من ١٩٨٤م إلى العام
١٩٨٩م ، ثم عميداً للمعهد العالي
لإعداد وتدريب وتأهيل المعلمين خلال
الفترة من ١٩٩٠م إلى العام ٢٠٠١م ،
والحمد لله في كل محطة تربوية كسبت
فيها كثيراً من الود والإخاء والأحباب
ولعلها كانت من أغنى تجاربي في الحياة .

• لاشك انكم تربيتهم في بيئة تعليمية واسرة متعلمة كانت لها دور مشهود في تربية الأجيال...

هل لكم أن تحدثونا عن دور هذه الأسرة ؟

- صحيح أنني نشأت في بيئة مهتمة
بالتعليم ومعني معظم أفراد الأسرة
المكونة من ١٣ فرداً عملت بالتربية
والتعليم ولم يخرج منها سوى ثلاثة ذكور .
وحقيقة فإن جدي لأمي الشيخ عبدالله
أحمد الناجبي يعد رائداً تربوياً وتعليمياً
إضافة إلى والدي محمد هاشم شيخان
السقاف ووالدتي الفاضلة فاطمة بنت
عبدالله أحمد الناجبي (رحمهم الله) أثروا
مباشرة بدون شك على سلوكي العلمي
والعملي وكذا أفراد الأسرة ، وكانت
بصماتهم جليلة في تربيتي وصقلي
وسلوكي ومسلكي ، كما تعلمت منهم
احترام الوقت والانضباط والمثابرة في
العمل والإشراف الشخصي على ما يقوم

أطمع أن التقى بثلاثة ممن كانوا من أوائل الشهادة
الثانوية العامة عندما كنت مديراً لثانويتي المكلا
وسيئون للبنين وهم : محمد حسين عبدالله الكاف ،
ومحمد عبدالحق عبدالمانع ، وعمر عوض الكثيري .



57

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

حيتر ، وعمر باحشوان... وغيرهم رغم تقدم البعض في السن غير أنهم حريصون على حضور هذا الملتقى نصف الشهري ، غير أن البعض من مسؤولينا اليوم تنكر لدورهم ولم يقدر أحد مكانتهم، وكان من المفترض على التربية - الجهة المعنية - أن تستأنس بأرائهم وأفكارهم ، وإذا ما دعوا لحضور أي ملتقى تربوي يكفي ذلك الملتقى انبهاراً بهم وثناءً عليهم. أضيف إلى ذلك أنه تعقد جلسات أخرى مع زملاء تربويين آخرين على مقاعد المقاهي حيث لا تخلو هذه الجلسات من النقاشات التربوية والتعليمية ، لهذا كلنا نحمل هم نفسه السابقون منا واللاحقون .

• كيف تصفون الفرق في أداء معلم اليوم ومعلم أيام زمان ؟

- أولاً لو نظرنا لمعلم اليوم نقول إنه يفتقد لدوره الريادي نظراً لافتقاده التربية لأهدافها واستراتيجيتها التي لم تعد سوى حبر على ورق ، أضيف إلى ذلك مكانته التي اهترت ، إذاً كيف نطالبه بأداء رسالة لا أهداف لها ولا خطاً ، ووضع الاقتصاد والمعيشي باهت وتراجع تحت خط الفقر وهو يعيل أسرة كبيرة وهو الغالب فيهم ، ألا ترى أن أغلب المعلمين اليوم دفعتهم الفاقة

بالمشاركة في تأهيل المعلمين بدورات تعقد سنوياً بدورات اليونسكو ، وبحكم عملي بالمعهد العالي لإعداد وتدريب وتأهيل المعلمين تناولت جزءاً من ذلك العمل مع زملائي المعلمين .

• انتم اليوم ضمن فئة شريحة المتقاعدين ، ومعكم كوكبة لامعة من أبرز رواد التربية والتعليم .. هل لكم لقاءات تجمع هذا الجيل الذي أفتى عمره في خدمة التربية والتعليم ؟

- لعلم تعلمون أن هناك مجموعة من الشخصيات الكفوة سبقتنا للتقاعد وأغلبهم من معلمينا الأجلاء ، ثم التحقنا

أفضل تكريم لي عندما يتم تكريم أحد من أبنائي الطلاب وعندما أكون حاضراً تكريمه وبدون شعور أظير فرحاً ، وأعدّه أعلى تكريم.

بهم ومعهم زملاء آخرون وهذه سنة الحياة ، لذا نقول بأنه جيلنا تربطه علاقات وروابط حميمة ومتينة بالجيل السابق ، حيث نلتقي سويًا في لقاء خاص نصف شهري في منزل عزيز علينا وهو الأستاذ أحمد سعيد باحبارة ونناقش سويًا أهم التربوي والتعليمي وهو امتداد للملتقى الأسبوعي الذي كان

- إذا قلت لك أفضل تكريم لي عندما يتم تكريم أحد من أبنائي الطلاب وعندما أكون حاضراً تكريمه وبدون شعور أظير فرحاً ، فهذا أعده أعلى تكريم .

كما أعزّز بتكريم زملاء المهنة وإدارات مدارس مدينة المكلا عند نقلي من العمل منها كمدير إدارة التربية فيها ، واحتفاء زملائي المعلمين بثانوية المكلا للبنين بتوذيي عند نقلي للمعهد التجاري ، وتكريمي من قبل أبنائي طلاب ثانوية سيؤون ، وطلاب ثانوية المكلا ، وطلاب الدفعة الأولى من المعهد

التجاري بفوة ، إضافة إلى ذلك تكريمي من قبل إدارة المعهد التجاري ، ومؤسسة الصندوق الخيري للطلاب المتفوقين بدرع المؤسسة . كل هذه التكريمات والاحتفاءات اعتبرها قلاذات على صدري وأعزّز بها ، ولن أنساها ما حييت .

• ماذا عن مشاركتكم في دورات تدريبية أو

تأهيلية سواء داخل الوطن أو خارجه ؟
- بخصوص الدورات التدريبية أو التأهيلية التي شاركت فيها فأوجزها بالآتي:

دورتان بجمهورية ألمانيا إحداهما لمدة خمسين يوماً ، والأخرى كانت مكثفة لمدة ستة أشهر متعلقة بالإدارة والتخطيط والتنظيم.

عدة دورات في مجال الإدارات المدرسية سنوياً خلال الإجازات الصيفية بالمعهد العالي بعدن ، والتي لا تقل مدة الدورة عن ثلاثة أسابيع ولسنوات متوالية وإجبارية .

عدة دورات تربوية وتعليمية للمعلمين بمدينة المكلا .

وخلال فترة عملي التعليمي قُسمت

تلقيت دورات في التدريب والتأهيل في ألمانيا وفي المعهد العالي بعدن وعدة دورات تربوية وتعليمية بالمكلا، كما قمت بالمشاركة في تأهيل المعلمين في دورات اليونسكو السنوية.

إلى البحث عن مصادر أخرى لتحسين وضعهم ، لهذا ربما افتقد المعلم السيطرة على حياته المعيشية فهل نعتقد أنه سيتوَعَب كافة متطلبات الحياة العملية الذي سيؤديها بإتقان .

دعني أعطك مثالين بسيطين للمفارقة : خريج جامعي أول ما يتم توظيفه في سلك التربية يتحصل على راتب شهري

يعقد في منزل المرحوم الأستاذ صالح عبد الله اليماني ثم تحول إلى الجمعية المساندة للمؤسسات التربوية والصحية وأبرز رواد هذا الملتقى الأساتذة : عمر محمد بن سهيلان (رحمه الله) ، أحمد عوض القحوم ، الدكتور محمد بن ثعلب ، علي محفوظ حورة ، أبوبكر سعيد الحضرمي ، عوض



58

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

مع علاواته لا يتجاوز الـ (٤٥٠٠٠) ريالاً ،
بينما مراسل لا يحمل أي مؤهل دراسي
في أحد البنوك الحكومية يتقاضى راتباً
لا يقل عن (٥٠٠٠٠) ريالاً إذا ما قيّمة
التعليم .. وماذا عسااني أن أنتظر من
معلم لكي يقدم رسالته التربوية
والتعليمية ، وهو بهذا المعاش المتدني
. وأنتم احسبوها كيفما شئتم .

ولهذا أناشد الجهات ذات العلاقة
ممثلة في حكومتنا الرشيدة بضرورة
تحسين وضع المعلم المعيشي
لكي يقدم رسالته التربوية
والتعليمية على أكمل وجه
كما كان في سابق الأزمان .
أما معلم أيام زمان فأعتقد
أن حاله في أحسن الأحوال
وأفضلها من خلال أداء الرسالة
العلمية بإتقان ، الاحترام والود القائم
بين المعلم والتلاميذ من جهة والمعلم
والأسرة وأولياء أمور الطلاب من جهة
أخرى ووضعه المعيشي لا بأس به .

• كيف تقيمون مستوى التعليم سابقاً وحالياً ؟
- مستوى التعليم في السابق كان بخير ،
نظراً لأن المعلم في السابق كان مخلصاً
في أداء رسالته بأخلاص ، المنهج كان
مبسّطاً لدى الطلاب ، أما مستوى التعليم
في الوقت الحالي فقد تراجع بعض

لذا نقول بصراحة إن التربية منهكة
من الداخل والأحزاب ساعدت على
ضعفها وترديها .

وما وصلنا إليه من هذه الحالة هو نتاج
لتردي التعليم اليوم وضعفه .. وهو تأثير
سلبي على بقية المعلمين في أداء
رسالتهم العلمية بكل إتقان .

• هل لكم هوايات أستاذ عبد اللاد ؟

أحب الاصطياد

والمشي والجلوس على الشاطئ،

والالتقاء بالآخرين، واكتساب الأصدقاء

والقراءة، والرياضة.

- الهوايات التي أميل إليها هي
الاصطياد ، وحب المشي ، والجلوس على
السواحل ، حب اللقاءات مع الآخرين ،
اكتساب الأصدقاء ، القراءة ، والرياضة .

• على ذكر الرياضة ، نخوض معكم بسؤال .

حيث تعدون من أبرز لاعبي كرة السلة
بالمحافظة . هل تحدثونا عن نشاطكم

الرياضي في هذه اللعبة ؟

- نعم زاولت لعبة كرة السلة بإتقان

حضر موت ساحلها وواديها، وبالفعل
نجحنا في عملنا وبشهادة الجميع حتى
جعلنا ميادين كرة السلة تعج بالجمهور
المتحمسة لفرقها وأنديتها .

• وهل لكم أنشطة أخرى ؟

- لا أخفيكم سراً أنه كان لي اهتمام
بالجانب التراثي والفلكلور الشعبي ،
وكنت في يوم ما سكرتيراً للعلاقات
الداخلية باتحاد الفنانين اليمنيين فرع
حضر موت في منتصف السبعينيات من
القرن الماضي .

• وماذا عن نشاطاتكم الخيرية

والاجتماعية ؟

- الحمد لله على كل حال ،
فنحن نحب المساهمة مع
الآخرين في إدخال الفرح والسرور
على الأسر المحتاجة والفقيرة والطلاب
المتميزين والمتفوقين عبر الجمعيات
والمؤسسات الخيرية وأهل الخير ، لذا
أشعر بانتفاء روحي ووجداني مع
مؤسسة الصندوق للطلاب المتفوقين
لأنني أشعر أن دورها مجرد عن دوافع
سياسية بالقدر الذي يهمها إبراز العلماء
عبر الدفع بعجلة المتعلمين ومساعدتهم
رغم أن الشعور بقيمة بعض المؤسسات
ما زال قاصراً رغم حاجة المجتمع لهذه
المؤسسات ودون ولاءات سياسية ،
فالوطن أحوج للمخرجات .

• كلمة أخيرة تود قولها في ختام هذا اللقاء ؟

- إن كانت لي كلمة أخيرة فهي لمؤسسة
الصندوق الخيري أن تستمر في عملها
والتركيز في النوعية ، وتخطي
المنغصات ، فالخير معقود في نواصي
الخير ، وبارك الله في القائمين عليها .

وثانياً : كنت أود أن أكتب كل أسماء
أبنائي الطلاب الذين أحببتهم
ويقدرونني ولكن خشيت أن أنسى زبداً
فيعتبني عمرو ، والله إن فرحي بهم
جميعاً لا يُضاهي أي فرح عندما أرى
احتفالاً بهم تقام هنا أو هناك ، فهم
الفخر والبناء لهذا الوطن .. وبارك الله
فيهم وفي مساعيهم .

واحترفت ضمن صفوف نادي المكلا
الرياضي . وبعد أن توقفت عن ممارسة
اللعبة اتجهت للعمل الإداري للعبة حيث
ترأست اتحاد كرة السلة بالمحافظة لعدة
سنوات، وكانت قيادة الاتحاد (آنذاك)
مخلصة ومتفانية ، وتعمل كفريق واحد
مما جعل هذه القيادة (وقتذاك) تعمل
على توسيع رقعة اللعبة في معظم مدن

الشيء نظرأ لما أوردناه في إجابتنا
السابقة بخصوص معلم اليوم ، المنهج
الدراسي له سلبياته أكثر من إيجابياته ،
علاوة على السياسة التي لعبت وتلعب
دوراً سلبياً تجاه التعليم؛ حيث نرى اليوم
أن بعض المعلمين متفرغون للعمل
السياسي في إطار أحزابهم فهل هذا
يخدم العمل التربوي .



59

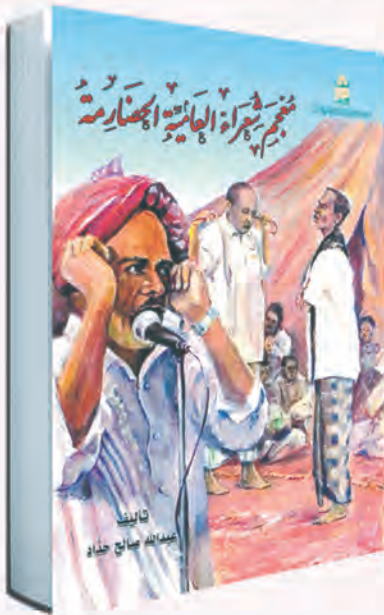
العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

(٤ / ١)

ملاحظات على :

معجم شعراء العامية الحضرية

تأليف: عبدالله صالح حداد



صدر في شهر سبتمبر ٢٠١٦م، كتاب مهم للباحث المعروف باهتمامه بالتراث الأستاذ عبدالله صالح حداد بعنوان (معجم شعراء العامية الحضرية) وهو عنوان يدل على أهمية الكتاب وعلى همة الكاتب العالية، وعلى مهمة شاقّة جداً تصدى لها الباحث.

والكتاب موسوعي لاشك كما ذكر الباحث في المقدمة، وأي معجم لا يكون موسوعياً؟ فهنئاً للأستاذ عبدالله صالح حداد هذا الإنجاز الكبير، وسوف يكون لهذا المعجم ما بعده فهو مرجع المراجع، وسوف يحتل موضعه في مكتبة الشعر الشعبي والتراث الشعبي.

لقد فعل خيراً وأقدم على خطوة كبيرة بإخراجه هذا العمل الكبير الذي تردد في إخراجه كثيراً، وكان لتردده أسبابه المنطقية، والواقع أن كل من يؤلف عملاً كتابياً أو غير كتابي تراوده هواجس كثيرة في أن ما صنعه ليس في المستوى، وهي هواجس طبيعية تهجس بها النفوس السليمة، التي لم تمتلئ عجباً، حتى إذا أصابها العجب رأت كل ما تفعله أو تقوله محط إعجاب الناس وإكبارهم.

للبحث في التراث، ويكتسب أهمية خاصة، فقد أفنى زمناً طويلاً منشغلاً بالتراث والشعر، وقد جاء في كتابه أنه قد مر على كتابه هذا ثلاثون عاماً منذ أن كان فكرة. حوى الكتاب ثلاثمائة وخمسة وتسعين اسماً، منها سبعة أسماء أدرجت في قائمة شاعرات عاميات وشعراء آل الجابري وشعراء آل بامسعود، وقد تفاوت الحديث في هذه الأسماء وليس بالأمر السهل أن لا يقع ذلك.

المعجم تميز بمميزات كثيرة منها :

١- أن الباحث جمع عدداً وافراً من الشعراء، وامتد في مساحة زمنية عريضة، بعض الشعراء يعود تاريخهم إلى أكثر من ٥٠٠ سنة.

إن الجهد الذي زخر به المعجم يعد تاجاً على رأس الأستاذ عبدالله صالح حداد أن يفخر به وأن لا يرى في ما يبدو على معجمه من نقدرات ما يقلل منه، أو ينال من هذا الجهد، والأستاذ عبدالله صالح حداد بالبحث ولكنه كان قليل النشر، قليل التعرض لآراء الآخرين في ما يكتب، وهو بهذا المعجم وضع بضاعته كاملة للنقد لينال منه من يشاء، وهذا فعل الباحثين الأشداء. والواقع أن الخوض في عالم المعجمات خوض في بحر من بحور البحث والمعرفة، والتصدي لمساحات واسعة من العلم، ويحتاج إلى أدوات بحث عالية الدقة، وقد امتلك الباحث كثيراً من هذه الأدوات، وهو أحد الباحثين المخلصين



أ.د. عبدالعزيز سعيد الصيغ



٢- أن الباحث اهتم بأخبار الشعراء أكثر من اهتمامه بأشعارهم ، مما كلفه جهداً كبيراً ، وهو جهد له قيمته العلمية.

٣- أن سير الشعراء في المعجم لم تتسم بالنظرة المتساوية فقد وجدنا من الشعراء من حصل على سطرين ومنهم من كان نصيبه سطوراً كثيرة.

٤- أن الباحث لم يتخير الشعر الجيد على الرغم من أنه ذكر نصيحة من الرواية عوض عبدن وهو بمثابة الأستاذ له، بل هو الذي شجعه على القيام بهذا العمل.

٥- أن الباحث ترك قلمه في كثير من الأحيان ينساق به ويستطرد إلى ما يتصل بالسيرة المتحدث عنها.

٦- أن الباحث لم يحتف بالشعراء الذين لهم منزلة في تاريخ الشعر العامي، فكانت عباراته في كثير من الأحيان عبارات قاصرة عن تقديمهم.

٧- لم يضبط الباحث مقاييسه وهو يتكلم عن الشعراء وهو يرتبط بالمنهجية التي ضعف شأنها في المعجم، فكانت عبارات المجاملة هي السائدة وليست عبارات التقييم.

٨- أن الباحث لم يراجع معجمه وهو قد كتبه في فترات متباعدة كما هو واضح، فبدت عليه عبارات متناقضة وهفوات لغوية ومنهجية ووزنية كثيرة.

وقد قمنا بمراجعة الكتاب وأبنا في مراجعتنا كثيراً من الهفوات التي وقع فيها الباحث، وسجلناها في هذه الأوراق، ونرجو أن يكون لها موقع في الطبعة القادمة. توزعت ملاحظتنا على المعجم على أقسام ثلاثة، قسم اختص بالجانب المنهجي، وقسم اختص بالجانب اللغوي، وقسم اختص بالشعر، وهي على النحو الآتي:

- القسم الأول: الملاحظات المنهجية:

ما هو المنهج الذي اتخذه الباحث في معجمه ؟ وما هي المساحة الزمنية التي تحرك فيها المعجم ؟ وهل التزم الباحث بقوله: " إنه لم يميز بين الشعراء " (١) وهل أقام اختياراته الشعرية على أسس معينة ؟ وهل التزم بنصيحة شيخه

الرواية عبدن حين قال له : " اختيار أجود ما قالوا ولو قصيدة أو أبياتاً من قصيدة " (٢)

يذكر الباحث في مقدمته قوله: " كتبت محاولتي وأنا واقف معتمداً على مكتبتي الصغيرة وما دونته مما وصل إلي عن هؤلاء الشعراء العامين عن طريق الرواة والكتب والمجلات والجرائد ووسائل النشر المختلفة، وربما يكون هذا عذراً لي أختفي خلفه من عيوب النقص والنسيان والأخطاء، وقرباناً للنقاد من عشاق فن الشعر العامي وعموم الباحثين " (٣)



مؤلف الكتاب عبدالله صالح حداد

وقد نتج عن هذا الوقوف والاعتداد بمكتبته والاكتفاء بها عدم تتبع أخبار الشعراء لا سيما القريبين الذين ليس بيننا وبينهم إلا سنوات وأخبارهم يتناقلها الناس ، وقد لفت انتباهي ألا يستوفي أخبار شعراء قريبيين زمنياً، فمثلاً الشاعر عبيد بن سنكر، يكتفي بالقول عنه إن بامطرف قال عنه إنه شاعر قصيد وسائق سيارة وأن عبدن ذكره له مرات ولا يزيد، في حين أن الرجل إلى جانب كونه شاعراً ظريفاً فهو شخصية اجتماعية بارزة في زمنه، ومعروف عند الكثيرين، و المعجم يسكت عن أخباره، أي أن هذا شاعر أخباره متوافرة ، ولا يذكر عنه شيئاً، وإنما قيمة المعجم بما يقدمه من أخبار الشعراء، وهؤلاء لم يكتب عنهم وهم قوة للمعجم، ذلك لأن كثيراً من الشعراء الذين كتب عنهم

الآخرون، أخبارهم محفوظة في مراجع أخرى.

الذي يثير الاستغراب أن الباحث لم يوثق نقوله من الآخرين، فلم يتميز كلامه من كلام الآخرين ، وعلى الرغم من أنه يذكر كتباً متعددة في معجمه فإنه لا يحيل إلى أي صفحة في كتاب، ويأخذ من مجلات من غير أن يحيل إلى صفحة منها، فقد ترك مسألة منهجية لا يستغني عنها أي باحث يتصدى لبحث صغير فضلاً عن معجم كبير.

يذكر الباحث أن معجمه " سل من كتاب الأستاذ بامطرف بدرجة رئيسية، ومن غيره من الكتب والدراسات والأبحاث والمقالات مخطوطة ومطبوعة " (٤)

كما ذكر ما يشبه الخطة في ترجمته للشعراء بقوله: " جعلت الترجمة في أوجز صورة مركزاً على اسم المترجم له وتاريخ ميلاده ، ووفاته ، ومكانها ، مع ذكر إنجازاته وما كتب عنه " (٥)

من هذا نجد أن الكاتب قصر في خدمة معجمه هذا، فقد اعتمد على مكتبته التي وصفها بالصغيرة اعتماداً شبه كلي، وتكررت عنده عبارة : " لم أجد فيما بين يدي " (٦) كما اعتمد على كتاب بامطرف، وربما لا يقدم للمترجم له خبراً غير أنه ذكر في كتاب بامطرف، وكان الإحصاء هو هدف من أهداف المعجم وليس الترجمة للشعراء.

لقد تبين من خلال متابعة المعجم أن الباحث لم يسر فيه على خطة منهجية، وهي بوصلة الباحثين، ويحتاجها كل من يتصدى لكتابة موضوع فضلاً عن كتاب فضلاً عن معجم بهذا الحجم الكبير، وقد حاولنا تصنيف الملاحظات المنهجية، فحصرناها في جوانب ثلاثة:

أولاً : أسس الاختيار : (الشعراء والشعر) لم يذكر الكاتب أسساً اعتمدها لاختيار الشعراء، ولاختيار الشعر ، ولا بد أنه كان في ذهنه أسس للاختيار، منها كما يستنتج شرط واضح يدرك من قلب المعجم وهو شرط الوفاة، فلم يدخل في معجمه أحداً من الأحياء، وهو مقياس له



61

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

وحيث قدم كثيراً منهم في نماذج شعرية لا توضح تقدمهم الشعري وهم متقدمون.

التناسب بين الشعر والقائلين:

الصلة بين الشعر والشاعر صلة تلقائية فالشعر يبين عن هوية صاحبه، و نتعرف من خلاله على شخصية الشاعر، وربما أبان الشعر عن قوة شخصية وجاءت الأخبار بما ليس معروفاً به، ولكن هناك قاسم مشترك بين الشاعر وشعره، والحال هنا اختياري، يختار الكاتب فيه أمثلة تتناسب مع ما يقوله عن الشاعر، فالأولى أن يذكر ما يؤيد قـوله فيه، لا سيما أن المختار من شعر الشاعر هو أبيات قليلة.

وقد بدا في أحيان أن هناك تناقضاً بين شخصية الشاعر والمختار له، كما حدث في ترجمة الشاعر أحمد زين بلفقيه الذي جاء في التعريف به أنه: "أكثر تحرراً ووعياً وأبعد رؤية" (١٧) ثم نجد الشعر الذي تمثل به للشاعر يقول:

صبر يا (بن دويل) إن تبا عيشة بطونك
ترك فرك وعقلك ترك باقي شئونك
قنع بالقرص والنوب لو با يشقونك

المتركون:

تتصل بمسألة اختيار الشعراء المترجم لهم، مسألة حصر الشعراء الذين تنطبق عليهم شروط الاختيار، ولا يبدو أن الكاتب حرص حرصاً على حصر الشعراء، لا سيما الذين هم قريبون زمنياً منه، فقد خلا المعجم من عدد كبير من الشعراء، منهم من هو معروف لكنه ذكر في معجمه معاصرين له، وعلى امتداد الفترة الزمنية الواسعة التي تحرك فيها المعجم، فإن المتركون أعداد كبيرة، ولكن الذي يمر على ذهن من شعراء المكلا على سبيل المثال عدد، منهم الشاعر محمد عوض بكير، والشاعر عوض سعيد بكير، والشاعر محمد سعيد بكير، وأسرة بكير أسرة لها مكانتها في تاريخ الشعر في المكلا.

وعدم المعرفة سبب لتركه، ولو أنه وضع أسساً لمن يصح له الدخول لأراح واستراح، وكان ذلك أقرب إلى المنهج الصحيح، ويمكن أن يجعل في معجمه حيزاً لمن ضاعت أخبارهم، وأشعارهم.

مسوغاته، ولكنه لم يضبط هذا الأساس ففاته الكثير من الشعراء الذين قضوا نحبهم، أما غير هذا الأساس كالزمن الذي عاش فيه الشاعر، فإن الكاتب ترك الباب مفتوحاً كما يبدو حتى اتسع

لم يذكر الكاتب أسساً اعتمدها لاختيار الشعراء، ولاختيار الشعر، ولا بد أنه كان في ذهنه أسس للاختيار، منها - كما يستنتج - شرط يدرك من قلب المعجم وهو شرط الوفاة .

الاختيارات الشعرية:

كيف تعامل الكاتب مع الاختيارات الشعرية؟ وما هو المنهج الذي اتبعه في هذا التعامل؟ هل ألزم نفسه باختيار نماذج شعرية لكل صاحب ترجمة أو أن الأمر توقف عنده على الظروف أو كما قال: "أما النماذج التي وردت منسوبة لأصحابها فقد اخترت أو كلفت على اختيارها إذا لم أجد غيرها، أما هذا الشاعر أو ذاك وظني أنها تبين أهدافه من قرص الشعر" (١٠).

وبمتابـعة المعجم نجد كثيراً من الترجمات قد خلت من وجود نماذج شعرية، من مثل الشعراء أبوبكر العدني، (١١) وأحمد بن حسين التريمي، (١٢) وأحمد عبدالله السقاف، (١٣) وأحمد عبود باوزير، (١٤) وأحمد عمر باحويرث، (١٥) وجمعان عوض فطحان، (١٦)

والكاتب لديه إشكال في الاختيارات الشعرية، فإلى جانب عدم التزامه باختيار نموذج لكل صاحب ترجمة، وهي التي تقدم هذا المترجم له للقارئ، نجده لا يعنى كثيراً بتقـديم أفضل ما لدى المترجم له.

واختيار الشعر له جوانب منها أنها تظهر ذائقة الكاتب، وتبين حسن معرفته بالشعر، وبالجيد منه، وعادة ما يتصدى لموضوع الاختيارات النقاد الذين لهم قدم راسخة في الشعر، وقد فرط الكاتب في مسألة الاختيارات حين قدم كثيراً من الشعراء من غير نماذج،

المعجم لمن عاش قبل خمسمائة سنة، وكذلك كثرة الشعر وقـلته وهو من المقاييس المتعارف عليها في الشعر، أو جودة الشعر، فإن الكاتب لم يضعها أمامه كما يتضح، وقد وقفنا على ذلك في العناوين الآتية:

شروط من أدخلهم دائرة المعجم:

هل وضع الكاتب شروطاً لمن يحق لهم الدخول في دائرة المعجم؟ لا بد أن يكون هناك منهج، يشترط شروطاً للشعراء الداخلين في دائرة المعجم، كأن يكون الشاعر له ديوان مثلاً، أو له عدد من القصائد، أو له شعر يتسم بالجودة العالية، أما إن كان كل من قال شعراً صار له حق الدخول فإن ذلك منهج غير علمي، فلا يقال وصف الشاعر إلا على من عرف عنه الشعر وشاع.

ومن اللافت أن عدداً من الذين ترجم لهم أعلن أنه لا يعرف عنهم شيئاً، كقوله عن الشاعر سالم عبدالله الكسادي: "لا أعرف عنه شيئاً، فلم يترجمه أي مما هو بين يدي من كتابات" (٧)، والشاعر علي باجراد الذي قال عنه: "لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من كتابات تهتم بالشعر العامي" (٨)، بل إن الكاتب أدخل الشاعر عوض سعيد باعامر الذي عرفه بأنه: "من عشرات الشعراء الذين طمست أخبارهم واندثرت أشعارهم لعدم الاعتناء والتدوين" (٩). وهل على الكاتب بعد أن تطمس أشعار الشاعر وأخباره لوم؟ بل اللوم عليه في أن يجعل له ترجمة.



62

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

ثانياً: المصادر:

لاشك أن من الأسس المنهجية في عمل معجم كهذا تحديد المصادر وترتيب أهميتها، والمعروف أن المصادر "منها ما هو أصيل ومنها ما هو فرعي ثانوي" (١٨)، والأصيلة منها مدونات مكتوبة وروايات مسموعة، ومن سمات الأصالة قدم المصدر، سواء أكان مكتوباً أم مسموعاً.

ويبدو أن المؤلف لم يعر هذه المسألة ما تستحق من اهتمام، حيث تساوت عنده المصادر مكتوبة ومسموعة، البعيد منها في الزمن والقريب، وسوف يتضح ذلك من الأسطر القادمة.

مصادر التراجع:

ذكر المؤلف في نهاية معجمه عدداً كبيراً من المصادر المطبوعة والمخطوطة، غير أن هذه المراجع لا تجد لها صدًى في الكتاب، فكثير منها لم يشر له المؤلف إطلاقاً، وهو لم يضع الرواة في قائمة المصادر التي أخذ عنها، وإن ذكر

منازل المترجمين:

مما لا شك فيه أن الشعراء تتفاوت أقدارهم كما تتفاوت أقدار العلماء

ما يريد، ففي ترجمة الشاعر عوض سببتي يقول: "عاد إلى مسقط رأسه الديس الشرقية وتوفي عام ١٩٦٧ م الأستاذ بامطرف قال: توفي ١٩٦٣

لقد أقدم الباحث على خطوة كبيرة بإخراجه هذا العمل الكبير الذي تردد في إخراجه كثيراً، وكان لتردده أسبابه المنطقية.

(التراث وصناعة الشعر)، وعند الدكتور عبد الباسط الغرابي أنه توفي عام ١٩٦٥ هـ (٢١).

والغريب أن هذه الفقرة التي تقل عن السطرين ذكر المؤلف فيها ثلاثة تواريخ لوفاة الشاعر عوض سببتي، والشاعر من منطقة قريبة جداً من مدينته الشحر، وأمر الوصول إلى رأي حاسم في هذه المسألة أمر سهل، ثم إن اتباع منهج في تحقيق الأخبار يغنيه عن هذه الحيرة التي يترك القارئ فيها.

ويتكرر الأمر في ترجمة الشاعر العطيبي وهو أيضاً من منطقة قريبة من منطقة المؤلف فيذكر خلافات في تاريخ وفاته قائلًا: "يؤكد بامطرف أنها ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٤ م، ويذكرها مجدي باحمدان أنها ١٣٦١ / ١٩٤٢ م، ويقول الأستاذ عمر محفوظ بأنني أنها عام ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م، ويأتي تاريخ الوفاة عند محمد عبدالرحمن باحارث أنها ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م، وتأتي هذه عند الراوي الشاعر عوض عبدن بأنها ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ م" (٢٢).

ولم يكلف الباحث نفسه الوقوف أمام هذه التواريخ المتضاربة، ليخرج منها برأي مفيد، ولم يوازن بين الشخصيات الناقلة ليرجح شخصية على شخصية، وبمنظرة متاملة يمكن الوصول إلى رأي راجح سديد، ففي مثل هذه الأخبار، يكون المعول على المتقدم لقرينه من المتوفى، ويكون المعول على الأعلام لكونه أقدر على التمييز، وقد اتفق

وأصحاب كل صناعة، بل حتى الناس، ويلاحظ المتابع للشعراء في هذا المعجم أن الكاتب لا يحرص على الوقوف عند كبار الشعراء والمبدعين وإبلائهم ما يستحقون من تقدير، ومن ذلك على سبيل المثال ترجمة الشاعر أبوبكر بن شهاب (٢٠) وهو شاعر كبير في العامة كما هو في الفصح، وبمنظرة عابرة على ترجمته تبين ذلك. لا يحتفي بالشعر ولا بالشعراء ولذلك يمر شعراء كبار دون أن يوفيهم حقهم

ذكر المؤلف في نهاية معجمه عدداً كبيراً من المصادر المطبوعة والمخطوطة، غير أن هذه المراجع لا تجد لها صدًى في الكتاب.

من التعريف، مثل: أحمد عبود بلوزير، أحمد بكير، باحرز، سالم بانبوع، وقد يصل عدم الاهتمام حده كما فعل مع كثيرين، كما أنه يطيل بشكل لافت للنظر في الحديث عن شعراء ويتعامل مع آخرين بإهمال بائن.

ثالثاً: الأخبار والشعر والتوثيق:

تحقيق الأخبار:

كما ترك الباحث في الكتاب توثيق المعلومات، وإسناد الأقوال لقائلها من الرواة، ترك تحقيق الأخبار عندما تتعدد، في عام مولد أو وفاة، فهو لا يرجح قولاً على قول، وإنما يدع القارئ محتاراً يأخذ

بعضهم في معجمه. وكثير من المترجم لهم من الذين عاصروهم الشاعر أو التقى بمن عاصروهم لم يكتب أحد عنهم، ولم يول المؤلف العناية بهم، وهم لو اهتم بهم لكانوا القيمة الأبرز في معجمه؛ لأن أخبارهم وأشعارهم لم توجد في كتاب، وسيكون معجمه هو المرجع الوحيد الذي يحفظ شعرهم وأخبارهم، واللافت للنظر أنه كرر عبارة: "لم أجد له ترجمة في ما بين يدي من كتابات" (١٩)، وهذه العبارة تسقط عنده الاهتمام بالرواية، والرواية من أهم المصادر التي كان ينبغى في الاحتفال بها.



63

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

مما يضعفها ، والباحث بدا غير آبه أو عارف بهذه الأخبار ، ومن ذلك ثاني ترجمة في معجمه وما قبل آخر ترجمة، الأولى كانت للشاعر أبوبكر مخرج والثانية للشاعر يسلم باحكم، وما بينهما ما يحويه المعجم.

ففي ترجمة مخرج ذكر بيتين شعريين ، فأخطأ في الرواية ، ولم يذكر القصة، والبيتان المذكوران هما:

يقول بو بكر ذا الصاحب وهذا الحق

وانته تحير لقط وحدة من الثنتين

بغيت صاحبي اما الحق هو يلحق

بغيت صاحبي انه زين وانه شين (٢٨)

والبيت الأول ذكره الأستاذ محمد عبد القادر بامطرف في كتابه التراث وصناعة الشعر، مختلفا في بدايته قائلاً:

يا بو فرج هذا الصاحب وهذا الحق

وانته تحير لقط وحدة من الثنتين (٢٩)

والبيتان لهما قصة طريفة، هي أن الشاعر كان يعمل مع التاجر (أحمد محمد بو سبعة)، واستدان منه مبلغاً ثم ماطل في إرجاعه حتى ألجأ التاجر بو سبعة أن يهدده بالشكوى عليه عند الحاكم منصور بن عبد الله القعيطي المعروف بشدته وقسوته ، فخاف وباع ما لديه وأحضر المبلغ ، لكن بوسبعة أراد أن يختبر شاعرية الشاعر فقال له : لن أخذ المال حتى تقول شعراً فقال:

يقول بو بكر ذا الصاحب وهذا الحق

وانته تحير لقط وحدة من الثنتين

وفي البيت إحراج واضح للتاجر ، كأنه يقول له إما أن تكون وفيّاً لصديقك وإما أن تكون رجلاً مادياً لا تغنيه المشاعر، الأمر الذي جعل التاجر بوسبعة يطلب منه أن يرد على البيت شعراً فقال :

بغيت صاحبي أما الحق هو يلحق

بغيت صاحبي إنه زين وإنه شين

ومرة أخرى وجد التاجر نفسه أمام جواب لا يريده ، حيث إن الشاعر بهذا البيت التف عليه لكي يترك ماله وأن الاختيار الصحيح هو هذا.

شعراء الإمارة الكسادية." (٢٤) وكلمة أغلب الرواة تعطي انطباعاً عن كثرتهم ولو ذكر اثنين منهم لكان أضبط وأقوى لا سيما أن الذي يقلب الكتاب لا يجد غير أسماء قليلة تعد بأصابع اليد وربما أقل.

من الغريب أنه في فقرة تقل عن سطرين ذكر المؤلف ثلاثة تواريخ لوفاة الشاعر عوض سببتي ، والشاعر من منطقة قريبة جداً من مدينته الشحر، وأمر الوصول إلى رأي حاسم في هذه المسألة أمر سهل .

ترتيب الأبيات

من الإحسان إلى الشاعر أن نأتي بأبياته كما أوردتها ، لا نقدم بيتاً على بيت ، ولا نزيد أو ننقص فيها ، وقد جاءت ظاهرة عدم الترتيب في مواضع عدة، منها البيتان المشهوران للشاعر عمر السباعي:

إن شي دراهم لي ترد الحسوس

دخل إلى ممبي وشفها

وإن كانها الا كشكشة بالضرروس

من قال ممبي قل له عرفها (٢٥)

وقد أورد الباحث البيتين وجعل الأول ثانياً والثاني أولاً.

ومن ذلك بيتا الشاعر أبوبكر مخرج الذين تحدثنا عنهما في موضع آخر من البحث، فقد جاء بهما دون ذكر ملابساتهما، فأول البيتين كان بدءاً وثانيهما كان جواباً بعد أن ألزم الشاعر بالرد على بيته، ولو قرئ البيتان متتابعان من غير معرفة بأجوانهما لاختلف معناه كثيراً. (٢٦)

والمثال الثالث الذي جنى عدم اتباع ترتيب الأبيات على الشعر، الأبيات التي اختارها الباحث للشاعر يسلم باحكم ، وقد ذكرنا الأبيات في البحث في موضعه. (٢٧)

ربط الأبيات بمناسباتها المعروفة

كثيراً ما ترتبط الأشعار بمناسباتها، وتتضح معانيها بها ، وقد تُفقد هذه الأشعار كثيراً من بريقها ورونقها، بل ربما ينهم معناها وتغيب الفائدة منها،

عبدن وباحمدان في ذكر تاريخ واحد للوفاة، والمتقدم عبدن فلا مجال لذكر باحمدان ، وينحصر الخبر وصحته بين عبدن وبامطرف لقدمهما وتقارب التاريخ بينهما وهو (١٩٤٤م و ١٩٤٢م) وقد

عاصر المؤلف وجالس كليهما ، وبامطرف ثبت رأيه في كتاب ، أي أنه أذاعه ولو كان هناك من قدم له تصحيحاً لكان ذكره في كتاباته الكثيرة فالأرجح هو قول بامطرف لقدمه وعلمه.

فالفقرة تؤكد أن المنهجية عند حداد ليست حاضرة ، وأنه يساوي بين كل من يقول قولاً ، أو يبدي رأياً، وهذه ليست من صفة الباحثين.

التوثيق

من اللافت أن المعجم خلا خلوّاً تاماً من توثيق المعلومات، فلا إشارة إلى المراجع ، وإذا ذكرت فلا إشارة إلى موضع المعلومة في المراجع ، وليس في الكتاب ذكر لمكان الخبر والصفحة.

ففي نهاية ترجمة الشاعر محمد بن زغيو يشير قائلاً : " ملخص مما كتبه الدكتور عبد الباسط الغرابي " (٢٣). ولم يذكر المصدر والصفحة والتاريخ ، وكيف يستطيع القارئ أن يعود إلى هذه المعلومة ؟

والمراجع التي اعتمدها الكاتب قسمان، قسم كتابي أخبار وأشعار مأخوذة من كتب ، وقسم من المراجع أشعار وأخبار تعتمد على الرواية، والكاتب يذكر بعض الرواة ولا يقيد ما يأخذه منهم، لا سيما من لازمهم لسنوات ملازمة، كالرواية عوض عبدن، وفي ترجمة الشاعر عمر محروس يقول : " .. لا يوجد تاريخ دقيق لولادته ووفاته ، إلا أن أغلب الرواة يقولون إنه ساجل



فاتحه التاجر بو سبعة إلى سعيد قشمر
وهو شاعر معروف وكان حاضراً، وطلب
منه أن يرد على بيت مخرج، فقال قشمر:

من قال حقّي فلج يا بكر لا تشق

يا معسر الدين لكنك وفيت الدين

من تصوير جميل، والشاعر يتحدث عن
عودة الناس إلى المكلا ودخلهم
الاحتفالي بعد أن جاءوا من زيارة من
الزيارات التي كانوا يعتادونها، وهي
زيارات مرتبطة بلعبة العدة المعروفة .

لم يحتف الباحث بالشعراء الذين لهم منزلة في تاريخ الشعر العامي، فكانت عباراته في كثير من الأحيان عبارات قاصرة عن تقديمهم.

نسبة الشعر لقائله:

ربما تكون هذه من المسائل العويصة
التي توجه الباحث في الشعر الشعبي
الذي يخلو دائماً من التوثيق، فليس
هناك مجموعات أو مطبوعات يمكن
العودة لها والركون إليها والكتب
والكتيبات القليلة التي طبعت تعج
بالشعر الذي يشكو من التوثيق ومما هو
أكثر، من صحة البناء الشعري للأبيات،
وفي المعجم يبدو الحال أحسن ولكن
وجدت بعض الأبيات كانت نسبتها
موضع شك لا سيما البيت الذي نسبته
إلى الشاعر حسين باخميس الحباني
وهو:

فصل والثاني وصلنا يادحي عند دار ناصر

والشطف لي معانا قامزي ورصاص مصبوب (٣٢)

وقد نسبته الأستاذ محمد عبد القادر
بامطرف في كتابه الميزان (٣٣) إلى
سعيد باحريز، وهو أوثق من يمكن
الرجوع إليه، وقد أخبرني أحد الحفظة (٣٤)
أنه سمعه من الكثيرين يسندونه
لباحريز، وهذا يؤكد رواية بامطرف،
ويذكر بعضهم (٣٥) أنه سمع سعيد
بكران يقول إن البيت له.

وبين نسبة البيت للحباني أو باحريز أو
بكران يكون الحسم فيه إلى المصدر،
وبامطرف هو المصدر الأكثر ترجيحاً،
وعلى الرغم من أن ادعاء بكران للبيت
أقوى حجة بوصفه شاعراً متمكناً، فربما
كان هناك توهم في نقل الخبر.

ولو أن الباحث ساق الأبيات مع قصتها
لكان أجمل ولأبأن جمالية الشعر،
والشاعر مخرج يتسم شعره بالطرافة
والفكاهة وهو شخصية لطيفة له أخبار
كثيرة، والباحث أفقد معجمه حيوية كانت
ستضفي عليه قيمة اجتماعية إلى جانب
قيمه الأدبية بعدم تتبع هذه الأخبار.
والحال نفسه في الأبيات التي ذكرها
للشاعر يسلم باحكم :

البارحة في سوريا خلوا الحبال مزرزرة

أربع ليالي يخلطون الليل في ضوء الصباح

قلوا له الا عسير لا قد صبحت في أسمة

تتقلل الأسواق هيبة والعوج يرجع سباح (٣٠)

والبيتان بائن فيهما خلل المعنى لأن
البيت الثاني فيه ضمير يعود إلى متكلم،
وجواب له ما قبله، وكأن الباحث لا يعنيه
من الشعر إلا نسبته إلى الشاعر وليس ما
يحملة من معنى، وقد أفقد أيضاً معجمه
جانباً جمالياً بعدم ذكر بيت بين البيتين
، والأبيات هكذا :

البارحة في سوريا خلوا الحبال مزرزرة

أربع ليالي يخلطون الليل في ضوء الصباح

وقال كيه سي جي ام (٣١) في قصر المعين الغندرة

هيا كيا كرتا ما هذا القلاقل والصباح

قلوا له الا عسير لا قد صبحت في اسمة

تتقلل الأسواق هيبة والعوج يرجع سباح

ويذكر أحد المهتمين بالشعر أن

الشاعر الكبير سعيد باحريز من إعجابه

يهذه الأبيات تمنى أن تكون له، لما فيها

الهوامش :

١. المعجم ص / ١٢
٢. المعجم ص / ٢٦٠
٣. المعجم ص / ١٢
٤. المعجم ص / ١٣
٥. المعجم ص / ١٣
٦. المعجم ص / ٤٤ وينظر ايضاً: ص / ٩١ ،
كذلك: ص / ١٥٦ ، كذلك: ص / ٢٢٢ كذلك
ص / ٢٥٥ ، كذلك: ص / ٣٣٥
٧. المعجم ص / ٩١ وفي العبارة ملاحظات
لغوية ، يقول : لم يترجمه ، والصحيح لم يترجم
له ، ويقول: أي مما ، والصحيح أي ممن .
٨. المعجم ص / ٢٢٢
٩. المعجم ص / ٢٦٤
١٠. المعجم ص / ١٢ ، والعبارة بها تحتاج
مراجعة
١١. المعجم ص / ١٩
١٢. المعجم ص / ٢٧
١٣. المعجم ص / ٣٥
١٤. المعجم ص / ٣٦
١٥. المعجم ص / ٣٦
١٦. المعجم ص / ٥٤
١٧. المعجم ص / ٣٠
١٨. البحث الأدبي ، د. شوقي ضيف: ص / ٢١٢
١٩. المعجم ص / ٣٣٥ ، والعبارة وردت في
المعجم كله
٢٠. ينظر المعجم ص / ١٧
٢١. المعجم ص / ٢٦٦
٢٢. المعجم ص / ٢٩٨
٢٣. المعجم ص / ٣١٥
٢٤. المعجم ص / ٢٣٥
٢٥. المعجم ص / ٢٣٨ ولاستقامة وزن الشطر
الثاني ينبغي ان يأتي هكذا (من قال ممبي قل
عرفها)
٢٦. ينظر هذا البحث ص
٢٧. ينظر هذا البحث ص
٢٨. المعجم ص / ١٥
٢٩. التراث وصناعة الشعر ص / ٢٤ ، و (بو فرج)
كنية التاجر بوسبعة ، وفرج أكبر أبنائه .
٣٠. المعجم ص / ٣٣٥
٣١. هذه الأحرف عبارة عن اختصار لترتبة
عسكرية (K.C.G.M) خلعاها الانجليز على
السلطان صالح بن غالب القعيطي .
٣٢. المعجم ص / ٦٥
٣٣. الميزان ، محمد عبد القادر بامطرف ، دار
الهمداني ، عدن ، الطبعة الاولى ١٩٨٥ م ص / ٦١
٣٤. اخبرني بذلك الشيخ الفاضل سعيد سالم
باريسا .
٣٥. اخبر بذلك الاستاذ الثقة نضال علي
باعشن .



علوي بن طاهر الحداد مؤرخاً



يلاحظ المطالع لسيرة العلامة علوي بن طاهر الحداد، رحمه الله، ذلك الشغف الكبير الذي يمتلكه تجاه علم التاريخ، حتى ليخيّل للنّاظر إلى قائمة مؤلفاته أنه قصر عمره وحياته لخدمة هذا الفن، فبالنظر إلى قائمة مؤلفاته، واستخلاص المؤلفات التاريخية منها، نجدها تشكّل كل الثلث من مجموع مؤلفاته. إن لمعان اسمه، وريادته في الكتابة عن تاريخ العرب والمسلمين في شرق آسيا، وتفردّه زمنًا طويلاً بالكتابة في ذلك الاتجاه بكتابه الفريد في باب « المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى »، تكمن وراءها أسباب خفية، أفصح هو عن بعضها في مؤلفاته تلك المباركة النافعة.

حاربهم البرتغال". وأضاف: " بل كنت أول من عرف أن من السادة العلويين من بلغ إلى جزائر تحت الريح قبل أن يعرفها البرتغال، وهي جزائر في بحر أمريكا، والحمد لله في ذلك الفضل" (٢).
إن الكتابة عن السيد العلامة الحداد، مؤرخاً، وباحثاً سابراً أغوار المجهول من تاريخ الإسلام والعرب، أمر تطول الكتابة فيه، والحديث فيه حديث عذب لا يمل. ولكنني مضطر إلى الاكتفاء بما تقدم، فالإطالة هنا ستخرجنا عن مقصود التقديم لكتاب (الشامل). غير أنني لن أغادر قبل أن أنقل رأي مستشرق شهير ممن خدموا تاريخ حضرموت، وتاريخ اليمن بالعموم، وكانت له شهرة وصيت في عالم التراث والبحث العلمي في جنوب الجزيرة العربية، وهو الدكتور سارجنت.

بين سارجنت والحداد:

سارجنت كما ذكرت آنفاً، كان مبعوثاً إنجليزياً من وزارة المســـتعمرات البريطانية إلى الجنوب العربي، أقام في أرض الجنوب سنواتٍ منقباً وباحثاً

سره، [هو العلامة السيد أحمد بن حسن العطاس]، ويدبرني عليه. فقد كان يأمرني بتقييد ما يمر بنا في قراءتي من نوادر التاريخ، ويلح علي في ذلك، حتى لقد استوهب لي مرة دفترًا من القرطاس ضخماً، لا تكاد تقله اليد من ضخامته، فأمرني أن أعده لتقييد ما يمر بي من شوارد التاريخ ونوادره.

فلما اكتشفت تاريخ الذين أدخلوا الإسلام إلى جهة الشرق، وهو ما كان يسميه سلفنا (الهند الأقصى)، أي: من سمطرا وبلاد الملايو إلى برنيو وجاوه وسليبيس إلى فوافوا (غينيا الجديدة)، فهمت أن شيخنا رحمه الله تعالى، كان يشعر أنه سيخرج على يدي إلى عالم الظهور غرائب من التاريخ مكنونة، ونفائس في خزائنها مصونة. وأني سأكشف حجاب الكتم واللبس الذي أحاط بتاريخ الدعاة حتى جهل عن غفلة أو عمد (١).

أعقب ذلك بالقول: إنه " أول من بحث عن تاريخ دعاة الإسلام في جزر القمر، وما والى مدغشقر موزامبيق، الذين



د. محمد أبوبكر باذيب *

قال في معرض حديثه عن تاريخ الدعاة من آل عبد الملك بن علوي، في شرق آسيا، في كتابه «عقود الألماس»: " ثم إن ذكري طرفاً من تاريخ أولئك الدعاة الأبرار، الذين غامروا في ولوج أثباج البحار، وصارعوا هائلات الأخطار، هو حق من حقوقهم اللازمة علينا، بل ومن حقوق دين الإسلام، بل من حق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أمر بالتبليغ والدعوة.

وهناك أمر آخر فيه طمأنينة لقلبي، لما كنت أشعر به من التأثير في اعتائني بهذه الأبحاث، لما كان يعاملني به صاحب المناقب، شيخنا، قدس الله



ومؤرخاً لعاداتها وتراثها الشعبي، ومصادر تاريخها المحلي. وقد كتبت عنه فصلاً مفيداً في كتابي (أضواء على حركة طباعة التراث الحضرمي في المهجر) (٣). وبطبيعة الحال، فقد كانت بينه وبينه العلامة الحداد علاقة وتعارف في باب البحث عن تاريخ حضرموت، واستفاد مما كتبه العلامة الحداد، بل وجدته كان يرأسه ويسأله عن بعض ما يشكل عليه. كتب سارجنت عن العلامة الحداد كلاماً رائقاً في بحث له بعنوان (المؤرخون وكتابة التاريخ الحضرمي) (٤)، الذي عربيه د. سعيد النوبان، ونشرته جامعة عدن مع بحثين آخرين له عن حضرموت. قال سارجنت، تحت عنوان جانبي: (المؤرخون من السادة) (٥):

"إن عميد المؤرخين هو السيد علوي بن طاهر الحداد، المولود في قيدون بوداي دوعن. وقد تركها على عجل في باكورة شبابه (٦)، تحت سحابة سياسية، وأخذ معه أحمالاً من الكتب، ثم أصبح بعدئذ مفتي جهور، لكن عرفت مؤخراً أنه قد اعتزلها (٧). لقد زار حضرموت فترة قصيرة قبل سبع سنوات.

إن علوي بن طاهر عالم وناقد جيد، ولقد قيل لي: إن ذاكرته خارقة، ويستطيع أن يتذكر محتويات كتاب بأكمله كلمة كلمة، بعد قراءته، ويتذكر إضافة إلى ذلك الصفحات التي يرجع إليها. وللمذكور مؤلفات عدة خاصة حول تاريخ العلويين، وله تعاطف شديد مع العلويين، لكن ليس إلى الحد الذي يؤثر على أحكامه.

إن كتابه (الشامل في تاريخ حضرموت) قد قُدم إلى المطبعة حين استولى اليابانيون على سنغافورة، لكنه ضاع. لكني علمت أن له تاريخاً بديلاً في طريقه إلى المطبعة. وله كتاب مختصر هو (جنى الشماريخ).

وقد بدأ يكتب ما يمكن أن يسمى ترجمة للسيد أحمد بن حسن بن عبد الله العطاس، مولى حريضة، وأسماء (عقود الأماس) (سنغافورة: ١٩٤٩ - ٥٠).

والواقع أن كتاب (عقود الأماس) يحوي مادة جمة حول تاريخ السادة، وبحثاً عن أجدادهم، وقد استخدم فيه مجموعة من المصادر (٨) العربية الكلاسيكية، بعضها غير معروف لبروكلمن.

وكان السادة العلويين يعتمدون على هبة مالية من سلطان مراكش في عام ١١٩٩ - ١٧٨٥ (٩). ولدهشتي! فعندما أشرت إلى ذلك للعلماء بمراكش اتضح أن الحادثة معروفة ومسجلة في تواريخهم. وهناك مسائل أخرى ذات فائدة عن التاريخ الحضرمي، كان الحداد



سارجنت

قد ناقشها في أعماله.

إن (عقود الأماس)، قيم جداً، وفيه مسح واسع لمصادر تاريخ حضرموت عامة. وهناك عمل أقدم منه وهو (القول الفصل فيما لبني هاشم وقريش من فضل)، وقد نشر في بوقور Bogor عام ١٣٤٤ / ٦ - ١٩٢٥. أي: حين كان النزاع العلوي الإرشادي على أشده.

وقد علمت أن علوي بن طاهر يطبع في سنغافورة كتاباً موسعاً عن تاريخ حضرموت، وسيكون المرجع الأول حول الموضوع (١٠).

هذا ما كتبه سارجنت، ولا يزال الحديث عن المؤلف مؤرخاً، وعن أسلوبه في الكتابة التاريخية موضوعاً بكرة، يمكن أن تكتب فيه رسالة علمية في إحدى جامعاتنا المحلية والوطنية.

وهنا سؤال يفرض نفسه، تعقيباً على الفقرة الأخيرة في كلام سارجنت:

هل وضع المؤلف عن حضرموت كتاباً آخر غير الشامل؟

وقفت على نص يعضد ما ذهب إليه، أو خمنه، أو سمعه سارجنت، يفيد أن المؤلف رحمه الله، كان يعتزم الكتابة عن حضرموت بصورة أكثر توسعاً مما هو عليه الحال في الشامل، ولعل ذلك خطر على باله بعد أن رأى كتابه يتبدد أمام ناظره، بسبب الحرب العالمية الثانية، التي لم تبق ولم تدر. ورد ذلك في رسالة من ابن المؤلف، السيد طاهر بن علوي، لابن خاله السيد حامد مشهور الحداد، قال فيها، عقب كلام عن الشامل: "وأما التاريخ المفصل فلما يُقدَّر كتابته". فيمكننا من هنا، أن نذهب إلى القول بصحة التخمين الوارد في كلام الدكتور سارجنت.

هذا الكتاب

تسمية الكتاب: الصحيح في تسمية الكتاب: (الشامل في تاريخ حضرموت ومخالفاتها) كما هو مرسوم على غلاف الطبعة الأصلية، وكما أثبتته معظم مترجميه مختصراً باسم (الشامل) أو مطولاً كما هنا. وأغرب تسمية وردت في كتاب (تشنيف الأسماء)، حيث سمي المؤلف الكتاب: (عقد الباقوت في تاريخ حضرموت)، وتابعه المرعشلي، وأغرب الحبشي في قوله إنه يقع في مجلدين. وفي (العقود الجاهزة): (الشامل في تاريخ حضرموت، في ثلاثة أجزاء، مختصراً من تاريخه الكبير لحضرموت) (١١).

أسباب التأليف: تتلخص في سببين رئيسيين:

السبب الأول: الدافع الذاتي. الذي عبر عنه بقوله: "فإنه مما كان يخطر ببالي، وتتعلق به أمانتي وأمالي، أن يكون لحضرموت ومخالفاتها تاريخ شامل يجمع ما أسأرت به الإهمال، مشيراً إلى ما تداوله من الدول وحال به من الأحوال،



67
العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

الصعوبات التي واجهت المؤلف:

١- الفترات المجهولة في تاريخ حضرموت: أكبر العوائق كان عدم أوقلة توافر المصادر التي تتحدث عن بعض الحقب الزمنية، ومع أن المؤلف كان قد حاول أن يسد تلك الثغرات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لكنه لم يجد بداً من التصريح في مقدمة كتابه بقوله: "على أن في التاريخ الحضرمي فصلاً لا يزال أمرها مجهولاً، وخفياً لم نجد في كشفها سبيلاً" (١٥).

٢- بعده عن مكتبته في حضرموت: كان بعده عن مكتبته في قيدون، المشتتة على المصادر النادرة التي جمعها في شبابه، يجعله يتحسر على عدم توافرها بين يديه، ولكنه لم يكن يستطيع أن يتأخر عن دفع ملازم الكتاب إلى المطبعة أولاً بأول، لذا نجده كثيراً ما يعتذر للقراء عن بعض القصور الذي قد يجدونه في الكتاب.

من ذلك قوله: "وعندي رسالة في ترجمة أحد فقهاء المشايخ أهل الرباط، وأحسبها من تأليف الشيخ أحمد بن عمر، أو غيره من عشيرته، وهي غير حاضرة الآن. فإنا حررنا هذا التاريخ بالبلاد الملايوية، أيام حرب الأمم الكبير، فبعد عنا كثير من المظان، والفوائد التاريخية، التي يحسن إلحاقها بهذا المجموع" (١٦).

وقوله: "وأحسب أن عندي شيئاً من ترجمة هذا الشيخ، ولكنها غير حاضرة الآن، وقد سبق اعتذارنا عن فقد أمثال ذلك" (١٧). وقوله: "وعندي له في بعض مجاميعي: (ترجمة) حافلة، ولا يمكن استحضارها، ولا نقل شيء منها، مع حدوث هذه الحرب، وكوننا نبض هذا التاريخ مع الطبع، فلا يمكن الانتظار، مع طول المسافة، وإبطاء الكتب ذهاباً ورجوعاً، وفيما ذكرنا كفاية" (١٨). وقوله: "ولم يحضرني الآن تاريخ ذلك بالتفصيل، ولا اسم باشميلة، والقائم بمنصب الشيخ في ذلك الوقت، وهو في مجموع مسودات في البلد، لم يمكنني الإتيان بها،.." (١٩).

محبية وتلاميذه عليه في نشر ما جمعه من تاريخ حضرموت. كما ذكر هو في مقدمة الكتاب.

طريقة تأليف وطباعة الشامل:

بعد هجرته من حضرموت سنة ١٣٤٤ هـ إلى إندونيسيا، وتفرغه للتدريس والتأليف في أثناء إقامته بين جاكارتا وبوقور، أكب المؤلف على جمع توافر لديه من المصادر التي قرأها ولخصها، أو استجلبها معه إلى مهجره، فكتب عدداً من المقالات التاريخية الرائعة التي لم يسبق إليها، ونشرها



على صفحات المجلات العربية الصادرة في المهجر المذكور. وكانت جل مقالاته في تلك الآونة تصدر على صفحات مجلة «الرابعة العلوية»، ومنها استقى بعض معاصريه مادة كتاب زعم أنه تاريخ لحضرموت، مع إغفال مصدر معلوماته التي لم تكن سوى تلك المقالات. فلما اطلع المؤلف على ما حدث، علم أن تأخير نشره كتاباً يضم أشكيات المعلومات النادرة التي اجتمعت له عن حضرموت، سينتج عنه أمر غير محمود. قال رحمه الله: "فكان ذلك مما حملني على البدار بإبراز ما اجتمع لدي مكتفياً ببعض ما اجتمع، لئلا يطول الكتاب،.." (١٤).

وما بادت به من الأمم وانجالت عنه من الأجيال، ومنبئاً بمن نقل إليه من النواقل وتم فيه من الاستبدال، وطالما متتني نفسي أن أكون أنا القائم بهذا المهم المهم، ويصرفني عن ذلك علمي بثقل ما أتجشمه من ذلك وأتحمّل، فإن الموضوع مهم لم تدمنها الخطى، ومشارع بمعامي لا تهتدي إليه القطا، لاسيما وعلم التاريخ من علوم النقل، يرجع فيه إلى الرواية لا الروية، وليس بعلم نظر أو تجربة يؤخذ فيه بمدرك النظر ونتيجة القضية" (١٢).

السبب الثاني: حماية جانب الحقائق التاريخية من عبث العابثين. فإنه قد شاهد سطو بعض الناس على ما نشره من مقالات تاريخية، في صفحات مجلة (الرابعة العلوية) في أعدادها الصادرة بين عامي ١٣٤٦، و ١٣٥١ هـ، وقد تحدث عن ذلك الأمر المؤسف قائلاً:

"وكنْتُ إذا ظفرتُ بشواردٍ قيدتها، وسوانحٍ أسرعْتُ إليها فاقتنصتها، حتى اجتمع من ذلك ما إذا ألفَ صلحُ أن يُطلقَ عليه اسمُ التاريخ على نقص وانقطاع، وخفاءِ أمور لا يكتفى فيها بدون الرواية والسماع، وتأنيتُ بإبرازه الفرص لتسنخ، والأيام لتسعد وتمنح. وسمحتُ مع ذلك لمجلة (الرابعة العلوية)، وغيرها، بنشر نتفٍ منه إثارةً للهمم، وتنبيهاً للقيام بهذا الواجب الأهم.

فاختطفها بعضُ مسترقي السمع من الأغبياء الجاهلين، فمزجها بأكاذيب روجها لا تقدر على مثلها الشياطين، مع خبط لا يدانيه خبطُ معتسِفِ الظلماء، وخلط لا يشبهه خلطُ أعتى أعمى. وشاب ذلك بأقاصيص اخترعها، ودعاوي كاذبةٍ هو زوّقها وابتدعها، وأخبار مفترقةٍ قد افتجرتها ووضعها، ثم قال لأشباهه من العوام: هذا تاريخ حضرموت! فقبل ذلك منه طوائف من الصم والبكم، وصدقوه في قوله من لا عقل عنده ولا علم. فكان ذلك مما حملني على البدار بإبراز ما اجتمع لدي" (١٣).

السبب الثالث: إلحاح الكثيرين من



68

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م



العالمية الثانية! وأخبرني اثنان ممن عاشا مع المؤلف زمن تأليفه كتابه الشامل، أولهما ابنه سيدي العلامة حامد بن علوي، وثانيهما الأستاذ السيد أحمد عمر بافقيه: أن المؤلف رحمه الله كان ينتهز أوقات فراغه من عمله الحكومي في دائرة الإفتاء في جوهور، ليجمع مادة تاريخه هذا، وكان وقته يضيق عن أن يؤلف الكتاب كله دفعة واحدة (٢١).

ونظراً لوجود مطابع ذات حروف عربية بجواره في سنغافورة، فقد يسر له ذلك الأمر أن يرسل بين الفينة والأخرى ملازم أو صفحات مما يتم تحريره وكتابته، فتطبع في المطبعة، ثم تعود إليه فيصحح مسوداتها، ويعيدها إلى المطبعة مرة أخرى فتدرج التصويبات في مواضعها. وهو ما صدقته لي بعض المسودات من الصفحات الأخيرة من الكتاب التي وقعت تحت أيدينا، كما سيأتي في صور النماذج المرفقة.

سألت الأستاذ بافقيه: بما أن المطبعة كانت قد احترقت، فكيف تم إنقاذ الجزء المتوافر من الكتاب؟ فأجابني: كانت المطبعة ترسل للمؤلف الصفحات التي يفرغون من تصحيحها وتنفيذ ملاحظاته على مسوداتها، فإذا أقرها، طبعوا منها كمية مناسبة، وهكذا إلى أن تجمع من الكتاب هذا القدر (٢٦٠ صفحة)، ولما اشتد القصف، واقترب من المطبعة، تحركت أنا وبعض الإخوة وقمنا بشحن

قيدون. ونحن الآن في قيدون، وسيكون الكلام فيه أطول ما يكون. بانذكر طوله والعرض وأبواره وقلة ماه وكريفه، وبانذكر الغيل، ومن قام في عمارته وتقريب ماه إلى قيدون. والرباط ما باننساه، وعلماء وأولياء قيدون السابقين واللاحقين .." (٢٠).

اهتمام الحضارمة بطبع الشامل:

قال السيد أبوبكر بن شهاب في الرحلة ص ٢٢٠ ضمن مجريات أحداث يوم الجمعة ٢٢ شوال سنة ١٣٥٨ هـ: "ثم سعينا في جمع مال لطبع التاريخ الذي صنفه الأخ علوي بن طاهر الحداد، والذي حصل:

١- من الأخ سالم بن بصري: خمسين ربية، ٥٠.

٢- ومن الأخ سالم الجفري: خمسين ربية، ٥٠.

٣- ومن آل العيدروس: شهاب: خمسين ربية.

الجملة: مائة وخمسين ربية، ١٥٠.

٤- ومن الفقير: ١٥٠ ربية.

٥- ومن الأخ عبدالله أبوبكر الحبشي: ١٥٠ ربية.

٦- ومن الأخ حسين بن أحمد بن شهاب: ١٠٠ ربية.

٧- ومن الأخ هاشم بن محمد بن شيخان السقاف: ١٠٠ ربية.

وأما غيرهم يوعدون فقط، لكن بحمد الله، الذي جمعت من بتاوي وغيرها وسنقافورا ليس بالقليل. أما آل حضرموت: فالذي حصل من تريم: ألف وسبعمئة، ١٧٠٠ ريال فرانصة».

مصاعب تزامنت مع طباعة

الشامل:

ولم تكن مصاعب توافر المصادر، التي قدمنا ذكرها، هي الوحيدة، بل كانت هناك مصاعب آخر تنتظر الكتاب والكاتب عقب انتهاء التأليف، كانت تلك المصاعب هي الأشد إيلاماً، لأنها تسببت في ضياع مسودات الكتاب إلى الأبد، فقد التهمتها نيران الحرب

متى شرع المؤلف في كتابة الشامل؟

من سبب التأليف الذي تقدم نقله من مقدمة الكتاب، نستطيع الجزم بأن فكرة تأليف كتاب شامل عن حضرموت كانت تدور في ذهن العلامة الحداد من أيام تحريره المقالات في مجلة (الرابطه)، أي من منتصف الأربعينات الهجرية. بوصفه محرراً لكثير من مواد المجلة، فقد أخذ ذلك من وقته الكثير، إضافة إلى مشاغله الاجتماعية الأخرى من تدريس ودعوة واجتماعات، كل ذلك حال دون تفرغه.

أضف إلى أن المؤلف بعد تعثر صدور الرابطه، تلاه توقفها التام سنة ١٣٥١ هـ، لم يلبث إلا يسيراً حتى تم تعيينه مفتياً في سلطنة جوهور، في سنة ١٣٥٣ هـ. ومن ثم: فلم يتوافر الوقت الكافي لإتمام التأليف إلا بعد استقراره في جوهور، في وظيفته الجديدة، حيث تسنى له أن ينظم وقته، ويقتنص من أوقات عمله ما يكفي لتأليف عمل عظيم كهذا. ومن النصوص التي وقفت عليها، في هذا الصدد، رسالة من السيد المؤلف لقرينه السيد علوي بن محمد، بعث بها من جوهور إلى بوقور، بتاريخ ٧ جمادى الأولى ١٣٥٧ هـ، يقول فيها:

" كما أريد منكم أن تكلفوا خاطركم في البحث عن كتب الأخ عبدالله بن طاهر التي تصلكم من البلاد، ومنها بغينا معرفة متى كان الابتداء في شغل عثم الغيل، ومتى وصل إلى البلاد، بإدروا بتاريخ الابتداء والانتها، لأن الطبعة الآن وصل إلى ذكر بلد (قيدون)، وأخبروني من هي التي أوصت بالدرهم للغيل؟ وكم كان القدر؟ وكم بذل الشيخ أحمد باسلامة؟ ولو بالتقريب.

والطبع الآن في الباب الذي هو تحت عنوان: (وصف بلدان حضرموت ووديانها). وقد ذكرنا الجبال والأودية، من القرحة، وإذا وصلنا إلى بلد ذكرنا أهلها ومن كان فيها من أهل الفضل، وشيء من تاريخها إذا وجد، كل ذلك باختصار.

وقد تم وادي دوعن والأيسر إلى



69

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

١. عقود الأملاس: ص ٢٥٣-٢٥٤.
٢. السابق: ص ٢٥٤.
٣. باذيب، أضواء على حركة طباعة التراث: ص ٣٧٧-٣٧٢.
٤. سارجنت، المؤرخون وكتابة التاريخ الحضري، تعريب سعيد النوبان، (عدن: مطابع جماعة عدن، د.ت): ص ٧٧-١٠٥. مع التنويه إلى أن التعليقات على المقال هي للكاتبة نفسها، وقد ميزتها بحرف (س).
٥. بعض هؤلاء المؤرخين، ومنهم صلاح البكري، قد تمت الإشارة إليهم في مقالي: (نشوء المؤرخين الحضريين في المجتمع العربي): لندن: العدد ١١١ / ٩٥٠ م: ص ٨-٩. (س).
٦. كلام غير صحيح، وقد تقدم في ترجمته ما يغني عن تصديق كلام سارجنت هذا.
٧. هذه المعلومة غير صحيحة أيضاً، فقد ظل المؤلف على رأس وظيفته، رغم المحن والشدائد التي قاساها في أثناء الحرب العالمية الثانية، وبقي في جوهر إلى وفاته.
٨. لم تناقش هذه المصادر هنا من بين تلك الأعمال (النفحة العنبرية في أنساب خير البرية)، والتي توجد منها نسخة واحدة فقط في بتافيا بحوزة علي بن جعفر السقاف، وفي عدد ١٢٣٠ من (النهضة الحضرمية): أشير أنه مازال يكتب التاريخ، وتمتد معلومات إلى العمرة إذ نشر مقالاً في (الرابطة العلوية): ٢ - ص ٩٧. (س).
٩. عقود الأملاس: ١/٢٨، ٣٢، ٤٤. وفي أثناء كتابتي هذا المقال سعدت باستلام رسالة من وزير التربية المغربي بالرباط، ومنني بالمعلومات التالية من مخطوطة (حوالات حبسية) في مراكش: "تنص سجلات الأوقاف المغربية التي ترجع لأوائل الدولة العلوية الحاكمة سواء منها ما هو مخطوط أيام المولى إسماعيل أو محمد الثالث على أن التزامات المغرب سنوياً نحو الحرمين الشريفين، وأهل الحجاز ومصر وحضرموت كذلك كانت تقدر بألف الدنانير.. وأنه ينوب منها أهل البيت باعلوي باليمن وحضرموت مائة دينار." (س)
١٠. كان على اتصال بعلماء كثير. (س)
١١. الجنيذ، العقود الجاهزة: ص ٢٣٤.
١٢. الشامل: ص ٢.
١٣. الشامل: ص ٣-٢.
١٤. الشامل: ص ٣-٢.
١٥. الشامل: ص ٣-٢.
١٦. الشامل: ١٣٧.
١٧. الشامل: ص ٦٧.
١٨. الشامل: ص ١٨٤.
١٩. الشامل: ص ٢٣١.
٢٠. سرور الفؤاد: ٢ / ٨٧١-٨٧٢.
٢١. باذيب، السيد أحمد بن عمر بافقيه: ص ١٦٩ بافقيه، الهامش. العقود الجاهزة: ص ٢٣٤.
٢٢. الشامل: ص ١١٩.
٢٣. الشامل: ١٣٧.

بأن هناك جزءاً ثالثاً كان المؤلف قد شرع في وضع ملامحه العامة. من ذلك قوله: "... وهذا استطراد مختصر، جره ذكر طريق السيارات، وموضع ذكر ذلك، بأبسط مما ذكر، في الجزء الثالث، الذي نرجو من الله الإعانة عليه، بفضلته ومنه، آمين" (٢٢). وقوله: "... فإننا حررنا هذا التاريخ بالبلاد الملايوية، أيام حرب الأمم الكبير، فبعد عنا كثير من المظان، والفوائد التاريخية، التي يحسن إلحاقها بهذا المجموع، فعمسى أن يعين الله على إلحاقنا لها بالجزء الثالث" (٢٣).

ومن النصوص التي تصلح أن تكون دليلاً وخيطاً للباحثين، وحافزاً على مواصلة البحث عن بقية مسودات هذا الكتاب، ما جاء عند السيد الجليل علي بن حسين العطاس (ت ١٣٩٦ هـ) دفين جاكرتا رحمه الله، في كتابه القيم (تاج الأعراس)، حيث قال، بعد أن نقل قصة اليهودي الهندي المعمر، الذي لقيه بعض ... السيد حسين بن أحمد العيدروس، في سياحته في بلاد الهند، وسمعا منه عدد من أقرانه والآخذين عنه، وهي طويلة، قال عقبها: «وقد روى هذه الحكاية أيضاً، الأخ العلامة المحقق علوي بن طاهر الحداد، في (الجزء الأول) من كتابه «الشامل في تاريخ حضرموت»، ذلك النص غير موجود فيما بين أيدينا من (الشامل)، وهو الجزء المائل بين يدي القارئ الكريم، ففي هذا دلالة كبيرة على وجود مسودات أو أجزاء منسوخة من الكتاب تقبع في شيء من المكتبات الخاصة بجاكرتا.

الهوامش:

- (*) دكتوراه في أصول الدين، جامعة عليكرة، الهند. من مواليد مدينة شبام، حضرموت. باحث في الشريعة الإسلامية، ومهتم بالتراث عموماً، وبـتاريخ حضرموت على وجه الخصوص. صدرت له عدة مؤلفات، وتحقيقات لكتب تراثية.

تلك الملازم المطبوعة في سيارة شحن، ونقلناها بعيداً عن المطبعة، التي ما لبثت أن اشتعلت فيها النيران!

أصداء طباعة الشامل:

طبع في سنة ١٣٥٩ هـ بالمطبعة الأحمدية (أحمد برس) في سنغافورا، وهي المطبعة الشهيرة بها آنذاك، وفيها كانت تطبع مجلة (العرب) التي كان يديرها الأستاذ أحمد عمر بافقيه. وكان موقعها في شارع الملكة فكتوريا. قال السيد أبوبكر بن شهاب في رحلته: "وقد طبع التاريخ في سنغافورا، المسمى بالشامل، إلى صفحة ٢٣٢، والآن بقي متوقف من عدم البياض، وتطور الوقت، ربنا يتممه على أحسن حال، لأنه با يفيد كثير، لم يسبق مثله في تاريخ حضرموت، والذين هم أكثر المساعدين لهذا العمل: السيد الهمام إبراهيم بن عمر السقاف، والولد النشيط عبدالله بن أحمد بن يحيى، ومن بعدهم كثير من العلويين".

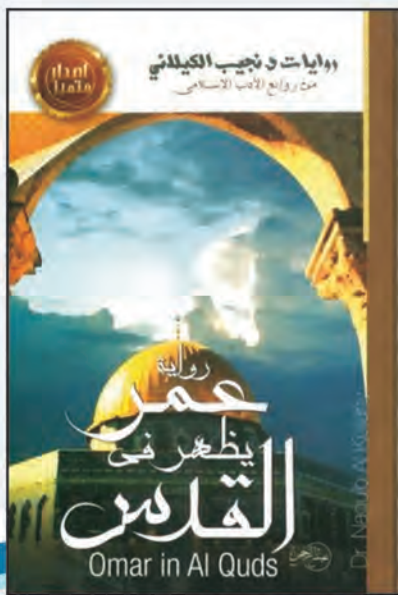
تفاعل الناس وتفاءلوا بطبع هذا الكتاب النافع، وجاءت الرسائل من الأقطار للتهنئة، فمن رسالة مؤرخة في ٢١ محرم ١٣٦٠ هـ من الحبيب عبدالله الشاطري إلى السيد علوي بن طاهر: "وبلغنا أنكم جمعتم تاريخ حضرموت، وأنكم عزمتم على طبعه، ربنا يأخذ بأيديكم، ويقيض من يساعدكم على طبعه، حتى ينتشر في الأفاق، وينتفعون به الناس، مثل ما انتفعوا بكتبكم السابقة: (القول الفصل)، وغيره من كتبكم المؤلفة، ربنا يمتع بكم في عافية، لنتفع بكم الخاص والعام، ويهدي بكم كافة أهل الإسلام".

أين بقية أجزاء الشامل؟

ترسخ عند المطلعين على هذا الكتاب في طببعته الأولى، أنه مؤلف في عدة أجزاء، وشاع على الألسن أن المؤلف وضعه في ٣ أجزاء، وذلك الأمر الشائع ليس بالغريب، وليس من الرجم بالغيب، فقد ورد في ثنايا الكتاب عبارات تصرح

عن المقبولية الفنية في رواية : (عمر يظهر في القدس)

لـ " نجيب الكيلاني "



ما يشبه المقدمة :

المقبولية الفنية لظهور عمر في الرواية ، وكيفية معالجة هذا الأمر للوصول إلى استساغة القارئ وإقناعه ، مسألة أعد لها الكاتب فنياً إعداداً تُفدّه في الرواية على مراحل متدرجة في منطقية فنية تحدث في الراوي من لحظة اليأس المظلمة حتى بزوغ فجر عمر وظهوره في الحلم ، هي مراحل وحالات مر بها الراوي تشبه المراحل والحالات التي يمر بها الأنبياء والمصلحون منذ اليأس من الناس في اتجاه يذهب نحو الابتعاد عنهم والخروج من أمكنتهم نحو الفضاء والاتصال بالآفاق والأنس بالطبيعة وحب الوحدة والانعزال ، حتى تبزغ في النهاية المعجزة في حلم يشبه اليقظة أو يقظة حادة تشبه الحلم :

– الجنون الذي يشبه الحكمة :

إن حالة اليأس هذه تؤثر كثيراً على العقل فتجعله يخرج عن طبيعته نحو الجنون ، ولكنه الجنون الذي يكسر قانون العقل الطبيعي المنطقي والحسي ويفتح فيه إمكانية لمنطق أقوى وحكمة أوسع ((كانت أُمي تنظر إلي بوجهها الشاحب الحزين والدموع تترقرق في عينيها ، ولعلها تظن أنني قد أصبت بنوع خبيث من الجنون ينبع من هذيان نسميه حكمة ومنطقاً قوياً وتفسيراً جذاباً للأحداث الجسام التي يرتج لها كياننا)) ص : ٦ . وغير بعيدة عن هذا السياق الاتهامات للأنبياء بالسحر والجنون في القرآن الكريم: ((كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون)) الذاريات : ٥٢ .

– اليأس الذي يشبه العقاب :

كان الراوي يائساً يائساً شديداً ، لكنه اليأس الذي يشعر معه الإنسان أنه مسئول عنه ومتسبب في نتائجه التي تبدو عقاباً على تقصيره وإهمال القيام بواجبه ، فهو يأس لا يؤدي إلى الهدوء والاطمئنان والركون إلى التسليم بالواقع ، وإنما هو يأس محرّض فيه كثير من القلق والرغبة والتفكير في الخروج منه ، نتعرف عليه من لغة الراوي في خطابيه لأمه : ((تقولين إن اليأس كفر ورحمة الله وسعت كل شيء ، إن كلماتك صواب لكن هناك يأس قد فرض علينا فرضاً لا حيلة لنا في رده أبداً إنه قدر ، وهو في نفس الوقت عقاب ، نحن الذين جدلنا نسيج الهزيمة بعبثنا ولهونا واستهتارنا)) ص : ٦٠ ، ٥ .



د. أحمد سعيد عبيدون



الأديب د. نجيب الكيلاني



أبسطها ، وأتنفس بقوة ... وشعرت بيد حانية تربت على كتفي في حنان ورفق ، فبذا برجل مديد القامة مشرق الوجه مشرب بحمرة تضفي عليه لحيته البيضاء وقاراً زائداً ... سلام الله عليك)) ص : ٨ . ومنذ هذه اللحظة تبدأ أحداث الرواية الغربية .

النوم الذي يشبه اليقظة :

لا تنتهي الرواية إلا بغيبوبة جديدة ، نوم في الحلم ، يستيقظ منه الراوي وأصدقائه على اختفاء الخليفة عمر : ((وأخذتنا سنة من النوم لم نستطع أن نغالب النعاس ، وبعد فترة لا أدري أطالت أم قصرت تيقظت وأخذت ألتفت يمنة ويسرة وصرخت في رعب : الخليفة !! أين الخليفة ؟! وأفاق الإخوة من نومهم مذعورين دهشين ...)) ص : ٢٢٣ .

هذه هي ما عنيت بها (المقبولية الفنية) في الرواية بحيث أصبح عمر بن الخطاب في خطاب الرواية (فكرة) نسمعها في التاريخ وفي خطب الجمعة والآن نراها مجسدة في شخصية مقنعة في الرواية مما يعيدنا إلى العنوان (عمر يظهر في القدس) فنرى كلمة (عمر) كلمة أقرب إلى التنكير منها إلى التعريف يفتح معها المجال لظهور (عمر) ما ، بوصفه قيمة وفكرة أكثر مما هو شخصية ، كما أن كلمة (يظهر) تحمل في إشارتها دلالة الخفاء كما النجم الذي يظهر فجأة ثم يغيب ، وتنتهي الرواية وتبقى الفكرة مفتوحة على الزمن لا تنتهي .

للمعتدين وينحني باللائمة على المغلوبين المظلومين ويتغنى بالحق والعدل والسلام)) وهذا الأمر يزيد من الضغط على الراوي مما يجعله في حالة من التعب والإجهاد التي تثقل أجفانه وتضعف تركيزه فيغيب عن الوعي : ((أكاد أختنق وأجفاني تثقل وتثقل ، والإرهاق يجعلني عاجزاً عن الحركة ، كل شيء يضطرب في ذهني ، لكأني مقيد ومعلق بين السماء والأرض لا أستطيع الهبوط أو الصعود ، هل توقفت قوانين الطبيعة ، أم أنني أضرب في عالم غامض غاية الغموض)) ص : ٧ .

عمر الذي يشبه المعجزة :

هذه المراحل الخمس كلها ضرورية لإحداث المعجزة (ظهور عمر) واللطيف أنها تمثل تدرجاً فنياً ليليل يزداد فيه السواد حلقة ابتداء من اليأس وانتهاء بالغيبوبة مما يجعل من هذه المراحل تزداد سواداً حتى اللحظة الأخيرة التي يبرز فيها فجر عمر ؛ كانت عينا الراوي تثقلان في الواقع وتثقلان حتى يغيب عن الوعي لكنهما الآن تنفتحان في الحلم ويستيقظ يتحسس نفسه ويتأكد من يقظته وهو يواجه عمر ((... لفحت وجهي المحتقن الملتهب أنفاس عطرية ندية ، أحسست أن يداً سحرية تصب في قلبي وعقلي قطرات من الراحة والسكينة والرضا ، حاولت أن أفتح عيني فتدفق النور ، يا إلهي ماذا جرى ، أخذت أتحسس جسدي وأفتح عيني ثم أغلقهما وأقبض يدي ثم

الهروب الذي يشبه العودة :

وهي مرحلة ينفصل فيها الراوي عن البيئة التي يعيش فيها ، والناس الذين كان يتصل بهم ، والواقع الذي يعيش فيه ، وهو خروج ليس للتخلص من هذا الواقع بقدر ما هو رغبة من أجل العودة إلى إصلاحه وأمل من أجل تغييره ، تماماً مثل الهجرة التي قام بها الرسول والمسلمون بشكل مؤقت حين كانوا في مرحلة ضعف واضطهاد ، وهذا ما نتعرف عليه في لغة الراوي بقوله : ((ووليت هارباً قاصداً خارج المدينة ، لم أكن أحمل حقيبة أو أضع على عيني منظاراً أسود ... وفي مكاني المعزول حيث الهدوء والعزلة والصمت والأفاق الرحبة)) ص : ٧ .

الشجرة التي تشبه الصديق :

في ظل هذا الخروج من المدينة ، وهذه المحنة الكبيرة ، لأبد من مكان يلتجئ إليه الراوي هنا وليس أمامه غير الأفق المفتوح أرضاً وسما ، كانت السيدة مريم في محتنها التجأت إلى شجرة : إلى نخلة ((وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً غنياً فكل واشربي وقرري عينا)) مريم : ٢٦ . ومثل هذا الموقف هو ما نرى الراوي يمر به : ((جلست في ظل شجرة عتيقة كانت تشدني إلى هذه الشجرة ألفة وحنين من نوع غريب ، وجلست مسنداً ظهري ورأسي على جذعها الضخم الراسخ ، وعشرات الأفكار تصطرع في رأسي المتعب)) ص : ٧ . لم يكن هنا هز ولا رطب ولكن الموقف يضع بدلاً عنهما كلمات: الألفة والحنين والغربة .

الغيبوبة التي تشبه النوم :

قبل أن يدخل الراوي في الغيبوبة نراه يستحضر العالم أمامه في لحظاته الأخيرة ويراه كما هو : لم يتغير ولم يتبدل : ((ملامح الأرض لم تتغير ، السماء كالعهد بها والطيور تمرق في الأفق الكبير ، والشمس تصب دفتها وأشعتها ، لا تكثرث لما جرى وما يجري ، والعالم موقفه يدعو إلى الحيرة يصفق



عندما ننظر إلى واقع إشكالية الشعر الحديث بعين الناقد المطلع على أكثر ما قيل فيه من آراء متصادمة نرى أنفسنا وكأننا - مع الأسف - ندور في حلقة مفرغة ، بل إننا أكثر من ذلك نرى من خلال هذه التصادمات ما هي ماهية الشعر ، فالشعر شكلاً ومضموناً لدى شعرائنا المحافظين ليس إلا شعوراً ووزناً مقفى ، وبالعكس لدى شعرائنا "المحدثين" فهو شعور مرتبط بموسيقى متحررة من التكرار المقفى العروضي؛ إذ إن المعركة الدائرة بين الفريقين ليست معركة مضمون كما يخال، وإنما هي معركة وزن مقفى . هكذا نرى الشعر من خلال هذه المعارك .

إننا لا نبالغ إذا قلنا صراحة إن بعض شعرائنا ونقاد الشعر لم يعوا حقيقة هذا الشعر، فنحن عندما نطالع كثيراً ممّا كتبته النقاد والشعراء عن الشعر وماهية الشعر نراهم لا يخرجون عن نطاق الشكل لا المضمون ، فهم يتخبطون خبط عشواء كأنهم لا يريدون الفكّك منه .

بل لا نغالي إذا قلنا إن روح الأصالة في شعر عمر بن أبي ربيعة أقرب إلى واقعنا الحضاري من نزار، فقصائده بعضها ليست شيئاً باستطاعتنا أن نعتبرها بحق مكتسبات شعرية حضارية وذات رؤيا شعرية.

ونقادنا اليوم كما هم نقادنا بالأمس تبهرهم تلك الكلمات الرنانة؛ لأن كل ما هو شعري لديهم ليس إلا الشكل والمضمون ، الشكل بكل ما لديه من موسيقى خارجية. أما الرؤيا التي هي الشعر ذاته فلم تنل حظاً وافراً من التفاتهم إليها بالنسبة للمضمون . .

ولكن لو نظرنا بعين الباحث الجاد نجد أن نقادنا معذرون وغير معذرين في آن واحد، فهم معذرون لأن أكثر قصائد الشعر الحديث والشعر التقليدي معدومة من الرؤية المثقفة الحضارية الحقة التي تتغلغل في أعماق النفس

العاطفة والشعور أخيراً ، وأن كل ما عداه ما هو إلا زيف وهراء " ، وأن الشعر برأي نزار القباني وهو من زعماء الفريق الثاني ما هو إلا شعور متحرر من مترسبات قوالب التقليد، وأن كل ما عداه من أعمدة شعرية مقفاة عصماء ما هي إلا حقيقة منعدمة فيها المعنى الكامل لروح الشعر الحديث .

وإذا نظرنا إلى أكثر القصائد لشعراء محدثين نراها دائماً متلوثة بعقدة " التحرر "، التي ترن في مسامع كل من هب ودب ؛ فقصاصندهم من ذلك النوع المصاب بالتلوّث والفقدان تلوّث القصيدة بعقدة "التحرر" وفقدانها لروح الأصالة الشعرية الحقة ، فإذا تناولنا أعظم قصيدة لشاعر كبير من الشعراء المحدثين كنزار قباني مثلاً ، نجد أن التحرر لديه ما هو إلا الشكل فقط . فلا فرق بينه وبين عمر بن أبي ربيعة ،



عبدالله علي باسودان

إن انعدام روح البحث عن الجذور الأصيلة لمأساة واقعنا الحضاري في جميع المجالات ما هو إلا المأساة ذاتها التي تنخر - لا شعورياً - أقبية عقول هؤلاء النقاد والشعراء المصابين بالتلوّث والفقدان تجاه إشكالية الشعر الحديث ، فمن المستغرب أن نقرأ لكاتب " كبير " من الفريق الأول كعباس العقاد يقول بأن الشعر " ليس إلا موسيقى لغوية أولاً وقبل كل شيء ثم تأتي



73

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

المحيطه بذاتنا.

إن التحرر بمعناه الشعري هو خلق لغة وعوالم جديدة غريبة عن عوالمنا العادية المكبله بأغلال المادة؛ لأن كل عمل نثري جبار يعتبر مادياً حالماً يقذف به العقل إلى الخارج ، وأما كل عمل شعري فيعتبر روحياً حتى في حالة توجده: لأن الرؤيا هي أسمى لا محسوسة أبداً ، ولماذا قيل إذن هذا شعر وذاك نثر؟ لأن الفرق ما بين الاثنين شاسع ولن يلتقيا إلا بالتقاء المادة والروح . إن الأشياء التي هي من صنع العقل باستطاعتنا أن نقيمها بحجج ودلائل، وأما التي هي من صنع الروح فليس بمقدورنا ذلك .

وما نيل المطالب بالتمني

ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
نجد أن كل عصب في البيت مزدحم بكل ما هو فكري، فلو قال ناثر : ليس نيل المطالب هو أن نتمنى وإنما هو أن تؤخذ الدنيا غلابا نجد أن لا فرق بين قول الناثر وبين شوقي إلا الوزن والقافية فقط، فأين الشعر هنا في قول شوقي ، أو قول العقاد في البيت الآتي :

يا جوهر الحسن لا تضعني

لديك بالموضع المهان
فبيته عبارة عن خطاب اعتيادي بمقدور أي ناثر عادي أن يقوله: لأن روح الأصالة الشعرية الحق ذات الأبعاد النافذة إلى

الشاعرة . ولا معذرون لأنهم قلما يلتفتون إلى هذه الناحية التي هي بمثابة الشعر ذاته : ذلك لأن الرؤيا بكل ما لديها من قبح وجمال تحمل في ثناياها إرهافات عبقرية فذة حاطمة لكل ما هو نهائي ، إنها مطلق يتقرب جميع الأبعاد والأفاق المكانية والزمانية. وجميع الفلزات العبقريّة التي تصطم بأعماق الفنان أو الشاعر في بعض لحظات تجليه ما هي إلا فلذات رؤيا صادمة لكل ما هو محدود؛ لأن كل ما هو محدود ما هو إلا حقيقة قديمة في وقت ما ، وكل ما هو لا نهائي ما هو إلا المطلق ذاته.

ولو نظرنا إلى الأعمال الشعرية لوليم بليك وشكسبير ورامبو نجد أن الرؤية في بعض قصائدهم لا تزال تعيش معنا، ولا تزال نعتبرها حقيقة، أما الأفكار معدومة الرؤية التي هي من عمل العقل والواقع فقد تلاشت، فالرؤيا هي كل شيء هي الروح ذات الأبعاد اللامتناهية. نرى إدجار الن — وهو من أفذاذ الشعراء العالميين يقسم القوى الطبيعية الإنسانية إلى عقل، وضمير، ونفس، وأن الأخيرة هي وحدها المسؤولة عن الشعر؛ ذلك لأن الشعر الحق هو الذي يصدر عن النفس ، لا عن العقل؛ لأن العقل من اختصاص النثر، والشعر من اختصاص النفس.

وإذا اعتبرنا الشعر والنثر هما جناحا الأدب، فإنه لا يجوز أن يتلاقى الجناحان في موضع واحد. وهذا ما يثبت لنا أن النفس من اختصاص الشعر والعقل من اختصاص النثر.

وإذا كان الشعر والنثر جميعاً من عمل العقل فمن المستحيل أن نميز الشعر من النثر إلا بالوزن العروضي فقط؛ إذ إن الفرق بينه وبين النثر هو الموسيقى، وعلى هذا الأساس نقول إن الشعر عند المقلدين ما هو إلا صناعة، والصناعة لا تأتي إلا عن طريق العقل. وصدق قدامة بن جعفر وأبو هلال العسكري (في كتابيهما "نقد الشعر" و"كتاب الصناعتين").

فمثلاً عندما يخاطبنا شوقي ببيته الشهير:

جميع فلذات العبقريّة التي تصطم بأعماق
الفنان أو الشاعر في بعض لحظات تجليه
ما هي إلا فلذات رؤيا صادمة لكل ما هو محدود

والرؤيا هي خلاف الخيال الذي يهتم به شعراؤنا اليوم وقديماً؛ لأنها في الواقع حصيلة تصادم ثقافي وتازمات وجودية ميتافيزيقية تجعل من الشاعر أو الفنان يتلقف ما لا يوجد في عالمنا المحسوس من عوالم وأبعاد حاطمة لأفكارنا، والشاعر الحديث - كما قلنا في مقال سابق لنا - ليصبح ذا رؤية عميقة يجب أن يتشبع بثقافات عميقة؛ إذ إنه يجب أن يكون ذلك المثقف الحالم على حد تعبير سيجمون فرويد ، وذلك طبعاً ليدرك واقعه الحضاري الوجودي من جميع الأبعاد ، فالشاعر الكبير هو صاحب الرؤيا الكبيرة؛ لأن الإيقاعات المصيرية تتطلب حتماً لكشفها ثقافات عميقة تنبثق من كل الرؤى المرهصة والمعربة لتحركاتنا الثقافية، وكل الرؤى الحق لا تنبثق إلا من خلال إخلاص الذات الشاعرة المثقفة الواعية لواقعها

أعماق اللامادي معدومة كلياً من كل أعصاب هذا البيت، ولأن لا فرق بين قول أي ناثر عادي في مخاطبته لنا بمعنى هذا البيت إلا في الوزن العروضي فقط؛ لأن كلمات البيت ليست متدفقة بأية رؤية. وكذلك إذا قرأنا قول نزار قباني نجد المعقولية - التي من اختصاص النثر - تنخر أقبية شعره ، فعندما يقول :

حببي لدي شيء كثير أقوله لدي شيء كثير
من أين يا غاليتي أبتدى وكل ما فيك أمير أمير

نجد العصب الموسيقي البسيط مرتبطاً - أيضاً - بأحاجيل العقل الواعي الذي هو من عمل النثر، كما أننا نجد ذلك في بقية أبياته الأخرى التي يعتبرها متحررة، فالتحرر في الشعر ليس هو أن نطلق القوافي ونهدم الوزن، وإنما هو أن نتحرر من كل ما هو محدود من كل ما تكتنفه المادة بجميع إشكالاتها



74

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

القومي والوجودي الذي تعيشه؛ لأن التآزمات الداخلية ما هي إلا ردود فعل لتآزمات خارجية عاشها الشاعر في كل لحظة من لحظات حياته المتلغفة بضباب الإيقاعات المصيرية الغامضة المعرية لذاته المعرشة في أقبية تصوره الذاتي اللا منكشف له إلا من خلال الرؤيا العميقة التي تنبع من خلال واقع الذات الوجودي. فالرؤيا هي بمثابة اكتشاف وخلق جديد للأشياء. ونحب أن نوضح للقارئ أن كلمة الوجودية الواردة في بحثنا ليست وجودية سارتر أو كامو وغيرهم بل هي اللحظة التي يعيشها الشاعر. وأخيراً نحب أن نوكد أن الشعر العربي القديم شعرٌ في غاية الروعة والجمال

الالتزام في الشعر ورفضوا اشتماله على الحكم والأساليب النثرية والخطابية كما نراها في أشعار كثير من الشعراء، وجعلوا كل ذلك مختصاً بالنثر؛ لأنه إذا كان الشاعر مفكراً أو حكيماً أو خطيباً مفوهاً فماذا يتبقى للنثر؟ إذ لا فرق بين الشاعر والنثر إلا في الوزن العروضي، وهذا يعتبر صناعة جرسية، وهل ذلك يعتبر شعراً؟ وكما قلنا في دراساتنا عن الشعر و النثر، الأدب له جناحان هما جناح الشعر وجناح النثر؛ إذ ليس بمقدور الجناحين أن يلتقيا مع بعضهم البعض في مكان واحد، إلا أننا نعتبر شعراء التراث العربي القديم من عصر ما قبل الإسلام وما بعده من العصور الزاهرة، العصر الأموي

إمام دار الهجرة، هل كانت الرؤيا لتكون مختلفة عند كل منهما؟ أكيد. لو عاش الأديب اليمني الكبير علي أحمد باكثير طيلة حياته الأدبية في حضرموت وليس في مصر هل سيكون له نفس الفكر والإبداع؟ كلا. لو حاول أحدهم محاكاة الشاعر المتنبي في عصرنا هذا، في نفس الفكر والثقافة والأمق هل كان سيكون له شأن المتنبي؟ لا أعتقد، لو جاء زعيم سياسي اليوم وكان خطيباً مفوهاً على طريقة جمال عبد الناصر مثلاً، هل كان سيكون له نفس التأثير في الجماهير؟ لا أعتقد، حيث إن المتبصر يرى حتى في المناخ تأثيراً، فتجد مثلاً البلاد الحارة الغناء فيها يميل للطول والهدوء الشديد، بعكس البلاد الباردة.

لذلك نقول إن لكل زمان أفكاره ومبادئه ونظرياته، فالعالم عبارة عن اكتشافات ونظريات، وأفكار متصادمة، وأقرب مثال - إذا رجعنا إلى الأمثلة - نجد أقرب دليل على ذلك، ذلك الإفلاس المادي الذي سببته النظرية النسبية لأبرت اينشتاين، فقد كانت الفيزياء الكلاسيكية قبل وقت ليس ببعيد تعد واقعاً مسلماً به في ذلك الزمان، فوزن حجرة معينة - مثلاً - هو وزنها الحقيقي وإن انتقلت إلى أي مكان، ولكن بعد أن جاءت النظرية النسبية ألغت ذلك الذي كان سائداً في ذلك العصر، أي أفلست هذا الرصيد المادي الذي كان يملكه الإنسان كحقيقة مسلم بها؛ إذ لم يعد وزن هذه الحجرة هو وزنها الحقيقي، فقد يخف أو يثقل وزنها في طبقة من طبقات الفضاء العليا، وكذلك الحال في المحسوسات والمدرجات التي هي من صنع الإنسان واكتشافاته. ونحن هنا لا نقصد بالمحسوسات والمدرجات بالحقائق والثوابت الإيمانية التي هي أساس وجود الإنسان في هذا الكون..

ونحن هنا لسنا ضد الوزن والقافية في الشعر، أو التحرر من هيكل القصيدة التقليدية العمودية وبنائها، أو الاحتفاظ فقط بوحدة التفعيلة وقوة الإيقاع الداخلي، فالوزن والقافية في

إن كل عمل نثري جبار يعد مادياً حالماً
يقذف به العقل إلى الخارج ، وأما كل
عمل شعري فيعد روحياً ؛ لأن الرؤيا
هي أشياء لا محسوسة أبداً .

والعباسي والأندلسي وغيرها من العصور الأخرى جميع هؤلاء الشعراء نعتبرهم شعراء بحق من الطراز الأول، ذلك لأنهم مبدعو عصرهم؛ لأن كل ما قالوه من الشعر ما هو إلا انفتاح زمني ومكاني، وإنه بحق تفاعل زمني ومكاني مع اللحظة الحضارية التي عاشوها لأنه قادر على استيعاب تجربة العصر، عصر البساطة والوضوح والوثوقية المحيطة بعوالمهم. لذلك علينا أن نقرأه كمادة تاريخية ونعتر به لأنه تاريخنا لا أن نقلده ونجتره. وكما أشار الكثير من نقاد الأدب نرى أن اللحظة الحضارية هي التي تحكم النظام الداخلي في رأس المبدع شاعراً كان أم فقيهاً قانونياً أم فقيهاً دينياً أم خطيباً. ترى لو شاءت الأقدار أن يكون الإمام مالك أندلسياً وابن حزم هو

بالنسبة لزمانه ومكانه، وهو تاريخنا الذي نعتر به، ونتخذ كمادة تاريخية لا غنى عنها، لكن لا أن نجتره ونقلده، وإلا فماذا يتبقى للشاعر المقلد للشعر القديم من إبداع. كذلك هناك قصائد ذات وزن وقافية لبعض شعرائنا فيها من الإبداع الشيء الكثير لأنها متشبعة بالرؤيا؛ كقصائد بدر شاكر السياب، ونازك الملائكة، وفدوى طوقان، وكثيرين غيرهم.

لقد قسم كثير من علماء النفس ونقاد الأدب، وكذلك الشاعر الأمريكي إدجار الن بو وهو من أفذاذ الشعراء والنقاد العالميين الطبيعة البشرية إلى عقل وضيم ونفس وأن الأخيرة هي وحدها المسؤولة عن الشعر، ذلك لأنه يصدر عن النفس وغايته كشف الجمال والرؤيا والإبداع داخل النفس البشرية، ونفوا



هناك من شعراء ما قبل الإسلام من تخطى عصره في توظيف الرمز والرؤيا في بعض أشعاره كامرئ القيس.

فسرها كثير من شراح معلقة امرئ القيس هي صورة حقيقية من معاناة الشاعر النفسية وهي صورة أخرى من حياة الشاعر البائسة التي يسيطر عليها الألم والوحدة والقهر العميق وهو محق. في كل أحزانه التي تفرقت به تفرق السبل وأقبلت عليه من كل حذب وصوب فأصبح أشقى من غبار في مهب الريح من طرد أبيه له ومن غربته ووحشته وفقد أمه إلى هجر حبيبته وبنت عمه سلمى أو كما كان يحب أن يسميها فاطمة التي تركته ولم تغفر خطاه غير المقصود بدار جليل ومائه والقصة معروفة، إلى قتل أبيه وسعيه للثأر ثم أخيراً إلى تفرق الكل من حوله وصار طريداً بعد أن كان يطارده، وأضحى مطلوباً وقد كان طالباً كما شرحه كثير من شراح شعره.

هذه الأبيات حيرت كثيراً من الباحثين والنقاد قديماً وحديثاً، كل فسرته حسب رؤيته، وهنا تكمن العبقرية والإبداع في شعر امرئ القيس، لذلك نقول إن امرئ القيس تخطى زمانه كأنه سابق جميع العصور من بعده.. وهذه الأبيات ليست من صنع الخيال ولا من صنع العقل كما يعتقد البعض وإنما هي رؤيا عميقة عاناها الشاعر في لحظة من لحظات معاناته وقلقه وتأزمه، وهي من أروع ما أبدع فيه امرئ القيس في معلقته، حيث إن الرؤيا في الشعر هي موجة إبداعية ينفث فيها الشاعر على عوالم إنسانية ثرية في التعبير عن معاناته وانفعالاته وتأزماته.

* هذا المقال قد نشر لي في صحيفة الطليعة الحضرية قبل ٥٠ عاماً. وأعدت المجلة نشره لأهميته وتاريخيته.

الشيء بالشيء لوئاً مع إضافته أن فيه معنى "الهول". أما "ابن رشيق" فقد ذكر في كتابه العمدة أن "البيت الأول يغني عن الثاني، والثاني يغني عن الأول ومعناهما واحد." وعندما نتناول البيت التالي من معلقة امرئ القيس:

فقلت له لما تغطي بصلبه

وأردف أعجازاً وناء بكلكل .
يقول شارحو هذه الأبيات إن امرئ القيس قد أبدع في توظيف الرمز والرؤيا لوصف الليل توظيفاً ذا دلالات رائعة عميقة، حيث أضفى عليها أبعاداً إنسانية ففقد جعل ليل صلباً، وأعجازاً وهي المأخير مفرداً "عجز"، و"كلكل" الصدر وجمعه "كلاكل". وأسبغ عليه أفعالاً آدمية فهو يتمطى ويردف وينوء. وطول الليل هنا يعبر عن حزن الشاعر وتجذعه للآلام والخطوب، فالمفهوم الحزين دائماً يطول ليله ويقاسي فيه الشدائد والسهر. فتتعالى نداءات "امرئ القيس" متوسلة من هذا الليل أن ينكشف، ويصبح، ولو أنه يعاني الهموم ذاتها في الإصباح. لكان الصبح والليل سيان وهذا ما تستشفه من قوله.. "وما الإصباح منك بأمثل". فلا "حلقة الليل" رفعت همه ولا "فلق الصبح" بدد حزنه، وإنما تمازج الألوان ساهم في تعميق أزمة رؤيا الشاعر. ليختتم هذه الأبيات الوصفية بصورة ولا أروع؛ إذ يصور النجوم وكأنها ثابتة في أماكنها لا تزول كأنما شددت بحبال متينة إلى صخور شديدة الصلابة، وهذا برهان على استطالته ليلته ومعاناته العظيمة فيه. إن صورة الليل في هذه الأبيات كما

نظرنا نوع من أساسيات الشعر أو بعبارة أخرى هو نوع من المحسنات الإبداعية، وهناك من الشعراء المجددين من أبدع في شعر التفعيلة بطريقة تداعي الوزن والقافية حسب تداعي الأفكار، وهذا محمود في الشعر. وممن أبدع في شعر التفعيلة أديبنا الكبير الراحل علي أحمد باكثير، وهو أول مجدد في شعر التفعيلة في الشعر الحديث قبل بدر شاكر السياب، ونازك الملائكة، وصلاح عبد الصبور، وغيرهم من كبار الشعراء المجددين. وهناك من شعراء ما قبل الإسلام من تخطى عصره في توظيف الرمز والرؤيا في بعض أشعاره كامرئ القيس في معلقته الشهيرة:

وليل كموج البحر أرخى سدوله

علي بأنواع الهموم لينلي..

فقلت له لما تغطي بصلبه

وأردف أعجازاً وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل

بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فيا لك من ليل كان نجومه

بأماس كتان إلى صم جندل.

لقد أثارت هذه الأبيات ذات الرمز والرؤيا أصحاب البلاغة لما تشمله من عمق في الرؤيا عند الشاعر، فقد ذكر الباحثون في "الموشح" أن الوليد بن عبد الملك تناقش مع أخيه مسلمة حول هذه الأبيات من شعر امرئ القيس والناطقة الذبياني في وصف الليل أيهما أجود؟ فأنشد الوليد قول الناطقة، وأنشد مسلمة قول امرئ القيس، فضرب الوليد برجله، فقال الشعبي بانئت القضية. يعني أن قول امرئ القيس هو الأجود. هذه الرؤيا العميقة لصورة الليل عند امرئ القيس جعل النقاد والبلاغيين والباحثين يتحирون في كشف أسرارها وخباياها، فقد أيد أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين": الكتابة والشعر ما رآه ابن طباطبا في "عيار الشعر" حيث رأى أن البيت الأول يدخل في "تشبيه



ملخص رسالة جامعية عن :

شعر حسين بن محمد البار (دراسة أسلوبية) *

انطلقت الدراسة التي كشف عنوانها "شعر حسين البار - دراسة أسلوبية" عن منهج الدراسة والوسائل التي يمنحها هذا المنهج من أدوات وآليات تعين الباحث على إجراء تحليلات أسلوبية موضوعية مجردة تقرأ اللغة باللغة؛ من منطلقات التحليل الأسلوبية: الصوتي والتركيبية والتصويرية؛ بهدف الوقوف على الخصائص والسمات الأسلوبية والفنية للنص الشعري. وقد تمخضت لنا من هذه الدراسة النتائج الآتية:

أحمد سالم العامري

المتتابع، الربط المضاعف. بصورة تجعل الباحث يلتفت إليها ويلتمس أثرها، فأحياناً يُفصل بين فعل الشرط وجوابه بجمل فرعية تدل على رغبة في تحقيق المعاني وتوليد الدلالات، وفي أحيان أخرى يزواج بين أسلوب الشرط ومن الموصولة، وحروف الجر لتلتحم البنى الشعرية ويتألف نسيجها.

- ويأتي اهتمام الشاعر بأدوات العطف حرصاً منه على تماسك النص وتلاحمه، وإيصال انطباعات عامة عمن يتحدث عنهم سلباً وإيجاباً؛ فكان للواو الصدارة بين حروف العطف تليها الفاء ثم بقية الأدوات (حتى، ثم، أم، أو، لا، بل، ولكن) بنسب متفاوتة وقد جاء استخدام الشاعر للعطف سلساً وسهلاً خاصة إذا أخذنا في الاعتبار التركيز على واو العطف باعتباره ليناً يسير الاستخدام.

- حفل شعر حسين البار بالمتناصات، فقد تأثر واستقى تناصاته من مصادر عدة: كالقرآن الكريم والشعر العربي والأمثال. وكان أكثر التناصات من القرآن الكريم.

- إن اقتباسات حسين البار من القرآن تنم عن مهارة الشاعر وحذقه، وعن ثقافته الدينية العالية والروح الإيمانية

الرومانسية في شعره، وبرزت سمة تقفية الأعاريض ملمحاً أسلوبياً، وأيضاً طغت الكسرة - حركة للروي - بنسبة (٨١٪) عبر عن مشاعر الحب والألم.

- برزت مجموعة من الإيقاعات الأخرى في شعر البار، وتنوعت واختلفت تشكيلاتها، وهي إيقاعات قائمة على التكرار في مستويات متعددة (الحرف، الكلمة، الجملة، البيت). هذه التقنيات خلقت نوعاً من التألف والانسجام بين الدوال، وزادت من الدقة الشعرية. بما يدل على مدى تمكن الشاعر من أدوات الشعر والمقدرة على توظيفها.

- في المستوى التركيبي، ظهرت مجموعة من الظواهر التركيبية البارزة في شعر البار، كالتقديم والتأخير، والحذف، والالتفات، والإطناب، والتجريد، والاستفهام، والأمر والنهي، والنداء. وتفنن الشاعر في رصف دواله داخل النسق الشعري للإيحاء بدلالات متعددة، بما يحقق أكبر قدر من التأثير، فبرزت النصوص الشعرية في قالب انزياحي قوية الشعرية.

- وظف الشاعر البار آليات التماسك النصي، كالاقتران الشرطي، الاقتران

إن التجربة الشعرية التي مر بها حسين البار هي انعكاس لحياته وشخصيته وما فيها من معاني الألم والمعاناة، فقد سخر شعره في خدمة قضايا اجتماعية وسياسية، ودينية ووطنية وعاطفية.

- انحصر شعره في البحور الموحدة التفعيلة وذات الأوزان الطويلة؛ كالخفيف والطويل والكامل والبسيط، والوافر والرمز والرجز والمتقارب، بما يتناسب مع تجربته الشعرية، فقد كانت حياته جديّة، في مدحه وهجائه وعاطفته فانعكس ذلك في شعره وفي موضوعاته الجادة، ولغته الرصينة وأوزانه المتقاربة من حيث الصفات الصوتية والقيم الإيقاعية.

- أكثر البار من استعمال القوافي المطلقة لتعبر عن ثبات المعاني التي تناولها، وتمسكاً بالموروث الشعري القديم. كما أن القوافي المطلقة ناسبت مدائحه، التي تنسجم مع ما يحمله الممدوح من معاني الكرم والرجولة والعفو والوفاء.

- اختار حسين البار حرف الراء رويّاً لكثير من نصوصه الشعرية لما يمتاز به من رنين موسيقي عال. كما كان للقوافي المزدوجة حضور بارز، وهي من النزعات



77

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

- وتخرج الصورة السردية في خطاب البار الشعري إلى صور أخرى تصدر عن السرد كاللوحه (اللقطة والمشهد واللحظة).

- استخدم الشاعر عناصر السرد كالأحداث، والشخصيات، والزمان، والمكان. مما يجعلنا أمام سارد واع ثقاف هذه القنوات والعناصر ثقافة جيدة وطبقها في شعره.

- كان للصورة الرمزية حضورها الفاعل في خطاب البار؛ حيث يستخدم الصورة الرمزية مستعيناً بالمدرجات الحسية لكي يقيم نوعاً من التفاعل بينها وبين معاناة الذات، وقد برزت الصورة الرمزية وفق طوابع منها: (الفقد والألم، الطبيعية، الرموز الدينية، رموز الحرب، رموز القوة والضعف) وهذه الصور لا تجود بحركاتها وصوتها ولونها بيسر، إنما هي تومئ إلى ذلك إيماءً، وتشير إليه إشارة، وهذا برهان على براعة الشاعر وجودة نتاجه. وفي كل هذه النتائج تظهر مكانة الشاعر في عصره، وتفسر تلك المقولات التي وضعت حسين البار في رتبة رواد شعراء الرومانسية في اليمن.

ويوصي البحث بمقاربة نتاج حسين محمد البار خاصة من نواح ومناهج أخرى لم يتطرق لها، والشعر الحضرمي عامة خاصة في العصر الحديث؛ للخروج بحكم عام يكون بمثابة خط سير للدراسات الأدبية.

وفي الختام، أرجو أن يكون التوفيق حليفي في هذه الرسالة، وعسى أن يجد القارئ والباحث بغيته؛ ولست أدعي الكمال فإن وقع خطأ في الرأي أو زلل في التعبير فمن النفس والشيطان، وإن أصبت فله الفضل والامتنان، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

* رسالة مقدمة إلى مجلس كلية التربية جامعة عدن، وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، تقدم بها الطالب: أحمد سالم صالح أحمد العامري وأشرف عليها الدكتور: عبدالرحمن عمر عرفان أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية التربية جامعة عدن (١٤٣٨ هـ / ١٦ / ٢٠٢٠ م).

تفصيل الصور الوصفية واستقصاء المشاهد العامة، فاهتم بتوصيل الفكرة إلى جانب الاهتمام بالوظيفة الشعرية. - أكثر الشعراء من توظيف الصور الاستعارية؛ إذ لا نكاد نجد قصيدة تخلو من استعارة في سياقات شتى ومعان مختلفة معبرة عن انفعالاته وعواطفه، وتصدرت الاستعارة التشخيصية بقية أنواع استعاراته (التجسيمية، الإحيائية، المثلية)؛ لتخلص الصورة من الجمود، وتنقلها من السكون إلى الحركة.



- أدت الكناية دوراً مهماً في تشكيل الصورة في شعر حسين البار، وقد تميزت في مستويات ثلاثة: الكناية عن صفة، الكناية عن موصوف، الكناية عن نسبة، وهناك كنايةات أخرى برزت في (الإشارة، التعريض، التلطيف).

- كان للمجاز حضوره الفاعل في نصوص البار الشعرية تكشف في (المجاز المرسل، المجاز العقلي) أنتج كل منهما علاقتين داخلية وخارجية.

- يعد السرد أحد التقنيات التي أثرت الصورة الشعرية في شعر حسين البار، وارتبط السرد بالقصائد الملحمية التي تصور المعاناة التي عاشها الشاعر في رحلته مع الحياة، وما جرى فيها سلبية وإيجابية التي انعكست في خطابه الشعري.

- من خلال تقنيات السرد يربط البار بين الأحداث ويسدي لحمتها لتنمو الدلالة شيئاً فشيئاً حتى تكتمل وتسير بشكل طبيعي منطقي، يعتمد اللاحق منها على السابق اعتماداً متناسباً.

التي يتحلى بها.

- إن استدعاء النصوص الغائبة تدرج بين الوضوح والخفاء، فجاءت بعض النصوص منصهرةً يحوي إشارات وإيماءات في شعره، ومنها ما هو منصوص عليه أو مشتمل إشارة واضحة لصاحبه؛ حرصاً من الشاعر على الأمانة العلمية. - نهل البار من معين الأمثال، وضمنها شعره؛ فقد وظف الأمثال في شعره سواء ما كان منها قديم وحديث، وقد كان التناسل معها محدوداً لكنه؛ أفضى إلى إنتاج دلالات متنوعة.

- برزت الصورة في شعر البار مستمدة من مصادر متعددة ومتنوعة كالحياة الإنسانية والحياة اليومية والطبيعة والتراث الثقافي. ومن هذه المصادر ما هو محسوس من الطبيعة الحية مثل الإنسان والحيوان، وبعضها الآخر من الطبيعة الصامتة كالجبال والوديان وغيرها. واستخدامها يبرز طبيعة البيئة التي عاش فيها الشاعر، التي تميزت في كون الشاعر رومانسياً يحب الطبيعة ويخاطبها ويشكو إليها.

- تنوعت الأدوات في خطاب البار الشعري بين اسمية وفعلية وحرفية، وتفاوتت في نسبة الحضور، فكثف حضور بعض الأدوات وضعف البعض الآخر، ومن أدوات التشبيه التي استخدمها: (الكاف، كما، كأن، كأنما، مثل، خال). ومن خلال استقراء نصوص البار؛ نجد أن جل تشبيهاته معقدة بالأدوات التقليدية (الكاف، كأن، مثل)، وقد أكثر من أداتي التشبيه (كأن والكاف).

- أظهر استقراء شعر البار فيضاً من الصور البديعية التي نهضت على التشبيهات المختلفة، وحظي التشبيه المجلد بنصيب الأسد من تشبيهاته، فبلغ نسبة (٨٤٪) القوائم على حذف المشبه به، ووظفه في مديحه وهجائه، ليترك فرصة للمتلقي في التكثر والتأويل، بما يناسب المعاني المتضمنة. وحظي التشبيه المفصل القوائم على ذكر جميع عناصر التشبيه أقل نسبة (٦٪) من تشبيهاته، واستعان به الشاعر في

شيء من البر في ذكرى حسين البار



مرت في شهر مارس من هذا العام ٢٠١٧م الذكرى الثالثة والخمسون لوفاة المفكر والأديب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد. ولم أكن لأتذكر هذه المناسبة لولا أنني عثرت بمحض المصادفة على مقال للأستاذ رجاء النقاش في مجلة (الآداب) اللبنانية بعنوان (العقاد)، يرثي فيه الأستاذ العقاد، وذلك في عدد شهر أبريل ١٩٦٤م من هذه المجلة التي كان لها شأن في سالف الأيام واحتضنت كثيرا من الأسماء اللمعة والموهوبة في دنيا الأدب والكتابة في العالم العربي. ولم أكن لأكتشف توافق ذكرى وفاته - في الشهر على الأقل - مع ذكرى وفاة شاعرنا الحضرمي الأستاذ حسين محمد البار لولا أن أحد الإخوة الأفاضل اتصل بي هاتفياً يسألني حول ما اكتشفه من (تعارض) في تاريخ يوم الوفاة بين ما ذكره ابن الشاعر صديقنا الأديب والناقد أ. د. عبدالله حسين البار في دراسته عن والده المنشورة في العدد الثاني من مجلة (حضر موت الثقافية) وبين ما ذكره والدي الأستاذ سعيد عوض باوزير في مقاله الذي أبّن به صديقه الشاعر الكبير في صحيفة (الطليلة) الحضرمية، عدد ٢٢ أبريل ١٩٦٥م، والذي نشرناه بعد ذلك ضمن مقالات كتاب (الثقافة وسيلتنا إلى الكفاح).

والأبحاث والمقالات، في عديد من المعارف والثقافات، وساهمت في إغناء التراث العربي والعالمي بروائع من الفكر المضيء المتألق. "مات المفكر العصامي والكاتب العبقرى والشاعر الناثر الأديب الناقد فتوقفت بموته تلك الينابيع الصافية التي أمدت الفكر العربي مدة جيل كامل بروافد غزيرة من معينها المتدفق. واللافت أن والدي - رحمه الله - حدد تاريخ وزمن الوفاة بدقة بالغة، (ويوم الخميس الماضي) - بناء على تاريخ نشر التابئين (١٩ مارس) الذي يصادف يوم الخميس - هو طبعا تاريخ الثاني عشر من مارس ١٩٦٤م، وهذا - على الأرجح - هو التاريخ الصحيح الذي يتوافق مع ما

متى توفي حسين البار بالضبط؟

بداية، لعل القارئ الكريم يلاحظ أن هناك سنة واحدة تفصل بين وفاة الرجلين: العقاد في سنة ١٩٦٤م، والبار في سنة ١٩٦٥م. وقد كتب والدي رحمه الله تأسيساً للعقاد تحت عنوان (مات العقاد) ختم به مقاله الأسبوعي في صحيفة (الطليلة) الذي كان يومئذ بعنوان (مسئوليات الشعب في الدستور)، ونشر بتاريخ ١٩ مارس ١٩٦٤م، واخترت من التابئين هاتين الفقرتين: "في الساعة الثانية والرابع من صباح يوم الخميس الماضي اختفت العبقرية التي أنتجت (العبقريات)، وكتبت المعجزات الخالدات، وزودت المكتبة العربية بثروة ضخمة من المؤلفات



نجيب سعيد باوزير



79

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

نشرها الدكتور البار في كتاب بعنوان (حسين بن محمد البار)، صدر عن مكتب وزارة الثقافة م/حضر موت، وهذا هو نص القول المتعلق بالوفاة الذي ورد في تلك الدراسة: "ففي اليوم السابع من شهر ذي القعدة عام ١٣٨٤ هـ الموافق لليوم التاسع من شهر مارس ١٩٦٥ م توفي الشاعر البار عن عمر قل عن الخمسين ببضع سنين..." ولم يذكر هذا النص، كما هو واضح، أي يوم كان ذلك من أيام الأسبوع، فما هو وجه الحقيقة في هذه المسألة؟

المرجع الذي أوضح لي الأمور وحل الإشكال هو صحيفة (الطليعة) لصاحبها الأستاذ أحمد عوض باوزير. فقد نشرت (الطليعة) نعي الأستاذ البار في اليوم التالي للوفاة رغم أن الصحيفة كانت ماثلة للطبع، وهي تصدر في كل خميس من الأسبوع، وكان النعي تحت عنوان (فاجعة اليمعة) وفي مكان بارز من الصفحة الأولى، وسأخذ المهم فقط من نص النعي وهو: "... ننعي زميلنا وصديقنا السيد حسين محمد البار الصحفي والأديب والشاعر الذي توفاه الله بعد ظهر اليوم (الأربعاء)..." فالأربعاء هو يوم الوفاة ويوم كتابة النعي، أما تاريخ عدد (الطليعة) رقم (٢٩١) الصادر يوم الخميس فهو: ٨ ذو القعدة ١٣٨٤ هـ، ١١ مارس ١٩٦٥ م. ونستنتج من هذا أن وفاة البار كانت يوم الأربعاء السابع من ذي القعدة، كما ورد في مقال الدكتور عبد الله، ولكن الخطأ والوهم كان في التاريخ الميلادي، فهذا التاريخ لم يكن ٩ مارس، وأيضا لم يكن ١١ مارس كما ورد في مقال المؤرخ باوزير، بل كان ١٠ مارس ١٩٦٥ م. وقد صدر العدد التالي (٢٩٢) من (الطليعة) وهو يحمل مقالين طويلين في رثاء البار، أحدهما بعنوان (صديقي البار) للمؤرخ الأستاذ محمد عبد القادر بامطرف، والآخر بعنوان (المفاجأة المذهلة: البار الذي افتقدناه) لرئيس التحرير الأستاذ أحمد عوض باوزير، الذي تحدث بإكبار عن

عن الأستاذ باوزير أنه كان شديد الإعجاب بشوقي وكثير الاستشهاد بشعره.

وقيل أن أناقش تاريخ الوفاة الذي كان من دوافع كتابة هذا المقال، أود أن أنقل اقتباساً من مقال الأستاذ باوزير، الذي يمثل شهادة حق منه عن الأستاذ البار، وهو قد أشار إليه - أي البار - باقتضاب في مقال سابق بعنوان (حركتنا الثقافية عقيمة) رابطاً بينه وبين الأدبيين صالح الحامد وعلي باكثير، حيث قال: "أدباؤنا الذين يعدون على أصابع اليد الواحدة أمثال علي باكثير وصالح الحامد وحسين البار لمعوا في سماء الأدب قبل ظهور الحركة الثقافية الحاضرة..." وهذا هو الاقتباس الذي اخترته من مقال التأبين: "نعم.. لقد كان البار هو الابن البار الذي أعطى لشعبه من موهبته وفنه وفكره وإنتاجه وحياته كل ما يملك، لا يدخر وسعاً ولا يستبقي جهداً، وستظل آثاره الأدبية والفكرية: أشعاراً نظمها أو أغاني ألفها أو مقالات كتبها دليلاً حياً على أنه أدى واجبه كاملاً في حدود طاقته قبل أن يستريح من عناء هذه الحياة الفانية ويذهب إلى عالم الخالدين. قد يختلف الناس في الحكم على اتجاهاته الفكرية أو آرائه السياسية أو مفاهيمه الأدبية، ولكنهم سيتفقون على أنه أديب مثقف وشاعر موهوب قل أن أنجبت حزموت مثله في العصر الحاضر، رغم دراسته المحدودة وظروفه التي حالت بينه وبين التفرغ للاستزادة من العلم والثقافة".

أما عن مسألة تحديد أو (تحقيق) اليوم الذي رحل فيه الشاعر البار عن عالمنا فأمامنا الآن قولان: الأول هو الذي أشرت إليه سابقاً والذي ورد في مقال الأستاذ سعيد عوض باوزير وهو (الأربعاء ١١ مارس)، والآخر هو الذي ورد في المقال الطويل الذي نشره الأستاذ الدكتور عبد الله حسين البار عن والده في مجلة (حزموت الثقافية)، العدد الثاني، وهو عبارة عن سيرة أدبية جميلة كان قد

ذكره موقع ويكيبيديا على الإنترنت. أقول ذلك لأن الأستاذ رجاء النقاش حدد تاريخ وفاة العقاد قبل هذا التاريخ بيوم، إذ قال في مفتتح مقالته في (الأدباء): "مات عباس محمود العقاد يوم الأربعاء ١١ مارس سنة ١٩٦٤..." ونحن لا نستطيع أن نجزم أن النقاش - وهو شخص قريب من مكان وزمان الحدث - كان مخطئاً في هذا التحديد، فربما كان يستند إلى معلومة صحيحة أن العقاد توفي في ساعة متأخرة من يوم الأربعاء ثم أعلن رسمياً في وسائل الإعلام أن الرجل توفي في ذلك الزمن المبكر من يوم الخميس الذي ذكره الأستاذ باوزير في تأبينه. وسنجد أن (يوم الأربعاء ١١ مارس) هو التاريخ والزمن الذي حدده الأستاذ باوزير - وهو تحديد فيه لبس كما سنرى - لوفاة الشاعر البار ولكن في السنة اللاحقة ١٩٦٥ م، إذ قال بالحرف الواحد: "كان يوم الاثنين الماضي يوم ذكرى الأربعين لوفاة خالد الذكر شاعرنا الأديب الفذ (حسين البار)؛ فقد فجع الأدب في حزموت بفقدته على غير انتظار ودون سابق إنذار في يوم الأربعاء ١١ مارس الفائت عن عمر يقترب من الخمسين. أجل.. لقد:

فُجع البيانُ وأهلُ بمصورٍ

لبق بوشي الممتعاتِ صنّاعِ

تلك الأناملُ نامَ عنهنّ البلى

عُظُنَّ من قلمٍ أشمَّ شجاعٍ.."

وهذان البيتان اللذان استشهد بهما الأستاذ باوزير هما من قصيدة الشاعر شوقي في رثاء الأديب المعروف مصطفى لطفي المنفلوطي، الذي توفي في يوم إطلاق الرصاص على الزعيم سعد زغلول وهو ما قصده شوقي بيوم الهول، التي مطلعها:

اخترت يوم الهول يوم وداعِ

ونعاك في عصف الرياح الناعي

غير أن موضع البيت الثاني في القصيدة الأصلية الطويلة ليس تالياً للبيت الأول بل هو البيت قبل الأخير فيها، ومعلوم



الراحل ووصفه - من بين ما وصفه به - بأنه: "كان شهماً ينبض قلبه بالحب ويشع بالعرفان ويتسع للنقاش والحوار دون أن يضيق به أو يتبرم له." وقال الصحفي باوزير في سياق مقاله: "وعندما علمت بأنه لزم فراش المرض في بيته ظننت الأمر وعكة أصابته لا تلبث أن تزول، وقد أرسلت له أثناء ذلك قصاصة صغيرة مع ابنه (عبدالله) أعتذر له عن عدم زيارته ووعدته بأن أزوره في أقرب فرصة ممكنة. حتى كان ظهر يوم الأربعاء الماضي، كنا في (دار الطليعة) نعد الصفحات الأخيرة قبل أن ندفع بها إلى المطبعة لتدور دورتها الأسبوعية، فحضر من يبلغني الخبر الأليم أو المفاجأة المذهلة، ولم أصدق ساعتها!.." ومعروف أن مقر دار الطليعة كان يقع في منطقة (برع السدة) بالمكلا - (حي السلام) بعد ذلك - ولا تفصله إلا بضعة بيوت عن منزل الشاعر البار الذي ما زال يسكنه ابنه الأستاذ الدكتور عبدالله البار - مد الله في عمره ومتعته بالصحة والعافية - الذي ورث عن أبيه موهبة الأدب والشعر، وهو نفسه الصبي الصغير الذي حمل قصاصة الرسالة من صحفي (الطليعة) إلى صحفي (الرائد) ذات يوم.. يفصله عنا الآن أكثر من نصف قرن!

البار والأشقاء الباوزير..

سنوات من الإخاء والعطاء

ذكرنا آنفاً طرفاً من علاقة الأستاذ حسين محمد البار بالمؤرخ والأديب الأستاذ سعيد عوض وبالصحفي الأستاذ أحمد عوض باوزير، ونود هنا أن نشير إلى جوانب أخرى من قصة علاقة البار بهذين الشقيقين من آل باوزير وشقيق ثالث لهما هو الفنان الأستاذ سالم عوض باوزير.

عندما فكر الشاعر الأستاذ حسين البار أن يصدر ديواناً يضم مجموعة من أشعاره، عهد بكتابة مقدمة الديوان إلى الأستاذ سعيد باوزير الذي لا بد أنه كان على معرفة شخصية سابقة به، فكتب

مقدمة عبارة عن دراسة طويلة تحليلية لديوان البار الأول هذا - والوحيد الذي نشر في حياته - الذي سماه صاحبه (من أغاني الوادي)، وأذكر أنه دار حديث عن هذه المقدمة بيني وبين الشاعر العراقي الكبير الأستاذ سعدي يوسف، الذي كان يعمل في دار الهمداني - عندما كنت أتابع نشر ديواني الأول (حلم الشاعر)، إذ يبدو أنه كانت هناك فكرة لإصدار طبعة ثانية لديوان (من أغاني الوادي) عن دار الهمداني، ولكن هذه الفكرة لم تخرج إلى النور حسب علمي.

وتكوين الندوة الموسيقية." ويروي الأستاذ سالم باوزير في محطة أخرى - على حد تعبيره - من سيرته قصة تكوين الندوة الموسيقية في عام ١٩٦٠ وانتخاب أول مجلس إداري لها كان فيه أحمد جمعة خان رئيساً وسالم عوض باوزير نائباً للرئيس ومحمد جمعة خان وحسين محمد البار مستشارين. وكما رأينا مما سبق ذكره في معرض الحديث عن وفاة وتأبين الشاعر والصحفي البار كانت علاقة والدي وعمي أحمد بالأستاذ البار نموذجاً رائعاً لعلاقة



الصحفي أحمد عوض باوزير



المؤرخ سعيد عوض باوزير

زملاء الكلمة والفكر بعضهم ببعض في ذلك الزمن، وما كان يسودها من صفاء ومحبة واحترام متبادل حتى مع اختلاف المواقف والتوجهات الفكرية أحياناً. واسمحوا لي أن أقتبس في هذا المقام فقرة أخرى من مقال التأبين الذي كتبه والدي عن الأستاذ البار يقول فيها: "إن وفاة البار تركت فراغاً كبيراً في محيطنا الأدبي والفكري ليس لدينا من يشغله. أقولها بكل حسرة وألم، فهو بحق الشاعر الحضرمي الوحيد الذي ظل إلى أن فارق الحياة لسان حضرموت الناطق المعبر عن أفراحها وأتراحها المترجم لآمالها وآلامها.. في حين صمت أدباء نابهون من الحضارم في الوطن والمهاجر نحن أحوج ما نكون إلى صيحة حق تنطلق من حناجرهم تواسينا في

كما عهد الشاعر إلى عمي الأستاذ سالم عوض باوزير برسم وتصميم لوحة الغلاف للديوان، حيث يروي هذا الأخير في سيرته الذاتية (محطات على الطريق) ما يلي:

"في هذه الأثناء - وهو يقصد في أثناء عمله مدرساً ومشرفاً على النشاطات اللاصفية بالمدرسة الوسطى الشهيرة بالغيل - تلقيت رسالة من الشاعر المعروف الأستاذ حسين محمد البار حملها إلي ابنه الطالب بالمدرسة (عمر) يطلب فيها مني رسم صورة لغلاف ديوانه (من أغاني الوادي)، فبادرت بتلبية هذا الطلب، رغم عدم معرفتي الشخصية السابقة بالشاعر البار، غير أنها كانت البداية لمعرفة جمعتنا به فيما بعد عند انتقالني للعمل بالمكلا



سالم عوض باوزير



هناك المؤرخ الأديب محمد عبدالقادر بامطرف والتربوي والكاتب والمؤرخ محمد عبدالقادر بافقيه والشاعر الفنان صالح عبدالرحمن المفلحي والفنان الأسطورة محمد جمعة خان وغيرهم.

وتتلخص الصورة التي انطبعت في ذهني عن حسين البار في بشرة مائلة إلى البياض، وابتسامة هادئة لطيفة، وأناقة في المظهر والحركة والكلام لا تشبها إلا أناقة شعره، الذي عرفته وتذوقته طبعاً في فترة لاحقة. فأنا من أشد المعجبين بشعر حسين البار، وقد كنت دائماً تواقاً لأن أكتب عن هذه الشخصية الساحرة - شكلاً ومضموناً - حتى تهيأت الفرصة التي تكلمت عنها فيما سبق، ونشرت مقالتي ذاك في الفيسبوك، ثم أقيمت عن البار مداخلة في الندوة التي أقامها، احتفاءً به، مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر في المكلا. وهذا المقال الذي أكتبه الآن شيء آخر يختلف كثيراً عن منشور الفيسبوك وعن مداخلة الندوة وإن كان مستوحى منهما معاً.

لقد سبق - في هذا المقال - أن نقلت الإشارة المقتضبة التي جمع فيها الأستاذ سعيد عوض باوزير بين حسين محمد البار وشاعرين حضرميين آخرين هما صالح بن علي الحامد وعلي أحمد باكثير، وإن كان هذا الأخير عرف بكونه روائياً وكاتباً مسرحياً أكثر من كونه شاعراً. وكان فحوى تلك الإشارة أن هؤلاء الشعراء أو الأدباء الثلاثة لا فضل للحركة

هو أول من قدم حسين البار للحركة الثقافية والشعرية وللمعنيين بهما من خلال كتابة مقدمة ديوانه. ثم أشار إلى التأبين الذي كتبه باوزير لصديقه البار، ولا أظنه يمانع في أن أنقل من هذه الإشارة الكلمات التالية لدلالاتها المهمة: "لقد أثار مقال والدك التأبيني شجناً في نفسي لما تضمنه من شجن لفقد إنسان أحبه وشاعر أعجب به ومثقف احترامه.. لقد لفتني هذا الشجن

ليس على المستوى الشخصي والإنساني ولكن على المستوى الوطني لأنه فقد بفقد البار الصوت الوطني المنافح عن قضايا الشعب ومشكلاته." ثم قال: "وأين حالنا اليوم من حالهم بالأمس؟ هم حملوا مشروعاً عظيماً ونحن للأسف لم نع ما حملوا على أقل تقدير ناهيك أن يكون لنا مشروعنا الخاص تجاه حضرموت والجنوب عامة."

شعراء حضرموت الثلاثة

أكد أجزم أنني في صغري رأيت حسين البار عياناً وإن غابت عن بالي المناسبة التي رأيته فيها، بخلاف محمد عبدالقادر بامطرف، مثلاً، الذي - بصرف النظر عن لقاءاتي المتكررة به بعد ذلك عندما كنت أزوره في بيته قبيل وفاته - أذكر جيداً لقاء جمعه بوالدي في ستينيات القرن العشرين الماضي في المكلا، وكان مكان اللقاء حجرة الاستقبال في شقة عمي سالم عوض باوزير في أعلى طابق من العمارة التي تطل على مكتب ومطبعة (دار الطليعة) وإجابية حطينة) المجاورة لها. وتقع تحت هذه الشقة شقة عمي الآخر الصحفي أحمد عوض باوزير رئيس تحرير (الطليعة)، فقد كان حي السلام (برج السدة)، في تلك الفترة - كما قال ذات مرة أحد الإخوة الصحفيين - يزخر في نطاق مساحة صغيرة، بكثير من الأسماء اللامعة في الثقافة والأدب والفن. فإلى جانب الشقيقين باوزير والأستاذ البار، كان

محنتنا وتخفف من مصيبتنا وتقوي من عزيمتنا وتدفعنا إلى الصمود في معارك النضال والكفاح."

وتربطني منذ سنوات بعيدة علاقة مودة واحترام متبادل بالعلم الأدبي والثقافي أ. د. عبدالله حسين البار نود معاً أن تكون امتداداً طيباً لعلاقة الآباء، وقد أرسلت إليه المقال الذي نشرته عن والده في الفيسبوك وضمنته النتيجة التي توصلت إليها حول تاريخ وفاته وكان الفضل في ظهور المقال بعد الله سبحانه وتعالى للأخ الأستاذ محمد أحمد باعباد الذي لاحظ التضارب في هذا التاريخ وأحاطني علماً به. وقد كتب لي الأستاذ عبدالله رسالة إلكترونية يعبر لي فيها عن إعجابه بالمقال وأشار إلى علاقة والدنا وكيف أن سعيد عوض باوزير كان



وشبّهت حسين البار بحافظ إبراهيم في سلاسة شعره وتناوله لهموم وقضايا الشعب، ولعلي تأثرت في هذا بما سطره والذي في تأبينه للبار من أن هذا الشاعر كان ترجماناً صادقاً لآلام وآمال شعبه الحضرمي



التعليمية الحديثة في حضرموت عليهم؛ لأنهم ظهروا وبرزوا قبلها، فهؤلاء هم نتاج التعليم الأهلي والتثقيف الذاتي كما أراد أن يقول الكاتب. وقد جمعت أنا شخصياً بين هؤلاء الشعراء الثلاثة، ولكن في سياق آخر. فقد كنت ذات مرة في إحدى زياراتي المتكررة لسلطنة عمان الشقيقة واقترح علي أن أكتب مقالاً أدبياً عن اليمن أو حضرموت لينشر في صحيفة (الوطن) العمانية. ونظراً لضيق الوقت وعدم توفر المراجع الكافية، وقع اختياري على موضوع عام وواسع من ناحية المدى التاريخي، ولكنني استسهرت الكتابة فيه من خلال الرجوع إلى مصدرين رئيسيين كانا متوفرين بيدي هناك، وهما كتاب (الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي) لسعيد عوض باوزير، وكتاب (الحركة الأدبية في حضرموت) لعبد القادر محمد الصبان. واخترت عنواناً للمقال هو (المسار التاريخي للشعر في حضرموت)، وقد وُضع المقال على الإنترنت ضمن المواد المنشورة في صحيفة (الوطن).

وفي ذلك المقال أو الدراسة - إذا جاز أن نسميها كذلك - عندما وصلت إلى العصر الحديث في رصدي لمسيرة الشعر الحضرمي خطر لي أن أشبه الشعراء الحامد والبار وباكثير بالشعراء شوقي وحافظ ومطران، فجعلت الحامد شوقي حضرموت لما له من قيمة اجتماعية وأدبية وفنية متقدمة تشبه منزلة شوقي بالنسبة إلى زميليه، ومن النقاد من اعتبر صالح الحامد (أميراً) للشعر في حضرموت بمثل ما بوبع أحمد شوقي أميراً للشعراء قاطبة في عصره. وشبهت حسين البار بحافظ إبراهيم في سلاسة شعره وتناوله لهموم وقضايا الشعب، ولعلي تأثرت في هذا بما سطره والدي في تأيينه للبار من أن هذا الشاعر كان ترجماناً صادقاً لآلام وآمال شعبه الحضرمي، وقد كان من الألقاب التي أطلقت على حافظ: شاعر الشعب، وشاعر النيل. أما علي أحمد

باكثير فقد نظرت في ربطي له بالشاعر خليل مطران إلى ناحيتين هما: أولاً أنه كما لقّب مطران بشاعر القطرين لبنان ومصر، فإن باكثير يمكن أيضاً عدّه شاعر القطرين حضرموت ومصر. والناحية الثانية ما نسب إلى كلا الشاعرين من ريادة شعرية تجديدية، فقد قيل إن خليل مطران كان في بعض نماذج شعره إرهاباً بالحركة التجديدية التي أعقبت عصر الشعراء الثلاثة شوقي وحافظ ومطران وتمثلت في شعراء جماعة أبوللو، كما قيل إن علي باكثير كان رائداً لشعر التفعيلة الذي انتشر في الخمسينيات عندما كتب به مسرحيته (روميو وجولييت)، وإخنا تون ونفرتيتي). ولكن ونحن نتكلم هنا عن الشاعر حسين بن محمد البار، فإنه مما أتفق فيه مع كثير من النقاد يمكن الحكم بأن تجديد الأستاذ باكثير كان (شكلياً)، بل ظل بعد كتابته لهاتين المسرحيتين أكثر التزاماً بالنظم على منوال البيت والقافية الواحدة وأكثر قرباً من روح الشعر التقليدي - حتى في شعره (التفعيلي) - وأن حسين البار ربما كان أكثر من باكثير أخذاً بأسباب التجديد وتمثلاً له في شعره وأكثر تأثراً بأسلوب شعراء أبوللو وشعراء المهجر في كتابة الشعر.



هذا خيال قانظري، ثم أذكرني وأذكرني وعسى يثلك ما يعا في القلب من أم الحين لا تعجني من بسمة تنساب من قلب حزين أمديته ربما سيبقى حين أن في لحن ذكري شباقي في المشيب وعينني بعد المنون

كلمة أخيرة

أما فيما يتعلق بالعنوان الذي اخترته لهذا المقال، فبالإضافة إلى هاجس الجنس وإلى أن كلمة (البر) كلمة جامعة لمعاني الخير والإحسان والاعتراف بالفضل، فإنني كنت أنظر - عندما وضعتها في العنوان - إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سئل عن بر الوالدين بعد وفاتهما، فذكر من أنواع هذا البر: "إكرام صديقهما". فقد اعتبرت حسين البار من أصدقاء والدي الذين يستحقون الإكرام. وإذا كان المعنى في الحديث ينصرف إلى الأصدقاء الأحياء دون الأموات، فإنه يمكن اعتبار حسين البار - كما هو شأن كل المبدعين والمنتجين في مجال الأدب والفكر - حياً بما تركه وخلفه من إنتاج أدبي راق وإسهام صحفي مهم، والكتابة عن أمثال البار والاهتمام بهم نوع من الإكرام والتكريم ليس لهم بصفتهم أشخاصاً بل لما يمثلونه من قيمة علينا أن نعلي من شأنها ونتمثلها في حياتنا الحاضرة والمستقبلية. ودعوني في ختام المقال أنقل - للمرة الثالثة - من مقال تأبين والدي لصديقه حسين البار:

"إن الفجيرة الحقيقية في موت حسين البار هي فجيرة الأدب والشعر قبل أي شيء آخر. فقد كان - طيب الله ثراه - في إنتاجه الأدبي أشبه بواحة خصبة دانية القطوف شهية الثمار وسط صحراء قاحلة شح ماؤها وأجدبت تربتها إلا من شجيرات قليلة متناثرة تصارع من أجل البقاء وتفرض نفسها على الحياة بأعجوبة وفي صعوبة بالغة. وهذه هي المأساة والخسارة الفادحة في موت شاعرنا الكبير! لا يستطيع أحد أن يتهمني بالتجني أو يزعم بأن في ما أقوله مبالغة أنزلق إليها كاتب مفجوع في عزيز عليه كان يرثيه بعاطفة الصديق وليس بقلم المؤرخ. إنني لم أقل هنا سوى الحقيقة بكل قسوتها ومرارتها."

رحمهما الله.

غيل باوزير - ٢٤ يونيو ٢٠١٧م



د. سعيد الجريري

صحراية كأنها غابحراء !

صحراؤه، لكنه إذ يعمى عن ذاته، يضيع
دربه بلا دليل، ثم يحسب أن كلاً منهما
دهمه فأطفأ فيه جذوة الدفء والنور.

(٥)

في مرآة لم تكن تراها، تبدو لك
الغربة الآن فضاء يحركك من أفكار
غبية، كنت تظن أنها منتهى الكون،
فتعيد قراءة ماضيك صفحة صفحة،
على مسافة عاطفية محايدة، لترى
كم هي الغربة ميلاد جديد، تماماً
مثلما هي غربة الإنسان الأولى إذ
يصرخ صرخته الأولى، ثم تشكله
الكائنات المحيطة به تشكيلاً لم
يختره هو، حتى إذا رام بحثاً عن
ذاته، استوحش ما حوله، غريباً إما
أن يجد ذاته التائهة، وإما أن يتمهى
في محيط اغتراب جديد أثقل على
الروح وأشد.

(٦)

هل تهشم تلك المرأة لأنها لا تعكس
الصورة القارة في الأعماق؟ إنك - إن
فعلت - لن تغير من الأمر شيئاً، ربما
تجرح يدك فقط، وربما تنتبه فجأة
إلى دمك ينزُّ بألم، لترى حينئذٍ،
صورة المنازعة في الرmq الأخير،
لكنك تظل تسائل ذاتك الشاردة: إلى
أين؟ فيتناهى إليك رجع صدى بعيد،
ليس إلى حيث سواك!

ليست الغربة مكاناً. إنها أنفاسك
التي تجاذب ما حولك لغة متعالية،
فإن فككت الشيفرة السرية استكمل
تيار موسيقياً الأنفاس دورته فيك،
منك وإليك، هارمونياً، لترى في قلب
الصحراء غابة الربيع، أو تمس دفء
الرمال في قلب الغابة العارية المثقلة
بالجليد.

(٣)

ثمة شجرة تخفي عنك الغابة،
وثمة رملة تلهيك عن متاهة
الصحراء، لكنك تستطيب لعبة
الشجرة والرملة، هرباً من عينيك إذ
تغورقان بالدمع والرمل، فتتنزع إلى
لغة المجاز، تجتاز بها مفازة باردة،
كغابة يلفحك هجير برودتها، ثم
تخلد إلى أغنية هنا أو قصيدة هناك
أو حكاية لا تعرف نهاياتها لكنك
تقصر بها ليلاً شتائياً لا يكاد ينتهي،
كيما تسيل بأعناق المطي الخرافية
صحارى مفتوحة على صحارى!

(٤)

ثنائية الغابة - الصحراء تمازج
فيك إحساساً بهما في آن معاً، حيث
"الصحراية" أو "الغابحراء"، مزيج
ينفي كليتهما، فتنتزع روحك بأجمل
ما فيهما على غير مثال سابق.
ولكل امرئ غابسته الخاصة أو

(١)

الغربة غابة عارية في شتاء مثقل
بالجليد. قد تبدو صورتها هنا قارسة
قارصة، لكن الغربة لا تكون كذلك إلا
عندما يلف المرء فراغ داخلي، لا
يترعه أي امتلاء خارجي. لكن
الغربة أيضاً في صورة أخرى، صحراء
جرداء لا حدود لها ولا منتهى، في
صيف مثقل بالصهد والغبار حتى إذا
يئس المرء من قطرة ماء يبيل بها
الصدى، رأيته يلوذ من السراب بالسراب.
الغربة أن تضع، في أدغال روحك
ورماله، غابة وصحراء تتناوبان على
إثقالك بالجليد والصهد، حيث لا
دفء ولا رواء. وليست الغابة العارية
سوى نفسك، تماماً كما هي الصحراء
الجرداء.

(٢)

تسألني: أغابة تثقلك أم صحراء؟
أقول لك: إنما هما المشى والمصيف،
ثمة غابة فاتنة تضع أنفاسها تحت
الجليد، هي التي توميء إليك أن
تعال. وثمة صحراء مدهشة أيضاً
تعزف رياحها شبابة منسية، هي التي
تنتظرك على قهوة الأصيل. فبأي
غابة تستظل، وأي صحراء تفتersh،
كأنك البدوي القديم؟ ذلك هو
السؤال.



مدينة المكلا لها ما لمدن الموانئ من فرادة وخصوصية
تتناغم مع البحر المحيط وآماده الفسيحة والمستغلقة
.. تفتح ذراعيها الرخصتين للآخر وجوفها الحـثاني
لتستودعه أسرار البحر وأساطيره وملاحمه المغذية
للجسارة والاقتحام !!

رحبت مدينة المكلا بكل الطامحين من ذوي الإرادات
العالية ليفتحوا دروباً للنجاح في أكنافها وعبر بواباتها
المتينة والمفتوحة على الموانئ المقابلة على الشاطئ
الآخر وقريباً منه أو بعيداً ، منذ أن نبذت التمييز بين
زوارها المسرعين والمتمهلين ، من خليجنا العربي وبر
الصومال والهند والبصرة وغيرهم من سكان مدن الموانئ
المفتوحة على درب الإنسان دون تمييز أو تفنيد .

في تلك الأزمان الولودة توزعت المهام والوظائف
بتلقائية تتساق مع الفطرة المهدبة ، ففتح بامخرمة
مطعمه للبحارة الزائرين من كل الأقطار ليقدم لهم
ببساطته المعهودة وجبة الصيادية المعروفة .. ثم
ليخصص وقتاً للمبـروكين والمجاذيب وال دراويش
المنتشرين في الأرجاء القريبة ليطعمهم حد الشبع دون
أن يميزهم عن غيرهم من الغرباء العابرين فيما
تنطلق مجموعة أخرى من أسرة مكلاوية معروفة لتنتحي
في زاوية أو ركن هادئ بالأغنام العاجزة يقلمون أظافرهم
ويفرغون ضروعها الممتلئة المتيبسة ، ويقصون
شعرها المتطاوّل بكل رحمة وبر .

وفي أيام الجمع والأعياد يتنافس هؤلاء وهؤلاء في من
يسبق إلى أولئك الدراويش ليقوم بتغسيلهم
وتنظيفهم ومن ثم إلباسهم كساءً جديداً ، كانوا يتبارون
في تلك المسؤوليات المجتمعية الرفيعة دون حافز من
مصلحة أو شهرة ، بل كادوا يخفون أسماءهم طلباً ورجاءً
لأجر من الله لا تشوبه النوازع البشرية !!

في الآونة الأخيرة تخيلت أنني أعاود الالتحام بذلك
الزمن الفريد المنزه والخالص لوجه الله .. حينما رأيت
المكلاويين يفتحون قلوبهم قبل بيوتهم وجيوبهم
لأسر عديدة قدمت إلى هذه المدينة الإنسانية طلباً
للأمن والأمان وخدمات الكهرباء والمياه والصحة ،
والعاطفة الإنسانية المفقدة .



سالم العبد الحموي

انهمارات حضرية



مع الأستاذ محمد عبد القادر بامطرف



كل شيء ينسى في هذه الحياة إلا الذكريات تظل دائماً عالقة في الذهن، وذكرياتي مع الأستاذ محمد عبد القادر بامطرف هي ذكريات حقبة من زمن عشتها معه، ولعدوبتها ظلت أنوط بالقلب، وأعلى بالذاكرة و " الذكريات صدى السنين " كما يقولون.

ولأنني حالم وطماع، أكرر النداء بضرورة أن نسهم جميعاً في حضور الرواد، ضد الغياب، وضد النسيان، ليس فقط الأستاذ بامطرف، بل هناك شخصيات ثقافية أدبية كثيرة قامت بدور فاعل في رفع شأن النهضة الثقافية في بلادنا، وأثرت الحياة التاريخية والأدبية والفكرية بأعمالها الخالدة، مثل " سعيد عوض باوزير - أحمد عوض باوزير - حسين محمد البار - صالح علي الحامد - عبد القادر الصبان " .. وقائمة النسيان تطول، كما في سواها.

والأستاذ بامطرف علم بارز لا ينسى من أعلام الفكر في حضرموت، وعالم جليل اعترف له الجميع بالتبحر والتبصر والشمول، والدقة ونفاذ البصيرة وسعة الاطلاع. سخر العمر كله للتنقيب والبحث والاستقصاء والتأليف، فكانت مؤلفاته الثرية زاخرة بقضايا التاريخ والثقافة والأدب والمجتمع، فهو مجموعة مواهب تجمعت في شخص، تفرّد من بين كبار الكتاب المعاصرين بتعدد مواهبه الخلاقة، وقدراته على العطاء والإبداع في ميادين ثقافية وفكرية وتاريخية، حتى صدق فيه قول " أبي حيان التوحيدي ": (بستان في زمان الخريف، لكل عين فيه منظر، ولكل يد منه



سعيد سبتي

يدفعني للكتابة اليوم عن فقيد الأدب والتاريخ والثقافة الأستاذ بامطرف - عليه الرحمة والرضوان - دنو ذكرى وفاته التاسعة والعشرين (١٩١٥م - ١٩٨٨م)، التي تصادف شهر يوليو من كل عام، والتي تمر على الجميع مرور الكرام، من غير أن يذكرها أو يتذكرها أحد بكلمة في جريدة، أو في حديث في إحدى القنوات المسموعة أو المرئية، وما أكثرها اليوم، وما أكثر ما نسمع ونرى خلالها من سفاسف وادعاءات.

ويبدو أن حالة النسيان لرحيل المبدعين علامة فارقة في حياتنا الثقافية، حتى لو كان الراحل علماً مثل الأستاذ بامطرف؛ إذ سرعان ما يصير حضور الغائب موسماً أضيق فأضيق، فكيف بمن طال غيابهم خمسين أو تسعين عاماً؟؟

مقطف، ولكل فم منه مذاق). ويظهر أن الأستاذ بامطرف فهم " الأدب " بأنه الأخذ من كل شيء بطرف، ولذلك تجده عرف شيئاً عن كل شيء، فهو أديب موسوعي، متعدد الاهتمامات، متنوع الكتابات، فهو المؤرخ، والباحث، والصحفي، والقاص، والمسرحي، والشاعر، والناقد، والمترجم. وكل هذه المجالات التي خاضها بامطرف، والتي تتسق بالعمق والشمول والإحاطة والأصالة - للأسف - لم تدرس إلى اليوم بمفهوم الدراسة الأكاديمية، في حدود علمي ماعدا الجهد والاهتمام الطيب الذي بذله الصديق الدكتور أحمد باحارثة. بإصداره كتاب " القصة القصيرة في حضرموت - محمد عبد القادر بامطرف - نموذجاً " ورسالة الماجستير المسمّاه بـ (محمد عبد القادر بامطرف ومنهجه في كتابة التاريخ) للأستاذ أحمد فرج بامطرف بجامعة حضرموت، وعسى أن يكونا باكورة عمل أوسع وأكثر شمولاً، يثرها المكتبة الحضرمية وينتزعاً الإنصاف للأستاذ بامطرف.



أصغيت إليه ملك عليك الفكر والحواس، لبراعة تجواله، وسعة اطلاعه في دنيا الأدب، واللغة، والفن، والتراث، والتاريخ، وتراجم الأدباء والكتاب من عرب وأجانب.

وفي العام ١٩٧٤م صدر للأستاذ بامطرف ثلاثة كتب دفعة واحدة، عن دار الحرية ببغداد، وهي: (في سبيل الحكم - الشهداء السبعة - المعلم عبدالحق)، فكانت تلك الكتب من أثنى المراجع التي كشفت لي الكثير من مصادر عبقرية الأستاذ بامطرف. فقد وجدت في تلك المؤلفات، لوحات فنية بديعة، صور فيها المجتمع الحضرمي بكل أبعاده الخاصة، بخطوط وظلال، فكانه الرسام الماهر، يحمل ألوانه وأصباغه، فيجلس في أحضان الطبيعة، أو يقف على قارعة الطريق، يصور ما استهواه من جمال أو قبح، في الظاهر أو الباطن، في الناس أو في البيئة.

فقد وفر لنا الأستاذ بامطرف في هذه المؤلفات الكثير من الجهد والعناء في تدوين تاريخنا المعاصر، من حيث البيئة والمجتمع، والفكر والعمران، لقد كان له لونه الخاص وأسلوبه المميز، أسلوب سهل منطلق، فيه الكثير من الرشاقة والنضارة، إلى جانب الدقة والموضوعية، والنفاذ إلى أعماق الحياة والمجتمع.. أسلوب راق يجعله ينضم إلى أصحاب الأساليب الثرة الرصينة، كالزيات والرافعي وغيرهما.

ملاد الأدباء والفنانين

لقد أتاحت لي تلك المؤلفات القيمة أن التقى بالأستاذ بامطرف كثيراً، ثم توطدت بيني وبينه أواصر المودة والصدقة، فكانت أجالسه فترات طويلة، أزوره في بيته باستمرار، ومن غير مواعيد سابقة، ومن حسن بختي أنه أتيح لي الاستمتاع بجلسات أدبية ثمينة معه، كان يحملي على أجنحة الشعر والموسيقى والغناء. فهو يجمع إلى جانب الموهبة والثقافة، خلقاً رفيعاً، وسلوكاً نبيلاً، وتواضعاً جماً، ووعياً عالياً بأهمية الدور الذي يلعبه الأدباء.

المتعة التي عشتها معها، ومع ديوان المحضر الذي كنا ننتظر صدوره بشغف، إحساساً داخلياً عميقاً مختلفاً بكثير من الاعتزاز؛ إذ كانت الكتابات التي تصلنا من حضرموت في ذلك الوقت ضرباً من الخرافة.

كنت يومئذ على يفاعتي، أضرب بخطواتي الأولى في مجالات الصحافة والثقافة والأدب، وأتمسك طريقي في هذا الميدان الشائك. وعندما وقفت أمام هذه المقدمة التي توشى بها هذا السفر النفيس، هزت تلك الريشة البديعة كل ما حولي، واستطاعت بقوة سبكها ونصاعة عباراتها ورونق ديباجتها، أن تجذبني نحوها بقوة، وأن تثير شهيتي للتعرف على صاحب هذا الوشي النادر الفريد.

أنا وبامطرف .. وجهاً لوجه

أما اللقاء الشخصي بالأستاذ بامطرف لأول مرة في المكلا، فيرجع إلى مطلع السبعينات من القرن الماضي، وذلك بعدما تركت هجرتي في الكويت، وقفلت عائداً إلى الوطن لأقيم فيه إقامة دائمة. والحقيقة فقد كنت أتهيب شخصيته، راسماً له صورة مبهرجة في ذهني، مؤكداً أن الحديث معه صعب مسلكه. ولكن عندما أكرمني الله بمقابلاته والتعرف عليه لأول مرة في بيته التقليدي المتواضع، ذي الدرجات المتعرجة الصعبة الكائن بحي "السلام" بالمكلا، وجدته في غاية الرقة واللفظ، يحمل قلباً كبيراً يستوعب أصدقائه وخصومه في الأدب على السواء.. محدثاً سحرًا، إذا

سأقتصر في هذا الحديث على طائفة من الذكريات تخيرتها من عهدين، عهد فيه كان مغترباً في الكويت، وعهد قال كنت موجوداً في ربوع الوطن، تحملت خلاله عدداً من المسؤوليات من بينها الإشراف ردهاً من الزمن على تحرير صحيفة "الشرارة"، التي كانت تصدر في ذلك العهد، وسأكتفي هنا بالخطوط الرئيسية، لأنه ليس في وسعي - وربما ليس في وسع غيري - أن ألم بكل التفاصيل. إن شخصية بوزن الأستاذ بامطرف تستدعي أن تعقد لها المراكز البحثية والمجلات المتخصصة ندوات منفردة، وأن تخصصها بعض القنوات بإعداد برامج خاصة، وأن تحاور بعض الصحف والمجلات في لقاءات مفردة شتى عدداً من النقاد والمختصين.

لقاء أدبي عن بعد

اللقاء الأدبي بالأستاذ بامطرف - رحمه الله - سبق اللقاء الشخصي بسنوات، فقد عرفته عن بعد، يوم كنت مقيماً في دولة "الكويت" (١٩٦٢ - ١٩٧٢) أنتج في سبيل الحياة، وفيها عشت طفولتي ومراهقتي ويفاعتي وأخصب سني عمري على الإطلاق.

جاءت معرفتي الأولى بالأستاذ بامطرف عن طريق قراءتي للمقدمة البديعة التي طرّز بها الديوان الأول لشاعرنا الغنائي الكبير: حسين أبوبكر المحضر "دموع العشاق"، الصادر عن دار العودة في بيروت عام ١٩٦٦م. فقد صادف هذا الديوان من نفسي مواقع الماء من ذي الغلة الصادي، وفجّرت في تلك اللحظات



87

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

عنها. إضافة إلى كشف تناقضات واقعنا، وعلل وأمراض مجتمعا الموروثة .. ومما يؤسف له أن القصة عندنا مازالت متخلّفة عن مجارات هذه التحوّلات والتكيف مع الواقع الجديد .. فما تعليقكم على ذلك؟!

وقد أجب عن ذلك السؤال بالقول: الواقع أن أدباء " المحافظة الخامسة " لم يطرقوا باب القصة والتمثيلية إلا في حدود ضيقة، والسبب هو أن القصة والمسرحية بمفهومها الحديث، فن أدبي جديد على العالم العربي بأكمله، وليس علينا وحدنا فقط، ومع ذلك فقد حاول بعض أدباءنا معالجة هذا الفن، وأن لبعضهم محاولات جديرة بالتشجيع، لأنها أشبه ما تكون بالبراعم المنبئة بأزهار جديدة في مستقبل الأيام. ولذا فإني أحث الأدباء والكتاب بالمحافظة على اقتحام هذا الميدان؛ لأن فيه ممارسة لطراز جديد وممتع من فنون الأدب الرفيعة، ولا أخال أدباءنا إلا قادرين على خوض المعترك بثقة واقتدار، لأن بعضهم - كما أظن - لا تنتقصهم البراعة الكتابية، ولا الخصوبة والتخيل الفنيين.

وأذكر، أو بالأحرى لن أنسى أنني في ختام تلك المقابلة الممتعة التي أجريتها معه، دار بيني وبينه حديث طويل حول القصة القصيرة، فوجدته ملماً بكل تفاصيلها ودقائق أمورها، فزاد ذلك من حماسي، وعن لي يومذاك أن أطلب منه إعداد بحثٍ خاص لقراء " الشرارة "، يبسط فيه تكوين القصة القصيرة وشروط وقواعد كتابتها، فابتسم ابتسامة ذات مغزى وقال لي: إنما الأعمال بالنيات.

وللأمانة والحق، فقد كان أكثر لمحية، وأحذق إدراكاً، وأسرع استيعاباً لهذا الطلب، فلم تمض سوى أيام معدودات من هذا اللقاء، حتى برّ بوعده، وبعث إلى الجزء الأول من بحثه القيم " قصة القصة " وقد سعدت بتلك الخطوة، وبادرت بنشر البحث تبعاً على حلقات أسبوعية في صحيفة " الشرارة " ابتداءً من العدد (١٦) بتاريخ ١ فبراير ١٩٧٤م.

الحديث عن الأستاذ بامطرف عند هذه الحروف الشاردة، أو أن مدى الحديث عنه أرحب من هذا المضمار، وأبعد آفاقاً؟! وأجيب عن سؤالي فأقول: إن الحديث سيمضي بنا، وسيفضي إلى ميادين أخرى كثيرة، ولكنني هنا سأسأخص حديثي فقط عن إسهامات بامطرف في مجال القصة القصيرة، وسأكتفي بالخطوط الرئيسية التي تغني عن التفاصيل، على أمل العودة إلى التفاصيل، والتطرق إلى جوانب أخرى من شخصية الأستاذ بامطرف، التي قد لا يعرفها الكثير ممن يعرفونه أديباً بارزاً ومؤرخاً كبيراً. وهي صفات وخلال قد لا تخفى عن أقرابه وأصدقائه، ولكنها ربما كانت غير معروفة لدى معظم الناس.



قصتي مع .. " قصة القصة "

في مقابلة صحفية أجريتها مع الأستاذ بامطرف قبيل انعقاد المؤتمر العام الأول لاتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، الذي عقد في قاعة المهاتما غاندي بعدن في فبراير ١٩٧٤م، ونشرت في صحيفة " الشرارة " في عددها رقم (١١٥) الصادر بتاريخ ١٦ يناير ١٩٧٤م. وضعت أمام الأستاذ بامطرف جملة من الأسئلة، من بينها سؤال:

في ضوء التحوّلات الثورية في بنية المجتمع اليمني، تنبع أهمية القصة القصيرة إلى جانب الفنون الأدبية الأخرى في رصد هذه التحوّلات والتعبير

أؤكد أنه ما مرت علينا جلسة واحدة معه، إلا وجذبنا إلى عالمه.. كانت غرفة استقباله البسيطة، الخالية من أي مظهر من مظاهر الفخفة، محسّناً لكل القاصدين من رواد المعرفة والعلم، وملاً لكل الأدباء والكتاب والفنانين.. نلجأ إليه في الشدة بلا موعد، فيستقبلنا بحفاوة بالغة، نتحلق حوله، نعب منه كما الأطفال الذين لا يملون حكايات الجد.. نسحب من تعب الصامت بداية الخيط، فتكر الموضوعات، يرسمها بصوته الجهوري، وبعينيه وحاجبيه ويديه، وبألفاظه المنتقاة، كأنه ممثل رائع مبدع. فهو معين لا ينضب من القريض والملح، والنكت والمفارقات، يرسل النكتة فيضحك لها قبل أن يضحك لها الحاضرون، وأن أنس منهم تجاوباً أرسل الثانية والثالثة.

عرفت الأستاذ بامطرف عن كثب وعلى فترات متقاربة، وإني لأعتز بهذه الصداقة التي امتدت إلى أكثر من خمس عشرة سنة، وأعتقد أنه يحق لي أن أفخر بها بوصفها صداقة تعبر عن مدى اتفاق الميول والرغبات، والمبادئ والغايات.. لقد سعدت كثيراً بمعرفته، وسعدت أكثر بمرافقة في الكثير من المحافل الثقافية والرحلات البحثية والزيارات الشخصية الخاصة لبعض البلدان والمناطق، ولذلك فإني أدين له بكثير من الفضل، فقد اكتسبت منه كثيراً من الأفكار، وله في تاريخ حياتي ما يملأ شعوري دائماً في محبته الصادقة، ولا أنسى له الفضل في توجيهي يومذاك.. فيظل دائماً هو أستاذي ومعلمي الذي لا أنساه.

لقد تعلمت من الأستاذ بامطرف الشيء الكثير، الذي إن ذكرته فلن تسعني الصفحات من الكتابة، لأنني في الحقيقة أسأل نفسي دائماً: ماذا أكتب عن هذا الرجل الفذ؟! أسرد خلقه؟ أم أعدد مجالات علمه؟ أم مواهبه الأدبية المتعددة..؟ أم عن إشراقة روحه المرحمة الضاحكة؟! أم عن جلساته..؟ إذ لكل جلسة معه نكهتها الخاصة، وطعمها الذي لا ينسى: وبعد.. فهل يتوقف بنا

لكنني ببחי هذا لا أستخدم إلا القراء
المستجدين ذوي الطاقات الأدبية
الشابة، التي يستهوينا من كتابة
القصص، والتي أشعر - ولعلي محق في
هذا الشعور - أن وجدانها يمرور بالفن
القصصي، وهي تبحث عنّ يدلها ولو
على بعض معالم الطريق، ثم عنّ
يفسح أمامها آفاق النشر."

لقد تناول الأستاذ بامطرف في بحثه هذا نشأة القصة القصيرة منذ مطلع القرن التاسع عشر، حين غدت عملاً أدبياً رفيعاً، وتحدث بشيء من التفصيل عن الكتاب الرواد، والأساليب التي ابتدعوها في هندسة الأقصوصة، وعن الفلسفة التي تكمن خلف أساليبهم.. ووقف مطولاً أمام "بوشكين" و"جوجل" في روسيا، و"ادجارو" في أمريكا، و"بلزاك" في فرنسا، وقام بشرح العناصر الأساسية للقصة القصيرة.

وقد برهن بامطرف على طول باعه في
تقنية القصة في دراسة لا تقل دقة عما
يصنعه المختصون، حيث شرح خصائص
القصة وأسرارها، فأكد أن القصة لا
بدلها من جودة في كل شيء، جودة في
اللغة، وفي حيك الحوادث، وفي الوصف،
وفي التحليل، وفي تنوع المشاهد، وفي
المفاجآت، وفي الاستئثار بذهن القارئ،
حتى يبقى متعلقاً بها من أولها إلى آخرها.

عزري اخ الاستاذ سعيد مبارك البشتي حفظه
 بعلية: السلام الخالقين الأولين من الجنة (قصة العبد)
 وسأحاول كتابة ملخص اضافية كما سمعت في الزمعة
 وجاء الحافظة على هذه الأوراق لأنها نسخة
 الوحيدة راعيتها الى بعد طاعتها وسرها، اولاً بآول
 فضلاً أخرجوا لي من كل نسخة من المعارف
 الثاني الشري خمسة أعداد التي نشرتها جازية
 قصة العبد وكم الشكر سلفاً
 أخوة
 (الشيخ)
 ١٩٨٦/٨/٢٢

وإذا أنعمنا النظر في هذه " التوطئة " فإننا نجد التواضع نفسه والصراحة التي لا يقولها إلا من كان مغرماً بحب الحقيقة .. فنراه يصف ذلك البحث بأنه بحث مبسط يلقي بعض الأضواء على شؤون القصة، وقد كان بمقدوره أن يقول متباهاً: إنني بحثت في مجموعة من المراجع، وفي مؤلفات وكتب قديمة صدرت في زمن لا يهتم بجمعها إلا الذين نبت حب العلم في قلوبهم .. وأنني اخترت أوعر الطرق، وبذلت الكثير من الجهد والوقت .. الخ.

ومن يتأمل ذلك البحث يجد أن كاتبنا وأديبنا بامطرف، قد بذل فيه حقاً الكثير من الجهد والوقت، لا يصبر عليه إلا قليلون .. وأنا على يقين لو ألف هذا البحث غير هذا العاشق الولهان للعلم والفكر لكانت مقدمته تنبئها بما لاقى

.. إنني حينما أعالج قضايانا التاريخية، أتناولها بأسلوب لا يختلف كثيراً عن الأسلوب الذي يعالج به كاتب القصة موضوعه، والفرق بيني وبين القاص هو أنني أعود في الغالب الأعم إلى المراجع بشرية وثائقية " وتلك مهمة شاقة جداً، في حين أن القاص لا يرجع إلا إلى خصوبة خياله لينسج منها حبكة قصته. ويستطرد قائلاً: " إنني أصرح هنا بدون مواربة، أن هيئة تحرير صحيفة (الشرارة) عندما طلبت مني إعداد هذا البحث، وضعت يدها على الرجل الخطأ، وكان الأجدر بها أن تبحث عن مطلبها عند غيري .. ولكنني قدّرت لهذه الهيئة ثقتهما وحسن ظنّها، فهل تراني بالغاً بتلك الثقة مستوى حسن الظن؟! وإنني أعلم أنني بهذا البحث الموجز لن أؤفّ جديداً لأولئك القراء الذين هم متفوقون علىّ في هذا اللون الأدبي،



وفي ختام هذا البحث القيم، توجه
الأستاذ بامطرف بالكلمات التالية لقراء
صحيفة " الشراة " .. (أود لك أيها القارئ
الهمام المتطلع أن تغدو ذات يوم كاتب
قصة، يشار إليك بالبنان، نجاحاً وتوفيقاً
فمما سوف تستقبله في أيامك).



89

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

القصيرة الحضرمية فيما بعد.

والواقع أن أهمية بامطرف في ميدان القصة القصيرة لا تقاس بالقيمة الفنية لما أنتج من قصص، وإنما تقاس بتغييره لاتجاه الأدب القصصي، وتوجيهه لمساره وجهة جديدة، سواء عن طريق بحثه " قصة القصة " أو عن طريق النماذج العملية المتمثلة في قصصه هذه.

وقد نجح الأستاذ بامطرف فعلاً في تغيير مسار الكتابة القصصية بوجه عام، ونلمس هذا واضحاً في ظهور عدد من القصاصين من الجيل الجديد، الذين استقوا من قصصه ومن بحثه جذوة التطلع نحو المستقبل، فلم يكذب يمضي على محاولته هذه زمن يسير حتى بدأت في الظهور عدد من القصص القصيرة، تنشر وتدفع بنفسها إلى الساحة الأدبية .. ثم تبعتها صدور مجاميع قصصية لمجموعة من الكتاب الشباب، ورسخت أقدام الكتابة القصصية في حضرموت بشكل عام وهذا في - رأيي - هو الإنجاز الكبير الذي حققه الأستاذ بامطرف.

هذه ملامح درنا حولها على ساحل الذكريات مع الأستاذ بامطرف، وعلى إسهاماته الرائدة في تطوير القصة القصيرة. تأملنا من بعيد، ولعل هذا التأمل يترك انطباعاً وعزماً لغيرنا للدخول في لجتها، فما أشد حاجتنا إلى دراسة موضوعية منصفة تبين لنا ما لبامطرف وما عليه .. على أن ينهض بها - ضمن مشروع شامل - فريق من الباحثين، يتمتع بالتكامل في التخصصات، والدأب في التوفر على مصادر البحث، حتى تعرف النابذة المتعلمة الجديدة أنها غير مقطوعة الأوصال.

وبعد .. فهل قلت كل ما أمكن من ذكريات نحو الأستاذ بامطرف؟ كلا! .. لقد بقي شيء كثير.. وكل الخير في جوف الفراء كما تقول العرب في أمثالها. ومع ما كتب أو سيكتب عن بامطرف، فإنه يبقى منجماً للمعارف.

رحم الله الأستاذ بامطرف، وأثابه نعماً ومآباً طيباً على ما أداه للوطن وللمجتمع من ثقافة، وما منحه لهذه البلاد من أدب وتاصيل لمعاني العلم الثرة المميزة.

من كل ما يمكن أن تمنحه التجارب التقليدية الغربية من فرص جيدة.

فهو يعتمد أحياناً على الحوار للعبور من لحظة إلى أخرى، دون أن يؤثر هذا الحوار على مسار الحدث وطبيعة تطوره المنطقي، ويعتمد الأستاذ بامطرف في معظم قصصه على الإسقاطات التاريخية، وعلى كل ما يمكن أن تمنحه الأسطورة من أساليب تعبيرية جديدة، ومن مضامين فكرية، تجد معادلها الموضوعي في عصرنا الراهن.



وهناك جانب آخر لأبد من إيراده، وهو أن حصيلة الأستاذ بامطرف من اللغة الإنجليزية جيدة جداً، وقد ساعدت هذه اللغة على قراءة الأدب الغربي، وقراءة الإنتاج العالمي الحديث، وظهر ذلك جلياً في بعض المجالات التي بدأ اهتمامه بها مؤخراً، كالقصة القصيرة، والمسرح، وأدب الطفل...

وإنني لا أستغرب عدم ميله للترجمة مع قدرته الواسعة، وتمكنه من ممارستها بكفاءة واقتدار.

ألف بامطرف تلك المحاولات القصصية الأولى فقط، ولم يصمد في متابعتها طويلاً، ثم انصرف عنها إلى عالم الدراسات والبحوث، وكأنه يضع كتاب القصة عندنا أمام مسئوليتهم، عندما رأى أنهم يسـيرون في هذا الدرب بخطوات واهية مشلولة.. وحسناً فعل، فقد سجلت هذه الندوة القصصية اتجاهات وانطباعات على جبين القصة

من النظرية .. إلى التطبيق

ولعل الأستاذ بامطرف أراد أن يثري ويعمق موقفه، وأن يعطي دروساً لنص القصة بعد أن أشبعه نظرياً في بحثه " قصة القصة "، أو حاول أن يشكل نوعاً من التسخين الذي يمارسه اللاعب قبل خوضه المباراة الكبرى، فاستطاع في زمن قصير أن يراكم عدداً ضئيلاً من القصص لا يتجاوز الخمس، متفاوتة الحجم طويلاً وقصراً، ألفها حديثاً - فيما يبدو - ونشرها تباعاً في صحيفة الشرارة، وهي على النحو التالي:

١ - سر الاسم.

٢ - كيف قتلوا به الغراب.

٣ - السمكة والسنارة.

٤ - حلم يوم العيد.

٥ - ما هو السؤال.

ويعترف أستاذنا الفاضل بامطرف في بحثه سالف الذكر، أنه ليس من كتاب القصة المحترفين، وإنما كانت له أيام الشباب محاولات بسيطة في هذا الميدان، ونحن في واقع الأمر لم نعثر إلى الآن على شيء من تلك المحاولات، لربما كتبها تحت اسم مستعار، أو يكون صرف النظر عنها، لأنه كتبها بقناعة غير مؤرقة. ويحدونا أمل كبير في أن تعثر أسرته الكريمة عليها في مكتبته الخاصة، أو بين دفائره القديمة، لعلها تلقي لنا الكثير من الأضواء على شخصيته القصصية، وهويته وأسلوبه الخاص.

كتب الأستاذ بامطرف تلك القصص، ولم يحاول معاودة الكتابة القصصية من جديد فيما نعلم، ولو أنه ظل يرسم خطه البياني التطوري لكان له اليوم شأن عظيم بين كتاب القصة القصيرة في الوطن العربي.

وفي هذا العدد الضئيل من القصص التي كتبها بامطرف نرى بصمات " موبسان " وطرقه الفنية الاختزالية، وتجريداته واضحة للعيان في مجمل قصصه .. جملة قصيرة مسبوكة بإحكام، يلهث بعضها إثر بعض بانسياب ذكي .. يستعمل الانتقالات النفسية لأبطاله بشكل دقيق، مستفيداً



أصداء من "أصداء" للشاعر حسين محمد البار

(٢ - ٢)

البليد، وما يعلق بنفسه من أوضارها
فانتفض يرمي عنه ما أصابه بسبها من
هوان لا يليق به:

بدلت حالة اليسار عسارا

وشكا الجيب فقره والبليّة

وانزوى (البار) في المكلا كان لم

يك يوما ربّ الندى والحميّة

يلعن النشر والوظائف والكون

وبيكى الماضي بعين سخيّة

ويرى الشهر أول شهر

إذ يكرم فيه بمنحة شعبية

بعد جهد من الجحيم كان

النار قد حولت إلى المائيّة

وسؤال يجر ألف سؤال

وكلام غث وحال زريّة

شكوى مريرة تنفّثها ذات لقيت من

بؤسها أحوالا من الألم الممض ولغة تدنو

من لغة التداول غايتها إيصال المضمون

في عبارة لا تستغرق في الشعرية من حيث

هي وظيفة كل كلام سام فغلب الإبلاغ

على البلاغة. ولكنها حرصت على أن تجعل

من ألم الذات مفردا في صيغة الجمع، فإذا

ما أصابها يتجاوز حدودها ليلتحم بحدود

الآخرين من أمثالها:

إنها قصة الموظف والبؤس

بهذي المدينة الحضريّة

قصة تبعث القنوط إلى النفس

وتدني الشريعة البشفيّة

غدا التنديد سخريّة من سوء الحال الذي

يرى ويعاش. بل تجاوزه إلى شيء من

(الترجيع) الذي اقتضته اللغة المتداولة:

قلت: يا صاحبي أريد حقوق.

قال: ماذا؟

فقلت: لي بدليّة.

أقصى درجات (المعارضة السياسية) كما
مثلا (الحزب الوطني) الذي كان الصوت
الصارخ في مواجهة الحكم والحكام في
إطار السلطنة القعيطية. لقد بدأ البار
داعية للإصلاح في إطار الموجود منذ
منتصف الأربعينيات كما نجد في بعض
قوله من قصيدة أثبتها في ديوانه الأول
(من أغاني الوادي):

قدال إن العصر يسرع في الخطى

وجمودنا باق، فكيف الحال؟

البؤس جم والجهالة والوني

فيينا، فهل يرجى لهن زوال؟

خلت البلاد من الشباب، وأقمرت

وتصرّمت في الغربة الأجل

وكانما هذي الحياة رواية

للحزريّ ختامها الزلزال (٣٩)

مما أثار قلقا للسلطة الحاكمة فسعت إلى

إغرائه بالوظيفة (المحترمة) فوقع الشاعر

في سياق تسلط الحاكم، وهو ما ياباه، ففر

من قيد الإغراء الناعم بعد أن خبر أسرار

الوظيفة ومعاناة الموظف فكانت قصيدته

(في سبيل البدلية) تنديدا (بالحياة البائسة

التي - كان - يحياها الموظف الوطني

بهذه البلاد). وهو يفتتحها بالدعاء للأيام

الخوالي التي كان فيها حرا لا تعوق حركة

أيامه قيود وظيفة ولا منغصاتها:

يا وقي الله عيشة الحرّة

ورعى الله صبحها والعشيّة

حينما كنت طائرا يتفوّق

عبر أجوائه الفساح العليّة

ويحيي الصباح والحسن فيه

والأصيل الجميل خير تحيّة (٤٠)

هنا حديث عن حرّية فرد عزّ عليه أن

تقيده الوظيفة، ويستبد به روتينها اليومي



أ.د. عبدالله حسين البار

محور التنديد بالموجود:

لم يكن الشاعر البار منفلقا على ذاته
يستبطنها، وينشغل بهمومها في عزلة
عن مشكلات مجتمعه وقضايا أمته. ولقد
شغلته هذه وتلك شغل منغم في
أتونهما، متساميا على مفهوم (أداء
الواجب المفترض الأداء)، وعلى وعي
الشاعر بوظيفة ومهمة شأن بعض شعراء
الإحياء في تاريخ الشعرية العربية الحديثة،
ولكنه انشغال مستغرق في (التجربة)
وينفعل بها، ويتفاعل معها فيغدو تعبيره
عنها تنويرا في عتمة، وموقفا من وجود
ترفضه الذات وتأبى له البقاء. هو التمرد
إذا على الموجود، ولكنه تمرد مشوب
باحترام لرأس السلطة وإن استعصى
عليها تقييده، فلقد كان الشاعر البار مثل
كثير من مجاليه ومعاصريه من مثقفي
حضر موت في خمسينيات القرن العشرين
يحملون بإصلاح ما فسد في كيان الدولة
واختل من تكوينها الإداري دون مساس
بمقام السلطان، فاكتفوا بالتنديد بمن هو
أدنى درجة، وزيرا للسلطنة - كان - أو
موظفا ذا جاه عريض فيها. وتلك كانت



91

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

التنويريين في الأرض:

يا شقاء البلاد والعدل إذ يمضي كسيحاً يمضي
بلا أعوان

– ينشد العدل والرعاية في الحكم وحمل
الجيل من تبعاتك

وهو لم يتحدث عن طاغية جبار في
السلطنة القبطية ولكنه تحدث عن إداري
فاسد شقيت به البلاد والشعب:

– وتركنا نحيا بوضع فاسد

وعلى نظام لا يطاق مرق

– إن هذا يا قوم عهد فساد

فاعملوا قبل أن يجي الثاني

– كل ذاك عهد الفساد قصاه

وقضى أن نعيش كالقطعان
ولقد بلغ التنديد بالموجود حده الأقصى
حين صب لعناته على رؤوس أعلام من
المتنفذين المتريعين على إدارة السلطنة
وذلك حين (طغى على حضرموت المجلس
البلدي)، وحين (لم ينج من شره سهل ولا
جبل) فقال:

قل "لبوستيد" و"القدال" أين بنا

إذا لعنا نظام المجلس البلدي

وقل "لبامطرف" جاوزت كل مدى

في كل موضع شهر مجلس بلدي
والأعلام الثلاثة أيقونات في دست الحكم
يومذاك كما لا يخفى.

على أن هذا التنديد لا يتجاوز الموجود
ليصل إلى المبتغى المنشود، والشاعر البار
ذو نظرة متطلعة إلى غد جديد يتلمسه في
كل ظرف ومقام فيقول:

وهبي محدثاً عن غد فإننا نريد حديث الغد
في سياق تحيته ليلة المولد النبوي،
وبناجيتها بما يتجاوز حاضرها إلى غدها
المقبل قائلاً:

فيا ليلة النور من بعد عام

تعودين مشرقة فاشهدي

ستلقين ما يصنع العاملون

وما يفتدي الوطن المفتدي

شعوب تطهر أوطانها

من الدنس الآثم المفسد

وتصرخ في وجه حرة

بمل، الحناجر لا تقعد

وتمضي تدافع عن حقها

وتسعى إلى الأفضل الأرفع (٤٦)

وهذا يقوله في سياق التحريض على
الفعل، وسياق التأسسي والاقتداء، ويوغل

تهدد بالطرده في كل حين

وبالذلل إن هي لم تطرد (٤٧)

وتلك حال لم يجف انهماؤها في الزمان،
فما زال (الخصارم) مضيعين في الأرض
عامة، وفي أرضهم خاصة، وهو ما جارت به
الذات المبدعة في قولها:

إننا لأضيع أهل الأرض قاطبة

في فترة خلقت منا مساكيناً

مضلين حيارى فوق عالمنا

كالبهم نرتاد في جهد مراعيها

فليسألوا كل نجم عن مهاجرنا

ليعرفوا الأشقياء المستذنبين

يا ويحنا إننا شعب يخطأ به

بؤس الحياة وبلواها عناويننا (٤٨)
ولقد يمكن لينابيع الشئات أن تجف لو
عرفت (حضرموت) حكومة رشيدة يهملها
أمر شعبها، ولكن هيهات ذلك. فمشئات
(الحضرمي) ليس معزولا عن سوء إدارة
الحكام فيها، وهم (الرعاة) كما يصفهم
البار في شعره، ومع ذلك فهم سبب النفور
من البقاء في البلاد، وإيثار الغربة على
الاستقرار في الوطن ما داموا يحكمون
بالجفوة والقسوة:

يا بلادي حتم في ضيعة العمر نضم الأذان عن صبحاتك
كم رفنا فيك المرير من الشكوى فذابت أصواتنا في شكاكك
لهث الشعر والنثر وما حد لسان البيان من ويلاتك
وتلاقى جور الطبيعة في الحكم عليك بجفوة من رعاتك
الرعاة الذين يعضون في اللاني، هذا النفيس من أوقاتك
الرعاة الذين يجرون في الأمر لما لا ندري على نفقاتك
الرعاة الذين لم يستجيبوا لهتاف يدوي بكل جهاتك (٤٩)
وهنا تبرز المشكلة الثانية التي حدق البار
فيها بعمق، وندد بها في شعره، إنهم
(الحكام) الذين لا يرون للشعب حقاً، ولا
ينظرون إلا إلى مصالحهم دون اكتراث
بالجموع التي تصبح ممّا تعاني البلاد وممّا
يعاني الشعب.

يا ضيعة الاحقاف في أدوانها

خرس البيان وعيت الأقدام

حف السراب بكل مشروع بها

فهوى وذاب وجف وهو ركام

مسكينة تغد الدخيل مهالاً

من كل ما يبني بها ويقام

مبهورة الأنفاس في لجج الأسى

لا الشعب ينقذها ولا الحكام (٥٠)
والبار يضمن تنديده بالموجود دعوات
حرى للعدل والحرية وحق الإنسان في أن
يعيش كريماً غير مهان. وتلك شنشنة

قال: ماذا صنعت؟

قلت: صنعت الخير نحو المجالس البلدية.

قال: لا شيء في رصيدك.

فأذهب لسكرتير في السبيل السوء.

قلت: سمعاً.

ورحت أسمى إليه فكانني له رسول المنية.

قال: كم؟

قلت: مبلغ لا يساوي بعض هذه المواقف الحاتمية.
ثم يختتمها ببيت يقتضب به تسلسل
السرد في القصيدة فيقول:

هذه قصتي قيا وبع نفسي

كيف يرضى إياؤها بالدينية

مذ ذاك أخذ الإبداع يتقصى صور الفساد
في (الحكم) ليندد بها. واتخذ تعبيره عنها
منحيين. أولهما منحى التنديد بالموجود
دون أن ينشد تغييراً. إنها رغبة في
الإصلاح دون مساس برأس الحكم في
السلطنة، ربما لاعتلاء السلطان صالح بن
غالب القعيطي على سدة الحكم يوم ذاك.
وثانيهما منحى التنديد بالموجود مع
تعيين صورة المنشود، وهو ما تدل عليه
قصائد الديوان بعد العام ١٩٥٦م.

ولقد حدق الشاعر البار في مشكلات
وطنه (حضرموت) فوجد أولها شئات أبنائه
في أصقاع الأرض حتى غدا (الحضرمي)
ملاحاً تائهاً (أعياء طول الجهد في غير
ملالة) حتى (مل سراه النجم في لجج
الضلالة)، ولا منجى له من ذلك التيه:

إنه رحالة في الكون يستجدي نواله
إنه طوافة العمر فيا لله يا له

قد سقاه الدهر من كأس الأسى حتى الثمالة
وتولاه من الضراء ما فاق احتماله
قد نيا الموطن بالحر المذدى لا أباله
فتولى عنه لا يبصر للرشد دلاله (٥١)
ولذلك عاش (الحضرمي) مضيقاً في
وطنه، ومشرداً في أوطان الآخرين:

وشعب يعيش على أرضه

وليس بعيد ولا سيد

يسير قطعياً بلا غاية

سوى أنه الرائح المفتدي

ويرجع حين ينال الكفاف

جريح الحشا دامي الأكبد

على كل أرض له ذلة

تغنى كانشودة المنشد

وفي كل قطر له شعبة

تعيش مع الموت في موعد



في التحدي بعيداً لأن نيل المطالب لا يكون بالتمني ولا غير فلا بد من الفعل إذاً، وسيله لدى بصيرة البار واضحة:

غير أني ساحطم القيد يوماً

وسامني في ظل حرياتك

سوف أمضي مع العروبة حياً

أبعث الروح في رميم رفاتك

سوف أمضي مع الشعوب إلى حقي

وأمضي إليه رغم عداتك

سوف أمضي مع المبادئ أبني

من كياني على ظلي أسلاتك

وساحيا وإن فنيت ساحيا

في سجل الخلود من ذكرياتك (٤٧)

تلك رؤيته لما ينبغي أن يكون. أما وسيلة تحقيق ذلك المنشود فهو عزم الشباب القادر على تحمل تبعات التغيير، والسير بصخرته الثقيلة حتى تستقر على جبل يؤوي ويعصم من الفشل:

يا فتية البعث الجديد تحفروا

فعل برقا في الجواء يشام

وتحينوا فرص الحياة وجدوا

فيها، فانتهم في الحياة الهام

أتم غداً، فامضوا إلى الغد شلة

تفري الدجا والخالقون نيام

مستقبل الأحقاد في أيديكمو

فليرسم المستقبل الرسام

فلنحز أولي في الزمان بموطن

إن نحى نحى به ونحن كرام (٤٨)

لكن في حضرموت أمة لا تستيقظ فضاعت صرخاته هباءً، على الرغم من اشتعال نيران التغيير في كل شبر من بلاد العرب:

الكون يغلي وهي في غفواتها

لم تصح منها المدن والأكام

عبرت عليها النانبات سواحفا

البؤس في طياتها والذام

فاستمرأت ذل الحياة ولم تقف

أترى خلت من أسدها الأجام؟ (٤٩)

ومن أغوار هذا اليقين العربي كانت قصائده عن (يوم العروبة) و (يوم الجزائر) وعن (بور سعيد الخالدة) وما أشبهها من قصائد.

محور الموت:

وأقصد بهذا المحور قصائد الرثاء التي اشتمل عليها الديوان، وهي خمس قصائد. واحدة في رثاء ولده الصغير علي،

وثانيتها في رثاء أمه الثانية - وهي خالته التي كفلته بعد وفاة أمه -، وقد رثاها في سياق رثائه ابنها عبدالله والثالثة مرثيته في ذكرى الفنان محمد جمعة خان، وقد ألقاها في ذكرى الأربعين، ونشرت في صحيفة الطليعة، وذلك قبل سنة من وفاة الشاعر. وهناك مرثيتان في علمين علامتين من علماء حضرموت هما السيدان (عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف)، و(محسن بن جعفر بن نمي). وهناك قصائد أخرى قالها الشاعر راثيا قريباً أو صديقاً أو عالماً أو ما قرب من هؤلاء صفة أو بعد ولكن الديوان لم يضم منها غير تلك القصائد المذكورة سلفاً. وليس في ذلك من ضير ما دام بالموجود غناء عن سواه. وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

والرثاء نواح الشاعر على الميت. وقديماً وصف الشاعر العربي بأنه (مداحة نواحة). وإذا كان الوصف مخصوصاً بابي تمام فيما نسب قوله للبحريري، فهو ينطبق على عموم شعراء العربية من الجاهلية حتى اليوم على تفاوت وتنوع وتمايز. ولقد تلازم المدح والرثاء لا في أشعار الشعراء وحسب بل وفي كتب البلاغة والنقد، وفي الدراسات الأدبية الحديثة حتى غدا (الرثاء) في نظر كثيرين منهم (مدحاً) ولا فرق (إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه هالك) كما قال قدامه بن جعفر في "نقد الشعر". وأن (لا فصل بين المدح والتأبين إلا في اللفظ دون المعنى، فأصابة المعنى به ومواجهة غرضه هو أن يجري الأمر فيه على سبيل المدح). وقس على ما سلف ذكره ما جاء في كتب البلاغة كالعمدة وما أشبهه فالمقروء دال على المجهول من نظائره.

وإذا كان اهتمام شعراء العربية بالمدح قد تراجع منذ شعراء (الرومنسية) حتى تلاشى في الأجيال التالية، فكف الشاعر العربي عن أن يكون (مداحة) فإن كثيرين من شعراء العربية لما يزل (نواحة). وما زال (الرثاء) تجربة في الحياة متصلة برؤية الشاعر للزمن والموت من حيث هما بنيتان فكريتان نفسيتان يبرزهما الشاعر حسب موقفه منهما، ووعيه بهما، ومدى تفاعله معهما. وظل (الرثاء) هاجساً من

هواجس الشعر عند كثير من شعراء الحداثة وإن تنوعت طرائقهم في جلاء تجاربهم، وبيان مواقفهم منه. فإذا وقف مفهوم (الرثاء) عند نزار قباني عند مفهوم (الندب) كما عرفه التراث الشعري والنقدي العربي، تجاوز شعراء مثل أحمد عبدالمعطي حجازي، وأدونيس، وعمر أبو ريشة، وعبدالله البردوني وآخرون أشباههم ذلك المفهوم الموروث للرثاء ندباً وتأبيناً وتعزية إلى مدى يحتاج درسا نقدياً يبلور رؤية، ويجلو مفهوماً، ويكشف عن أبعاد للكتابة الشعرية في مثل ذلك الهاجس الشعري.

والرثاء صورة من صور مواجهة الإنسان مع الموت. والموت قضية وجودية تلازم الحياة. لكن من الفلاسفة وعلماء الكلام من جعلوا منه أشكالاً يستعصى عليهم حلّه، ولغزاً حاروا في السبيل المسعفة لفكّ غوامضه وكشف أسرارهِ. حار فيه (جلجامش) كما حار فيه (أبو العلاء)، وألبس أمره على فلاسفة اليونان وشعرائهم وهم الباحثون عن خلود الإنسان في الدنيا وهو الفاني وإن تناولت به أعوام العمر، أو منح من الآلهة سبلاً لتخدي الفناء والنجاة من الموت كما حدث هوميروس عن (أخيل) في (الإلياذة). لكن العقل المسلم لا يرى في الموت إشكالاً، بل يراه يقيناً يفد إليه مطمئناً ويقبله راضياً مرضياً، وهو يقين ينبع من إيمانه العميق بقوله تعالى: (إنك ميت وإنهم ميتون). وبقوله جل وعلا: (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين). وبقوله عز من قائل: (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون). فغداً في وعيه مسلماً لا سبيل إلى الجدل حولها، أو الاستغراق في التفكير فيها لإدراك كنهها. لكن أثره لا ينكر. وما من إنسان مات إلا وماتت معه قطعة من عمر إنسان ارتبط به بعلاقة ما. ومن هنا عدل كثير من الشعراء (المسلمين) عن التفكير في فلسفة الموت، والنظر إليه في بعده الميتافيزيقي إلى حديث عن ألم الفقد وفداحة الخسارة في الميت كائنة ما كانت صفة علاقة الذات الشاعرة به.

ولقد مس الرثاء عند شعراء الحداثة شيء من التطوير لمعناه ومفهومه وطرائق



في النص. لكن دارسي الأدب وقراءه عمدوا إلى تلقي علاماته مشطورة، فنظر قسوم منهم إلى مدلوله معزولا عن الدال، ونظر آخرون إلى داله دون اكتراث بمدلوله. فبدا النص - في الحالتين - شقا يفتقد شقه الآخر، وتاه ناتج علاماته الدلالي في ثنايا النظرة الأحادية لمكونات العلامة. ومن هنا صحت نظرات القائلين بالتلاحم الوثيق بين (الثقافي) و(الجمالي) في العمل الأدبي كلنا ما كان جنسه التعبيري. من هذا المنطلق أقرأ الأبيات الخمسة الأولى من مرثية البار في العلامة الحبيب عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف، متأملا في مطلعها، وهو بيتها الأول:

عبرت حياتك عزّة وإيا،
واليوم تسمع للمنون نداء،
عبور الحياة بعزّتها وإبانها يفضي إلى
زمن ماضٍ يعادل الموت. وسماع (المرثي)
نداء المنون في حاضره يفضي به إلى
الزمن الماضي الذي يعادل الموت. فكأنما
انقطعت (الحياة) بالمرثي حاضرا ومستقبلا
وغدا ماضيا لا امتداد له. والمقصود بالحياة
هنا لا المعنى الفسيولوجي ولكن المقصود
معناها العلمي والثقافي، لذلك قال:

علمنا ققدنا فيك عزّ نظيره
هيهات بعدك نطلب النظراء،
فكان (الحياة) لدى الحضرمي حاضرا
مشهود وسواه هو العدم. أو لم يقل
الحضرمي في أمثاله: (من غاب عن العين
غاب عن القلب)؟ وما الموت إلا غياب لا لقاء
بعده. لكنهم قالوا في أمثاله: (ما غاب نجم إلا ظهر زاهرا). وإنما هذا في
الأمانيات لا في الواقع المعيش، ومن باب
هذه الأمية جاء قول البار في ثنايا المرثية:
فأذهب فانت اليوم أعظم باعث
ولرب ميت يبعث الأحياء،
لكن أحدا لم يبعث، وأحدا لم ينبعث. أترأه
قلارا في وعي الشاعر أن هذا انقطاع لن
يكون له انبعثات لأن تلك هي سيرة العلم
والعلماء في حضرموت؟! هذا أمر يجوز.
والشواهد شواهد.

ولجلاء الصورة أتيتك بنقيض ما قال البار،
وهو البيت الأول من مرثية أحمد شوقي
في (عمر المختار)، وهو مطلعها:
ركزوا رفاتك في الرمال لواء
يستنهض الوادي صباح مساء

واستجبروا ساجعات الورق هل سرقته
منه اللحن وراحت عنه ترويه؟
ناحت - كما نوح الأيام - باكية
طورا ... وآخر ذابت في تغنيها؟
وحلقوا في ثرى "يعقوب" هل نبئت
بصفحتيه رياض تاه رائيتها؟
وهل تفجر فيها صيب غدق
إذا بكى استضحتك وازينت تيهها؟
وهل تردد فيها هاتف غزل
أو هامش يصنع الأنات ... يوريتها؟
وإنما صار (الموت) هنا راحة بعد تعب
ولغوب، لأن (الحياة) كانت مكابدة بؤسا
وشقاء وألاما لا تكف، ومع ذلك وهبها
المرثي خير ما وهبه من عبقرية فنية
ليسعد في شقائه أهل زمانه:
غنت على شلوه (الاحقاف) راقصة
حينما من الدهر قاصيها وذانيها
يا ما تمايل فيها كل ذي طرب
في نشوة .. فرحة الأغصان تحكيها
وكم تثنت غصون في جوانبها
ما بين حاضرها أو بين باديتها
لكنه على غزارة ما أعطى وقيمته لم يلق
من أهله إلا العقوق. فيقول البار في سياق
الاعتراف بهذا العقوق، وفي سياق التبكيث
على سواة القمل:
لقد عققناك والأيام شاهدة
والعبقرية تآبى من يواسيها
والدهر يصرخ والدنيا تهيب بنا
عسى نخفف شيئا من ماسيها
إننا تركناك منسيا وقد صنعت
يداك فنا مع الأيام يبلينا
هكذا يتسع الرثاء لسياقات شتى، منها
الثقافي ومنها الاجتماعي ومنها الجمالي.
وتغدو القصيدة فضاء تطوف فيه العلامات
التي تنبث أشتات المعاني ومختلف الدلالات.
وفي مقام (الرثاء) هنا يحضر في ذهن
سؤال سائل من الكتاب: (هل في الأدب
شيء آخر غير الأدبية؟). وهو سؤال لا يحتاج
إلى كبير اعتناء لأن إجابته يسيرة متيسرة.
فالعمل الأدبي كالعلامة عند دوسوسير
تتشكل من دال ومدلول. ولا وجود لدال
دون مدلول، ولا لمدلول دون دال. والأدب
كأننا ما كان جنسه التعبيري يتألف من
علامات متجمعة، وله ما للعلامة اللغوية
في حالتها المفردة من خصائص وسمات،
أي تتألف من (تصور) يصبح مدلولاً، ومن
(صورة سمعية) تغدو رموزاً لفظية أو دالا

عرضه بحيث استحال عند بعضهم إلى
محاكمة لتاريخ العلاقة بين الراثي
والمرثي على مستويات عديدة سياسياً
 واجتماعياً وحضارياً كالذي يجده المرء في
قصيدة (مرثية العمر الجميل) لأحمد
عبد المعطي حجازي، وقصيدة (مقدمة
لملوك الطوائف) لأدونيس.
وللبار منظوره لمفهوم الرثاء في الشعر،
وتنوعت طرائقه في التعبير عنه لتنوع
تجاربه الشعرية ومواقفه الشعرية
والفكرية. ففي (دموع الغريب) يتوجع في
سياق الفقد الذي ابتلي به في غربته:
أواه فقدك يا علي وافي الغريب ليبتلي
فراي الذي لما يبق من جلد به إلا بلي (٥٠)
ويبالغ في تصوير أثر الموت على وجدانه،
فيرى خبر موت ولده جيشا لجبا يرميه بأحد
من السنن، ويحرقه باللهب:

ورمى الفؤاد من السطور المحرقات بجحفل
ومن الهموم السائرات روكضا في قسعل
والذكريات الزاخرات باخر وبناول
وإذا الفؤاد يذوب ما بين الضلوع ويصعطي
وهو في (فقيد العلم والفتوة) يتأوه
متوجعاً في سياق الأسى والفقد متجاوزاً
الذات ليتسع القول فيشمل أرضاً شاسعة
بحجم (الجنوب) كاملاً:

يا ويح ما لقي (الجنوب) لمصرع
أهوى على أمل وغال رجاء
فمضى يصعد زفرة من روحه
موصولة الأهات صبح مساء
ومضى يقيس بك الرجال فلم يجد
وظهرت وحده ذرة عصماء
بل يتعالى على ذلك ليتصل بأخص
خصائص المرثي وهي (العلم) و(الفتوى):
العلم ويح العلم إنك ربه
كم رحمت فيه تصارع الأنواء
يا ويح للفتوى تولى شيخها
فلتستعر في حضرموت بكاء
بك يا ابن عبد الله عاشت حرة
تدمي الطغاة وترشد الجهلاء
وهو في (في ذكرى رائد الفن) يفتتح
المرثية على سياق الفرحة والابتهاج
متخطياً مقتضيات الرثاء من بكاء ونواح
ونحيب:

سلوا زبي الخلد هل رفقت حواشيها
حفية بهزار قد ثوى فيها؟
واستعطقوها أما أصغت إلى وتر
من صادق الحس إن غنى سيعطيها؟



وهنا يمتاز شوقي برؤية ديناميكية لحياة المجاهد عمر المختار وموته. انطلق شوقي من لحظة الماضي التي تعادل الموت (ركزوا رفاتك)، لكنه تجاوزه إلى حاضر يتمدد إلى المستقبل حين أhal (الرفات) (لواء) يستنهض الوادي صباح مساءً فغدا نواة لبطولات لا يحصى عددها. وأسعفه استخدام الفعل المضارع (يستنهض)، وظرف الزمان (صباح مساءً) في تحصيل الاستمرار والديمومة والتواصل والتمدد.

والبار يستخدم (التكرار) في مظان من
مراثيه الخمس، ويجيء به في أنساق
معلومة. منها نسق (النداء) في قوله:

آواہ

يا أمل الغريب بنورك المتهلل

يا نفحة العمر الكليب

وبهجة المستقبل

يا رقة الروض الخصيب

وبيا غناء الجدول

يا فرحة الأم الحنون

وبهجة العيش الخلي

فيحقق تكرار النداء هنا بتنوع نوعا من النظام الإيقاعي مصحوبا بصور تنامي في تشكيل استعاري تنشي برؤية الشاعر للطفولة ومعناها.

ولقد يسهم (التكرار) في تحقيق انتظام
على المستوى الوزني للأبيات في تشكيلاها
الرأسي والأفقي:

يا وحبها ما حالها في رعدة المقرمل؟

يا ويحها ما خطبها في وثبة المستقتل؟

في صرخة الشكلى وفي اطراقة المتبتل

حيث تتوالى تفعيلية (متفاعِلن ل ل ل.)
مخبونة في التفعيلات الثلاث الأولى من
كل بيت (متفاعِلن .. ل.) وتشدّ التفعيلية
الرابعة في كل بيت فتجيء تامة سليمة
تارة ومخبونة تارة أخرى. لكنه ينزاح في
البيت التالي لهذه الأبيات عن ذلك النسق،
وهو قوله:

في وحشة الزمن الكنود وذلة المترمل

حيث تسود تفعيلة (متفاعِل ل ل ل)، ولا
تحضر مخبونة الا في أول البيت الأول.

ولقد يكون (التكرار) باستخدام (كم)
الخبرة لافادة معنى التكرار:

كم وقفة لك ليس ينساها امرؤ

لَمْ تَتَّخِذْ صُلْفًا وَلَا خِيَلًا.

كم غضبة للحق قد أرسلتها

أفدي بروحي الغضبة الحمراء،

كم وثبة لك تبقي من خلفها

لَمْ الشَّتَاتِ وَتَدْفَعُ الْأَرْزَاءَ

هذا دون أن يخليها من الصوتية التي تتولد عن التكرار. وإن من نافلة القول لإشارة إلى أن هذا المكون الأسلوبى قد جاء على أنساق متنوعة، منها الثنائى ومنها الثلاثى ومنها الرباعى، ولم يتجاوزها إلى سواها من أنساق فى إطاره.

ويحضر (النداء) في نسق آخر، فينادي البار
لما مستخدما أداة النداء (يا):

- أواه فقدك يا علي وافي الغريب ليبتلى

– بك يا ابن عبد الله عاشت حرة

تدمي الطفلة وترشد الجهلاء

— یا محسن! فیما عرضت له

وهو نسق يتوالى في سياق البعد. لكنه
أتى بالنداء في نسق غير ما سلف، فينادي
صفة:

أما مصرع عبدالله فقد وثبت

من أجله كل آلامي بلا عدد
أوينادي (كنية):

أيا علي فذاك الشعر منجدرا

وَمَلَأْنَا صَفْتًا مِنْ قُلُوبِهَا
وَذَلِكَ نُسْقِيتُكَ فِي سِيَاقِ الْقُرْبِ عَلَى

ورغم من مسافة البين واتساع قدرها،
والحديث عن هذا المحور (الموت) على
نية صورة من صورته جاء لا يكاد يجد،
بذلك نكتفي بما سلف، وحسبنا ذلك
يضاحاً لتجلياته في ديوان (أصداء) للشاعر
لبار. لكنني أشير هنا إلى أن مراثي البار في
لديوان خص بها واحد من القرابة ولداً أو
أماً / خالة) أو ابن خالة. أو خص بها صديق
ميم، ما يغلب صفة (الوجدانية) في رثاء
شاعر من رثى من هؤلاء. أو خص بالثناء
أحد من علماء حضرموت فقداً أقرب
ما يكون لأداء واجب مفترض الأداء. لكنك
تعدم مرثية في سلطان أو وال أو حاكم
بأنه ما كانت صورته أو صفته. ولهذا
لألته في مثل هذا السباق التحليلي.

محور الدين:

يذهب كثير من العارفين بالحادثة في
شعر ونقده إلى نفي الصلة - كائنة ما
كانت صفتها - بين العقيدة الدينية
الشعر. ويرون أن العقيدة يقين ثابت

راسخ لا يأتيه شك ولا يقبل حيرة ولا يمسه تأويل. وإن قليلا من بعض ذلك إن ألم بامرئ قد يفضي إلى جحود أو كفر أو إلحاد والعياذ بالله. أما الشعر فمفجس بالسؤال لا ينقطع، وإبحار في الشك لا وصول له إلى شاطئ، وتحير دائم، ودهشة لا تزول. ويعلمون هذا وذلك بأن أولهما وحي من إله لا سبيل إلى الكفر به عند المؤمنين بوجوده، وبأن ثانيهما نشاط عقلي ونفسي لذات بشرية تتفاعل مع الحياة، وتتفعل بها.

وينسى أولئك العارفون أن كبار شعراء
الحداثة في الشعر كانوا من أصحاب
الإيمان العميق بعقيدة دينية، وكان لها
أثر في صوغ شعرهم، وفي تنفيذ جزئيات
تجاربهم وتعيين رؤاهم. كان من هؤلاء
جبران في العربية، واليوت في الإنجليزية
ومن أمثالهما آخرون. فالشعر من حيث هو
مكون ثقافي لا يتنافى مع العقيدة الدينية،
بل لعله في لحظة ما يكون باعثاً على
الإبداع ومحفزاً لعناصره بالتكوين
والنشاط. على أن لا يعني هذا تحول الشعر
إلى وعظ بارد أو نصح وإرشاد. فالتجربة
الدينية بكل أبعادها مجال رحب، ومداها
طويل، وغورها عميق، ولا يحسنها عرضاً
ولا تشكيلاً إلا شاعر هيمن على اللغة
واقتر على تصريفها أنى شاء له الإبداع،
وملأ استيعابه الدين ومتعلقاته كل
جوانحه فتجاوز الآني المحدود إلى المطلق
المنهمر في الزمان.

ولحضور الدين في الشعر سلطان لا بد من وفوره لتستقيم التجربة، وهو سلطان متعدد الصور، منها ما يتصل بالإيمان بالله مطلقا لا ريب فيه، وما يتعلق بذلك الإيمان من معان ورؤى. ومنها ما يمت بنشأة الشاعر بصلة. ومنها ما يتراسل مع الأبعاد الثقافية التي يحصلها في أدوار حياته. وإن أثر هذا كله لمبتابين، وقل أن ينحصد. ومن ثنايا هذا التخالف في التكوين يكون عمق التجربة أو يترأى سطحها. ومن هنا كان اختلاف تجارب الشعراء سببا في ضوع عبير الشعر وإن تمايز شاعر من شاعر، فأحمد شوقي في تجربته الدينية غير أبي شبكة، وهما غير جبران في تجربته، وكلهم يختلفون عن شعراء كالحامد وأحمد محرم وعبدالمعين الملوحي والبار ومن شاكلهم من الشعراء.



ذاته في بنية (التجريد) البلاغي ليعتد
وبلوم وينسرب من بعد إلى ابتهاج ينأجي
فيه ربه كأرق ما تكون النجوى:

أضيت بالتفكير نفسك ذاتها

ونسيت أنك يا فتى مريبوب

وذهبت تلتمس العلاج من الوري

ونسيت من إحسانه موهوب

من شد أزرع في الزمان بفضلته

والدهر مريبوب الجوا مريبوب

فارجع إلى مولاك وأطلب عطفه

فالله عندك فقط ليس يخيب (٥٦)

اتحد اللائم والمعلوم فيه. واستعصم
بحبل الله منصرفا عن كل شيء سواه،
وبدت له علامات النجاة. فكان الاعتراف
بالذنب بداية التماس سبل التوبة
والخلاص منه:

ضاققت بي السبل العراض مذاهبا

فوقفت أخشى أيهن أجوب

وطفت علي نوازع ملكت مشا

عر خافقي، ما إن لهن غروب

إني وقفت بباب فضلك وقفه

وأنا خجول مذنب وهيوب

كم جنت من ذنب وغيري جاءه

فاغفر فما أعيتك قط ذنوب
والبار وإن عاش في بيئة يهيمن عليها
التصوف أيا كان معناه، وإن لذ له ترديد
أشعار بعض أعلامه الشعراء، فإنه في
إلهياته هذه يصدر عن تجربة معيشة
يتلمس جزئيات صورها من ثانيا ما أحاط
به فلا يستلهمها من دفاتر من سبقوه من
شعراء متصوفة. وهذه علامة فارقة في
قصائده هذه. وهو ما نجده يتجلى واضحا
في مدائحه النبوية، فهو يتخذ منها تعلقة
لبث وجدده وحنينه لزيارة المصطفى صلى
الله عليه وسلم، أو كشف ما أصاب الأمة
من خور وضعف وهوان، أو دعوة لخلاص
وطنه مما ألم به من ظلم وجور وامتهان.

يامولد المختار أيقظ أمة

في حضرموت يزيناها الإسلام

الكون يفتي وهي في غمراتها

لم تصح منها المدن والأكام

عبرت عليها النابيات سواحقا

أترى خلت من أسدها الأجرام (٥٧)

وفي مدائح البار يلتحم الزمان والمكان
في معنى السمو والرفعة لالتحامهما

يعرضون لمقام الذات الإلهية في
أشعارهم. فهم يناون عن الانشغال
بفلسفة الأفكار وبسط وعيهم بالألوهية
بما هي مشكلة ميتافيزيقية، فيحصرونها
في دائرة الابتهاج والمناجاة والفرع إلى
العزیز الجبار ليأمن خائف ويسكن
مضطرب ويرجو مؤمل. لذلك لم تتجاوز
التجربة بعدها الشعري والتخييلي فقلب
عليها ذلك التفكير فلم توغل في سواءه
فلسفيا كان أو شبيها به. وفي الديوان
ثلاث قصائد قالها الشاعر في أثناء مرضه
مثلا أشار، فجاءت كلها في سياق الشكوى
من الداء ومناجاة الله ليزيده من عطائه
موفورا، وابتهاجه ليعجل له بالشفاء:

منك الإعانة والرعاية

وبك الإغاثة والحماية

مالي سواك مؤمل

أرجو نداء لكل غاية

أنت الملاذ وأنت إن

أضنتني الدنيا نهاية

يا رب يا أمل الغريق إذا تردى في الغواية (٥٤)
لذلك كثرت أساليب النداء والالتماس
لعل قطرة من بركاته تشفيه مما يألَم منه:

يا إلهي .. ضاقت علي سبيلي

ودليلي هداك خير دليل

فاهد نفسي إلى صراط سوي

وامسح الشك عن فؤادي الغليل

وامسح الضر والنواس عني

واشف بالطف يا إلهي غليلي (٥٥)

هنا الدعاء وسيلة العاجز لبلوغ المرام.
وإنما كان العجز بسبب المرض الذي شلَّ
حركته، فإزادات حيرته أمام حيرة العقل
على تبين علة ما هو فيه. ومن هنا تلاقى
مرض روحه في حيرتها وقلقها وخوفها مع
ما كان أحس به من وهن في الجسم وعجز
عن التحدي والنشاط. فأنعدم الإحساس
بالابتهاج في أيامه، وغلب الإحساس بالشقاء
عليه مما كدر خاطرا ظل صدأ مفردا:

أقبل العيد والنوازع في نفسي

فلام في بكرتي والاصيل

أقبل العيد فرحة ونشيدا

وهو عندي يبدو كروح العويل

فكان لا بد مما ليس منه بد. التمس سبل

العلاج لدى الوري. لكن نفسه المطمئنة

لربها أبت ذاك عليه، فكان وقوفه أمام

والشاعر في بشريته تتناوشه هواجس
من الإيمان والكفر، ومن اليقين والشك،
ومن الهداية والضلال، ومن التمكن
والحيرة. ولذلك كان (الشعر) بيت السؤال
وإن انطلق من ربوات الهداية واليقين.
هذا الشاعر البار يقف معترفا بما اقترب من
ذنوب، مقرا بخطاياها في حياته، موقنا بأنه
مسير في قدره ذلك بلا مراء:

وانني في حياتي لا مشينة لي

لا السعي سعي ولا التدبير تدبير (٥٣)

وليس في مثل هذا القول جبر أو ما
أشبهه، ولكن تمثل لقول القائل: إن
الإنسان مسير في القدر مخير في الشرع.
ولقد اختار البار الإقرار بذنبه سعيا للتخفيف
من عبئه الثقيل، وأمل في النجاة من وزره.
لكن أيتحقق له ما رام؟ أم يخفق في
مسعاه، ويعود بخفي حنين؟ هنا يكون
الشك محفزا للشاعر على القول، وتتكاثر
الأسئلة:

فهل أعود وأمالي مبعثرة؟

وهل أعود بذنب غير مفعور؟

وهل أعود بآلامي مضرجة؟

على جناح من الآلام مكسور

وهل أعود وآلامي مضیعة؟

وهل أعود وروضي غير معطور؟

حيرة تورث اضطرابا في النفس، لكنها لا
تخلو من يقين يدفع عنها بعض شيء من
تلك الحيرة:

حاشاك تجني على نفس موله

شوقا، وقلب على الإيمان مفطور

والشاعر البار من شعراء الوجدان الذين
يقبلون على متع الحياة يعبون منها ما
يشاءون، وإنهم لمؤمنون بعقيدة الإسلام
وشريعته، ومن ثانيا هذا الجدل يكون
اندفاع في الحياة وكبح، كما يكون كروفر،
فينشط الإبداع إقبالا على الرغبات أو إدبارا
عنها ما دفعها نوازع الإيمان في النفس.
تلك طرائق كثير من شعراء الوجدان عند
عرضهم التجربة الدينية في أشعارهم.

ولقد عرض لها البار في صورتين،
أولاهما مناجاته الذات الإلهية في ثلاث
قصائد اشتمل عليها الديوان. وثانيتها
مدائحه النبوية.

أما الصورة الأولى فالبار فيها مشايخ
أضرابه من شعراء حضرموت حين



بالذات المحمدية، فأحياء ليلة المولد كل عام لا يقل في نظره عن زيارة المدينة المنورة. ففي ليلة المولد إحياء لذكرى مولده: نحيبك يا ليلة المولد... نحيبك للمجد والسود نحيبك للذكر الخالدات... ولغابر المشرق الأمجد ونهفو لذكرك من كل عام... إلى فانض طيب الموردة (٥٨) والمدينة المنورة مولده من أذى قريرش وسوء صنعها معه في حياته، وهي مثواه بعد مماته، قطابت به، وغدت مهوى أفئدة، ومبتغى قلوب:

خذي وقودا من الأشواق عارمة
من كل قلب بنار الشوق مسجور
وسابقي العير في أشواق سرعتها
أولا فطيري على أحلامنا طيري
حتى إذا طيبة لاحت معالمها
فخففي الوطء وامشي مشية العير
وخلفينا نعب النور في لهف
بها لنطفئ منه كل مسعور (٥٩)
فطيبة المكان ما طابت إلا برسول الله
صلى الله عليه وسلم، وغدت ذات مكانة
عالية لا تدانيها فيها بقعة في الأرض في
الشرف، ومن هنا يشتاها البار كآخرين من
أمثاله:

إننا ظمأ إلى شتى محاسنها
مما ترى العين أو من غير منظور
وإنها أمل عشنا به زمنا
هامت به الروح في يسر وتقدير
وإنها غاية الأشواق، تربتها
قد طهر الله منها أي تطهير
وان فيها تراثا قد سما شرفا
فيا تراثا ثوى في هذه الدور
فيها الهداية فيها النور منبسطا
سالت أشعته في كل معمر
فيها الرسول الذي دستورته كلم
فاقت دساتير أرياب الدساتير
وفي مدائح البار النبوية خطاب نوري ذو
نبرة سياسية اجتماعية تنحو إلى الإصلاح
يوم كان السبيل إلى الإصلاح مهيا، وإلى
الدعوة الحارة إلى تغيير المجتمع وتقويض
أسسه المهترئة المتداعية وجدرانه الآيلة
إلى الانهيار يوم صار الحال يتطلب موقفا
مثل هذا. ففي احتفال النادي الثقافي
بالمكلا بمناسبة المولد النبوي يقف البار
هاتفا بشباب ذلك العصر قائلا:
يا فتية البعث الجديد تحفروا
فلعل برقنا في الجواء يشام

وتحينو فرس الحياة وجدوا
فيها فانتهم في الحياة الهام
أنتم غد فامضوا إلى الغد شلعة
تفري الدجى والخالفون نيام (٦٠)
وهذه دعوات تتماهى مع نزعاته
الإصلاحية، ومناشدة بني قومه الاندفاع
المحموم نحو تغيير المجتمع وإعادة
تشكيله على نحو مغاير ومخالف ما هو
عليه على أقل تقدير. ولهذا مضى البار
يتلمس الصورة الثورية في سيرة
المصطفى صلى الله عليه وسلم، وما
اشتملت عليه شمائله الرفيعة من تلك
الصفة، وهو في هذا مشايخ من تأملوا في
الأبعاد الثورية لشخصية النبي وطبيعة
الإسلام ومبادئه السامية.
وبثي طيوبيا من الذكريات

تفوح عن العلم المفرد
عن الشاعر العربي الذي
بدا في الغياهب كالفرقد
وأوحى لصحرائه أن ثبي
وسيري إلى المطمح الأبعد
وسل الجزيرة من شركها
وعيقا، وقال لها وحدي
ونادى العروبة في عيشها
رتيبا. ألا جددي جددي
وكانه يقيم تناظرا بين حال المجتمع في
عصر النبوة، وبين حال المجتمع في عصره
هو. فكما ساد الفساد يوم ذاك ساد في
زمنه وفشا. وإذا كان الخلاص من فساد
يوم ذاك سبيله الثورة عليه متكئة على
مبادئ دينية فلا سبيل إلى دفع الفساد في
زمنه إلا بثورة تستلهم مبادئ الدين الذي
جاء به هذا الشاعر العربي:

وأبدي مبادئ من دينه
بأضوانها يهتدي المهتدي
مبادئ سار بها المدلجون
من الرجل الصبر السهد
فكانت لهم قبسا في الفلاة
وكانت لهم أعظم المرشد (٦١)
وهنا يهيمن الثقافي بأبعاده السياسية
والاجتماعية على الديني بكل أبعاده.
فيغدو الديني مثيرا تستجيب له ذات الشاعر
لتنث من خلاله وعبره كل رؤاها في سياسة
المجتمع والأمة على نحو لا يبعد عن
مناحي الديني وسمات مكوناته المعرفية.

تلك إذا صورة لهواجس الديوان
الموضوعية، أو قل أبرز معالمها فيه. وثمة
ملاحظة وهي اختفاء شعر (الحب) من
ديوان شاعر رومانسي كالبار عرف بغزلياته
واشتهر بها، فهل هو الانشغال بهموم
المجتمع والأمة صرفه عن تأمل ذلك
الهاجس وأثره في نفسه؟ أو هي مشاغله
اليومية في العمل الصالح في منذ
خمسنيات القرن العشرين حتى وفاته؟ أو
هو شعوره أن ما يتقطر من مشاعر حب
وعواطف عشق في نفسه كان يصوغه في
شعر يصح به الفنان المغني بدءا
بالبقري محمد جمعة خان وانتهاا بالفنان
عبد الرب إدريس؟ فغدا شعر الأغاني ذاك
مجالا رحبا لهاجس الحب في شعره، وهو ما
اشتمل عليه عاميا وفصيحا مغنى ديوانه
الثالث الموسوم ب(الأغاني)، وله حديث
آخر في مقام غير هذا المقام.

المكلا في ١ / مارس / ٢٠١٧م

الحواشي:

- (٣٩) نفسه ص ١٧٢.
- (٤٠) نفسه ص ٢٣١ وما بعدها.
- (٤١) نفسه ص ١٩٩ وما بعدها.
- (٤٢) نفسه ص ٢٢١.
- (٤٣) نفسه ص ٢٤٤.
- (٤٤) نفسه ص ٢٥٢ وما بعدها.
- (٤٥) نفسه ص ٢٦٧.
- (٤٦) نفسه ص ٢٢٧.
- (٤٧) نفسه ص ٢٥٣.
- (٤٨) نفسه ص ٢٦٨.
- (٤٩) نفسه ص ٢٦٩.
- (٥٠) نفسه ص ٣١١ وما بعدها.
- (٥١) نفسه ص ٢٢٤ وما بعدها.
- (٥٢) نفسه ص ٢٩١ وما بعدها.
- (٥٣) نفسه ص ٢٣٩ وما بعدها.
- (٥٤) نفسه ص ٢٤١.
- (٥٥) نفسه ص ٢٤٢.
- (٥٦) نفسه ص ٢٧٠ وما بعدها.
- (٥٧) نفسه ص ٢٦٩.
- (٥٨) نفسه ص ٢٢٦.
- (٥٩) نفسه ص ٢٣٧.
- (٦٠) نفسه ص ٢٦٨.
- (٦١) نفسه ص ٢٢٦-٢٣٧.



مقدمة باعيسى لاستئناف الكلمات (في تهويف الشعر الحضرمي)

(١)



الدكتور الناقد عبدالقادر بن علي باعيسى ثبت قدمه في عالم النقد الأدبي كواحد من الأعداء الذين أخرجتهم لنا دوعن من وديانها، كما يُخرج نحلها عسلها من بطونها، فهو معدود الآن في الأقاليم الساطعة في الساحة الأدبية والثقافية بحضرموت؛ كشاهد عظيم على أن الحضرمي إذا واثته الظروف فإنه يستطيع باقتدار أن ينجح ويبدع وهو في قلب بلده الحضرمي، بعيداً عن هواجس المهاجر، التي وإن كانت قد تملأ جيبه وتشبع نهمه، فإنها كثيراً ما تسلبه هويته وتشوه قيمه .

د. باعيسى من الأكاديميين القليلة الذين أدلوا بدلاء ملأى في عالم تخصصاتهم العلمية، والعلم الذي تخصص فيه وبرع فيه هو النقد الأدبي والدراسات الأدبية، فخط في الصحف والمجلات مداد كتاباته التي امتازت بالعمق والرصانة والاحترافية النقدية، فضلاً عن نشاطه المنظم في عدد من الأطر الإبداعية والثقافية التي صارت تتنازع، وتتخطف ثمين أوقاته، ولا يكاد يجد منها فكاً .

من نتاجاته الشعرية .

لكن ليس من شأننا هنا الوقوف لدى تطبيقات باعيسى النقدية، أو نقده الإجمالي وأحكامه القابلة للاستئناف، التي يميل فيها حسبما ارتضى لنفسه إلى صف الحداثة والتجديد الشعري بأشكاله البنائية وطرائقه التعبيرية، فيغضب ويرضى عن هذا الشاعر أو ذاك بحسب معاييرها المائلة في نصوصه، وهو يصرح بها غالباً بوضوح في ثنايا نقده، وكلها قابلة للنقاش الممتع، مع التسجيل هنا أن الدكتور كان ينتقل بين نصوصه على أطراف أصابعه؛ إذ يميل للحذر الشديد في إطلاق آرائه أو أحكامه؛ فيسرف في أسلوبه الكتابي من استعمال مفردات أو إقحامها مثل ربما ولعل ويبدو، أو يحشو عبارته بالجميل الاحتراسية، وهذا يذكرني بحال الفتاوى التي يحرص رجل الدين على أن يضمنها أو يختمها بلفظة والله أعلم وأحكم . إنما في هذه الأسطر نقف عند مقدمته التي صدر بها كتابه المذكور، وأطلق عليها عنواناً خلياً من المتعلق (في تهويف الشعر الحضرمي)، حيث نظر فيها لهذا

ومما فاجأنا به في كتابه الأخير أنه خص به مواطنيه الحضرميين، ولعله الأول في ذلك من نقاد حضرموت المعاصرين بعد مقال نشره الناقد حسن بن عبيد الله السقاف (ت ١٩٨٥) في مجلة الحكمة حمل عنوان (ألوان من الأدب الحضرمي)، مع أنه كتب في أجواء السبعينيات القاتمة حضرمياً، ومثله كتاب (الحركة الأدبية في حضرموت) لسميه عبد القادر الصبان الذي ينتهي إلى خمسينيات القرن الماضي، واصطفى باعيسى لكتابه عشرة من الشعراء الحضارمة متفاوتي الأعمار ومتبايني التيار، واختار له عنواناً اقتبس من أضابير المحاكم وسجلاتها هو (استئناف الكلمات)، ربما ليؤكد أن خلاصة وظيفة النقد أن يصدر حكمه الذي ليس بالضرورة أن يكون باتاً، وإن وصل أحياناً إلى العقوبة القصوى على بعض شعراء كتابه حين يلجأ عن شاعر بأنه "مهمل بالسقوط"، وأنه "من أنصاف الشعراء"، وربما "متشاعر"، واصفاً له بـ "عدم نضج الإنتاج الشعري لديه، وظهوره في صورة من الاضطراب الذي يمكن رؤيته في عدد



د. أحمد هادي باحارثة

وبانتقال باعيسى من عالم الصحائف إلى عالم الكتب والتأليف فإنه قد زود المكتبة على أوقات متفاوتة بعدد من الكتب المفعمة بالأدب والنقد، بمسلك أكاديمي صارم سواء في تناولاته النظرية أو تطبيقاته النقدية لنصوص عدد من الشعراء، ولا سيما أبناء جلده من الحضارمة خصوصاً المحدثين والمعاصرين، ولا نذكر مما اطلعنا عليه من كتبه تطرقه لشاعر قبل الحقبة الحديثة، مع أن تخصصه الدقيق هو في ما قبل العصر الحديث، فغسى الدكتور باعيسى يتحفنا بشيء من ذلك في كتابات لاحقة .



الشعر الموسوم بالحضرمي ما له، وما عليه، وكيف ينبغي أن يكون، وما تعاورته من ظروف أو عوامل أسلمته أو أسلمت ناظميه للحال التي آل إليها من مطلع عصره الحديث، حتى لحظة كتابته لمقدمة التي أرخها بسنة ٢٠١١ سنة الانقلاب الربيعي في العالم العربي، والانقلاب الفكري في قلم واحد من كبار ناقدينا الحضارم.

وقد أتى خلالها بمسائل، وأثار قضايا تفتح بصيرة دارسي الأدب ونقده في حضرموت لحقائق عن أحوال أدبهم وشعرانهم، ظلت غائبة عن أعلامهم من مقالات أو دراسات لفترة قريبة، وبعضها ما زالت في سباتها الغيابي، وتفتح أو ينبغي أن تفتح شهيتهم لدراسة قادمة تفصيلية عما أجملته تلك المقدمة الشاملة، المتضمنة لقدرة كبير من الجرأة لدرجة الصراخ في وجه أو ربما في أذن الشعراء والنقاد على السواء، وسنقف عندها بحسب طبيعة ما تناوله أو تناقشه.

(٢)

ابتداءً أشار الدكتور باعيسى إلى مدى حضور الشعر، بل الأدب الحضرمي في أوساط مختلفة من الوسط العربي العام إلى الوسط المحلي، مخمناً أسباب ما انتهى إليه حول ذلك الحضور الذي يصب في خانة الغياب الشبيه بالتلاشي، فيقول: "تأتي أهمية تخصيص الشعر الحضرمي؛ لأنه ظل مجهولاً على كثير من القراء العرب"، ويعني به بطبيعة الحال الشعر الفصيح الذي تبدو نصوصه "غير ملتفت إليها بعمق واهتمام في الوسط المحلي، ربما لأنه كان وما يزال ينظر إلى الشعر الحديث والمعاصر في حضرموت على أنه دون ما يجب أن يكون"، أو بسبب "عدم تقدير الشعر الفصيح المحلق في الخيال بقوة إلا عند قلة قليلة"، وانتهى إلى القول: "والواقع أن الحقل الأدبي كله غير مهتم بشأنه، شعراً وقصة ورواية، في حضرموت البلد، لا في حضرموت المهاجر".

لن نجادل الدكتور باعيسى في كون أشعار الفصيح "غير ملتفت إليها بعمق واهتمام في الوسط المحلي"؛ لأنه محق في ذلك كما سنبينه، لكن لا نوافقه بأن ذلك القول ينسحب على الوسط الأدبي العربي قراء وناقدين، فالحقائق لا تقره بل

تنفيه قطعاً، فالأم نشير هنا لنذكر حضور الشعر الحضرمي في الساحة الأدبية والنقدية العربية، ولا سيما في النصف الأول من القرن المنصرم قبل نكبة أواخر عام ٦٧، هل نشير إلى ما نشر من أشعار الحضارم في الصحف العربية ولا سيما المصرية، وفي كبرى صحفها الثقافية والأدبية، كالرسالة وأبولو ونحوها، حيث كان بعض شعرنا الحضارم يزاحمون بمناكب عريضة سائر من ينشرون فيها شعرهم، سواء من مصر حيث تصدر أو من



صالح بن علي الحامد

يراسلها في البلدان العربية الأخرى، ولا نعني هنا شعراء مقيمين في مصر، كعلي باكثير أو علي باعبود مثلاً، بل شعراء يبعثون بأشعارهم من قلب حضرموت ولا سيما مدينة سيئون، من أمثال صالح بن علي الحامد، وعبد الرحمن بن عبيد الله السقاف، وأحمد عبد الله بن يحيى وغيرهم. أم نشير لما كتبه الناقدون العرب عن أشعارهم في صورة مقالات ناقدة، أو مقدمات لدواوينهم المطبوعة في بلد كبير كمصر في وقت مبكر من الثلاثينيات والأربعينيات، فديوان طبع في منتصف الثلاثينيات، ونعني ديوان (نسمات الربيع) لصالح الحامد، قدمه الشاعر المعروف أحمد رامي بمقدمة شعرية، وبعد نشره انهارت عليه المقالات النقدية في المجلات والصحف المصرية آنذاك، التي قال الحامد نفسه بأنها إذا جمعت ونشرت لأنت في مجلد كبير، كما تناول شعر الحامد الناقد العراقي هلال ناجي في كتابه (شعراء اليمن المعاصرون) مع شعراء حضارمة آخرين لم نسمع عنهم فيما ألف، وطبع بعده من كتب في تاريخ الأدب في اليمن

مع اطلاعها على هذا الكتاب .
يقول علي باكثير مخاطباً الشاعر صالح الحامد:

يا شاعر الأحقاد لا أفقرت

تلك المغاني من أغاريدك

غرد على العلات فيها فقد

تبعت يوماً من أناسيدك

غرد وإن عرك ذاك الطلب

وضاع فيها منك صوت وصوت

حسبك أن تصغي دنيا العرب

للشاعر الصداح من حضرموت



عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف

إن مصر التي لاذ بأرضها أدباء الشام لاذ بها أيضاً أدباء حضرموت، ولقوا الإكرام نفسه والترحاب من كبار مثقفيها، وكانت الصحف المصرية تصف ذواتهم وأشعارهم بالحضرمية، حتى قال الشاعر المعروف أحمد زكي أبو شادي: "عندنا من طلبة المدارس الابتدائية من يعرفون الكفاية عن حضرموت والحضارم، كيف بمحرري المجلات والصحف"، وحتى إن الناقد الكبير الدكتور شوقي ضيف أفرد حضرموت في سلسلته العتيدة عن الأدب العربي لدى حديثه عن الحياة الأدبية في جزيرة العرب، مستعيناً بمجهود المؤرخ الأديب عبد الله بن محمد السقاف في كتابه (تاريخ الشعراء الحضرميين) المطبوع في الثلاثينيات بمصر بأجزائه الخمسة، لكن الدكتور باعيسى حين ألقى نظرة على هذا الكتاب لم يجد فيه سوى "أن كثيراً من شعراء حضرموت علماء".

وهو بهذا إنما يعكس تأثره السلبي بأجواء ما قرره من أن أشعار الفصيح "غير ملتفت إليها بعمق واهتمام في الوسط المحلي"، حيث قال: "لأنه لا كرامة لبني في



تلك الدراسات التي وثقت شعر اليمن الحديث وترجمت لشعرائه في النصف الأول من القرن العشرين".

أما الأستاذ المعمر جعفر بن محمد السقاف فوصف غياب أعلام أدب حضرموت في كتب مؤلفي الشمال بأنه "ظاهرة ملحوظة".

(٣)

من جانب آخر لكن في السياق نفسه، أي في ما يراه الدكتور باعيسى من ضعف الحضور للشعر الفصيح وشعرائه، يقول: "لقد مرت بالشعر في حضرموت فترات صمت طويلة، لو استثنينا بعض الأسماء البارزة كأبي بكر بن شهاب وصالح الحامد وحسين البار وبعض الشعراء اللاحقين"، ولا نعرف من يعني بهؤلاء اللاحقين وهل هم أحياء كالثلاثة السابقين أم أموات غير أحياء؟ كما لم يحدد مقصوده بفترات الصمت الطويلة، أهى في العصر الحديث أم تمتد إلى ما قبله حتى مائة وخمسين قبل الإسلام حسب تحديد الجاحظ؟ لكن لو رجحنا أن مراده العصر الحديث بقرينة من أورد أسماءهم فأى صمت يعنيه مع وجود تلك القامات الثلاث فضلاً عن من وصفهم باللاحقين، أي صوت يريده بعد تلك الأصوات الثلاثة المذكورة، ثم اللاحقة لها غير المذكورة ولا المعين عددها.

وهؤلاء المذكورون كان أولهم وفاة في بدايات العشرينيات، وآخرهم في نهايات الستينيات (١٩٦٧)، ومنذ عقد العشرينيات والدواوين الحضرية المنشورة تتوالى في كل عقد، ففي العشرينيات ديوان ابن شهاب، وفي الثلاثينيات ديوان الحامد (نسمة الربيع)، وفي الأربعينيات ديوان حسن بن عبيد الله (درب السيف)، وفي الخمسينيات ديوان البار (من أغاني الوادي)، وفي الستينيات ديوان الصبان (في ربيع العمر)، ومن أوردتهم في كتابه الاستئناف يتراوحون في ظهورهم الفني منذ السبعينيات (الجوشي) حتى العقد الثاني من الألفية الثانية، فأين هو هذا الصمت الذي وصفه بالطويل، ومع ذلك فإننا إذا ذهبنا نقرأ في أدب أي منطقة عربية (كالأدب المصري مثلاً) فلن نجد الظهور والحظوة إلا للقامات، وهي دائماً قليلة معدودة، ومع ذلك يحتفون بأدبهم لأجلها وبأصواتها، فحجباً لمن يشكو من

(قصة الأدب في اليمن)، وعبد العزيز المقالح في كتابه (الأبعاد الموضوعية والفنية في حركة الشعر المعاصر في اليمن)، ولم يكن لشعراء حضرموت فيهن نصيب إلا شيسيس يسير، ومن ثم فإن الباحثين - في الداخل والخارج - عن الأدب الموصوف باليمني اعتمدوا على كتب هؤلاء في الأغلب لتأريخ أدب اليمن ونقدها



علي أحمد باكثير

ولاسيما في العصر الحديث والمعاصر، فكان لهم الظهور والحظوة حتى لدى مثقفي الوسط الحضرمي نفسه كنوع من التقليد والصدى لا غير.

وترتب على ذلك أن أبدى عدد من مثقفي حضرموت وكتابها أسفهم وخيبة رجاء من تجاهل الكتابات والدراسات لأعلام حضرموت ودورهم ومكانتهم في الحركة الأدبية، فهذا مثلاً أحدهم يقول في دراسة له عن الشاعر الحضرمي الكبير صالح بن علي الحامد وقد التمس معلومات عنه في مراجع الأدب اليمني المعروفة فقال:

"إذا نحن ألمعنا بصورة سريعة عابرة ببعض الكتب والأبحاث التي تحدثت عن الشعر في اليمن رؤية وفناً فإننا سنصاب بخيبة أمل كبيرة حين لا نعثر فيها على صورة الحامد البارزة كما ينبغي أن تكون".

وهذا آخر بعد أن تحدث عن أحد شعراء حضرموت نجده يقول:

"إنني وأنا أختتم مقالي ليحز في نفسي ونحن نذكر اليوم أدباء اليمن فلا أجد من يذكر هذه العبقرية بما يستحق من الذكر الحسن بين رجالات اليمن وأدبائها".

وقال آخر:

"لا يجد الدارس لشعر عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف أي تفسير يعلل به عدم الوقوف بأناة أمام الشاعر وشعره، وخاصة

أتمه"، فنرى واحداً من نقاد ذلك الوسط يقول: "إننا نقرأ بين حين وآخر أشعاراً لشعراء حضارم ولا نغيرها اهتماماً، لأنها لخلوها من الشعر الجيد بنظرنا تفضلها الصحائف البيضاء"، ويقول آخر: "هم أشعر الناس على الإطلاق في النوع الحميني منه، وحسبك برهاناً على ما أقول دواوين الشيخ عمر بامخرمة، وخو علوي، وبن زامل، وبوريّا، ومن على شاكلتهم، وديوان الجد محسن، وديوان سيدي أحمد بن محمد المحضار، والشيخ القحوم، والعمودي، وغيرهم، ممن لا يضبطهم العد، فإنها شهود عدل على ما نقول".

وانطلاقاً من ذلك اتجه غالب المبرزين من نقاد حضرموت ومثقفها إلى الاشتغال بجمع الشعر العامي، والاهتمام به ونشره ودراسته موضوعاً وفناً، ودراسة أعلامه، يأتي في طليعة هؤلاء محمد عبد القادر بامطرف الذي له دراسات في فن الشعر العامي، أبرزها كتاب (الميزان) في عروضه وأوزانه، وله في أعلامه كتب (المعلم عبد الحق) و(حداد الكاف شاعر الغزل) و(باحسن الرائد والفنان) فضلاً عن الدراسات الأخرى مبثوثة في الصحف والمجلات المحلية، ومثله أو دونه كتاب آخرون مثل أحمد عوض باوزير في كتابه (الشعر الوطني العامي)، وكتب ودراسات أخرى لأمثال عبد الرحمن الملاحي وعبد الله صالح حداد وغيرهم.

ومن ثم رأينا ناقداً حضرمياً يقول عن تلك الحالة: "الشعراء الحضرميون كثيرون ولهم في الإجابة القسط الوافر، إلا إنهم - ويا للأسف - لم ينصفهم التاريخ بعد، ولم يعطهم ما يستحقونه من الشهرة فبقوا تحت ذلك الستار، ستار الخمول والخفاء لم تنتشر أشعارهم في الأقطار الأخرى، اللهم إلا النزر اليسير"، وقال: "العجيب في أمتنا أن يكون للشعر العامي عندهم قدر واحترام، وللشعراء الذين يقولونه مكانة سامية ورتبة عالية وشهرة ذائعة فتتملى بهم الصدور والأسماع وينالون من الجوائز والصلوات ما لا يطمع الشعراء الفصحاء في نيل شيء منه".

وذلك بوقت رأينا فيه نقاد اليمن يعتنون بدراسة شعراء الفصحى ونقددهم لهم، كعبد الله البردوني في كتابه (رحلة في الشعر اليمني)، وأحمد الشامي في كتابه



الصمت وهو يعتلي دوحة تضج بالتفريد، ثم يذهب الدكتور باعيسى إلى أن ذلك الصمت المزعوم ليس له ما يبرره في وقت تتدافع فيه مهيئات أسباب القول الشعري، ولا سيما بعض المآسي التي طرقت حضرموت مشيراً إلى حقبة السبعينيات، حيث يقول: "مع أنه مرت به خلال فترة الصمت تحولات خاصة مؤلمة ودامية بصورة بشعة كسحل المواطنين... والشعر العربي في عمومه ومن خلال تاريخه الطويل يزدهر في الآلام وفي النكسات الخاصة".

أما كون حقبة السبعينيات هي مرحلة تحولات مؤلمة ودامية وبشعة فذلك صحيح بإجماع الحضارم، لكن ليس أسوأها سحل المواطنين كمأس حدثت لأفراد معدودين، بل جرى ما هو أبشع وأشنع في تلك المرحلة العvisية، إنه محاولة طمس الهوية الحضرمية الذي هو بمثابة سحل جماعي للحضارة، وهو التحدي الأكبر الذي عرض حضرموت لهزات عنيفة في كيانها وقيمتها ما زالت تعاني من آثاره، لكن إطلاق القول بالصمت فيه ليس دقيقاً، وبالإمكان العودة للشعراء الحضارم الذين تعرض لهم الناقد اليماني (المقالح) في كتابه (البدديات الجنوبية) لنجد أنهم يعودون للسبعينيات فما بعدها، ومنهم من هو موجود في كتاب الاستئناف، ومن بينهم الجحوشي ونجيب باوزير والبطلاني والجنيد . وإذا كان شعراء داخل حضرموت لم يقولوا في تلك المآسي بصورة مباشرة، في الأقل لظروف الإرهاب الفكري آنذاك، أو كما عبر أحد مؤرخينا عن ذلك الأمر بقوله: "للأسف الشديد أن من كانت عنده ملكة أدبية لم يستطع أن يقف موقف الشجعان أمام ذلك الظلم الغشوم، ولم يصرح بقصيدة أو مقطوعة نثرية؛ لأنه سيقطع إرباً إرباً؛ فسكتت بلابلة الزمان وغرد الوطواط"، فإن الشاعر الحضرمي المهاجر لم يغفل عنها، بل عبر عنها بصورة لا تخلو من عمق وتأثر أسيف لما جرى، سواء من سحل أو سجن أو تهمة سياسي، وهذا أحدهم يعرض لمأساة قريب له من (تريم) تعرض للسجن والتعذيب لأكثر من ثلاث سنوات منذ عام ١٩٧٢، وعندما علم بإطلاق سراحه، وفي إثر سوء حالته الصحية أرسل له سينية، منها قوله:

يشق علي أن تشقى بحبس
وتفرحني تجاكت بعد يأس
من القوم الطخاة الملعدين
إذا بيعوا فلا يشروا بفلس

تطوف وجوههم غبراً عليك
كأنهم شياطين إنس
فلا تجزع بني بما يكون
فأبشر في إراحة كل نكس

ويقول آخر عن حال المواطن في ظل حكم الرفاق:
فهو في ظل حكمكم ليس يحظى
في حياة بعيشة مرضية
فهو دوما مهدد بين سجن
أو أذى أو إقامة جبرية
وهو دوما محاسب في سكون
وانطلاق، ونزهة عادية
ومن يراجع ديواني (حصاد السنين)
للشاعر محمد باوزير، والقيمة التائهة)
للشاعر حسين شيخان يجد فيهما أشعاراً
تعود إلى تلك الحقبة، ومصورة لبعض ما
جرى فيها في سياق شكوى أو سخرية .
(٤)

وفي موضع آخر من مقدمته يرى الدكتور باعيسى أن الشعر الحضرمي لا يمثل الخصوصية الحضرمية بيئة ولا قيماً ولا حضارة، ومن ثم فالذات الحضرمية مفقودة في أشعار الحضارم مع أنهم، كما يرى، يلهجون بذكر فضل بلادهم ومزايها، قال: "ما يلاحظ على الحضارمة هو اعتزازهم بحضرموت، ولكن قلما انعكس هذا في كتاباتهم الأدبية برقي، ربما لأنهم كانت تنقصهم القدرات والتعبير فنياً وبإجادة عن تلك المعاني"، وقال: "إن تمثل الذات شعرياً ما زال مفقوداً، الذات التي يظهر في إطارها الثقافة والبلد التي أسهمت ببصيرة في التاريخ، وربما في تشكيل الوعي الإنساني". لكن الملاحظ على عبارة الدكتور هنا هو الوثوقية الشديدة بتلك الفكرة، وكأنها أمر من المسلمات أو البديهيات، ومن ثم أتى بها في سياق الجزم والتعميم، والذهاب الفوري للتعليل العليل بتوجيه طعنات نجلاء في القدرات التعبيرية والفنية لشعراء بلده، ولم يفده هنا بالذات حذره واحتراسه في إطلاق أحكامه بقلما وربما وما بينهما، وماذا سيقول إذن عن مثل قول هذا الشاعر الحضرمي :

كم من رجال العلم أنجبهم لنش
والدين وادي حضرموت المنجب
وادي شبيه بالمجرة، كله
تور يشع وكل جزء كوكب

ويقول آخر:
يا بلدي إنتي رجل مغرم بالفاتن الحسن
فهو في غبراء حلتته يتحدى أخضر الدمن
تنعش الكسلان تربته وتثير الشعر في
اللحن
وتخيل الرمل منظرها ملتقى الثقديس
والفتن

فسلام يا بني وطني وسلام أنت يا وطني
ويقول آخر:
تعالوا بنا يا قوم نحو مفاخر
تحلى بها آباؤنا السادة الغرر
همو وطودوا لنا عزاً لنا سامي الذرا
ومجداً ريفاً دونه الشمس والقمر
سعوا للعلا والعلم ثم تأثلوا
من المال ما شادوا به كل مقتدر
وفي التقني بمدائن حضرموت يقول
شاعرهم:

دان الطويلة ملء حنجرتي
ومأذن الغناء في أذني
وسنابل العقاد راقصة
من خر أنفاسي على الوهن
والدوعني له بذاكرتي
طلع الحبيب وخجلة الوجن
والغيل من حناها أثر
في كف من أهوى يؤرقني
والليل في سمعون منتجع
يغفو النهار به فيوقظني
والخيسة الزهراء شاخصة
نحوي شخوص الأرض للمزن
حسبي غروراً أنها بلد

الكل يعشقها وتعشقني
أما التاريخ فإن أحد معاصريهم قد سجل
تاريخ حضرموت شعراً، بقصيدة حاكي فيها
سينية البحري في استلهاهم تاريخ الفرس،
وفعل مثله شاعر آخر بقصيدة متعددة
القوافي، ومنها قوله:

استوقف الليل وسل ترجمه
ماذا رأى قبلنا بالعبان
واسأله عن ذات العماد التي
ما خلقت من مثله في الزمان
أين مغانيها التي قد عفت
أين الثمالات وأين المكان
ثم يقول في الختام:



رقت معانيها لرقّة جرسها

فتدفقت نهرًا من الألفان

سكّري بأنفاس الصبا أبياتنا

حبلّى قوافيها بصوت الدان

وقد ألف أحد كبار نقادنا، وهو عمر باكثير، كتابًا عن الشاي في الأدب الحضرمي، طبع حديثًا.

أما في الجانب الثاني فإن من الشعراء من أورد بعض النكبات التي حلت بوادي حضرموت ولاسيما كبرى مدنه كترميم وشبام، يقول أحدهم مشيرًا إلى أحداث الإباضية في عهود الدولتين الأموية والعباسية:

لمعت بشارك يا وادي الغضا

وتوارت عنك أبراج النحوس

طويت صفحة عهد لم يزل

كل يوم في الحمى غاز يجوس

خضيت مروان واديك دمًا

ويدا معن أضافته الرموس

وفي غزو البرتغاليين الآثم لمدينة الشحر الباسلة في القرن العاشر الهجري يقول آخر:

هتحن أبناء من سد الثغور ومن

صد النحور بضرب الصارم الذكر

سل عنهم برتغال الأمس إذ نزلوا

أي القلوب غداة الروع لم تطر

أضحوا طعما لأسماك المحيط وأشب

سلاء لوحش القلا في كل منحدر

أما ما يتعلق بالهجرة الحضرمية فلها أثرها وحضورها في الأدب الحضرمي شعراً ونثراً، وأكثر من صورة، كما إن الجاوي والهندي والإفريقي لهم بعض الحضور، ولاسيما الجنس اللطيف منهم موجود بوفرة في الشعر الحضرمي، وأوفر منه

الشاعر أحمد بن عبد الله السقاف، إلى الزيارات المتكررة كما هو الحال عند أكثر الشعراء كمحمد بن هاشم وصالح الحامد ومحمد الشاطري .

ففي الجانب الأول نجد أن أكثر من أورد أسماءهم لم يغفل ذكرهم شعراء حضرموت في بعض قصائدهم، ولاسيما ما يتعلق منها بالتاريخ وعبره، كالقصيدتين المشار إليهما آنفاً، وهناك من الرموز التاريخية لأعلام حضرمية ما لم يذكره باعيسى أورد بعضها عدد من الشعراء في قصائدهم مثل النبي هود، وقوم عاد، وإرم ذات العماد، والشاعر امرئ القيس، ويعقوب بن يوسف، والمهاجر أحمد بن عيسى، وهذا الأخير صنع أحدهم عنه وعن رحلته إلى حضرموت قصيدة مستقلة ذات بناء موشحي وسياق أشبه بالملحمة، ومنها:

يابن عيسى أي برق شمتة

سرت والدنيا خطوب وشجون

ومضى ركبك نوراً سافراً

تهتدي منه سهول وحزون

وقع إقدامك من صدق الهوى

تتواري منه أرصاد المنون

وهناك شاعر آخر أشار إلى شخصية محمد بن علي باعلوي الملقب بالفقيه المقدم وما يروى عن كسره لسيفه، حيث قال:

وما كسر السيف سيدنا ال

فقيه المقدم إلّ لسان

فما أحسن السيف إذ بالتقى

وبالعلم كان له اقتران

وأما مع الجهل والبيغي والـ

عناد فمجبلة للهوان

ويقول غيره:

وردت حياض العلم صفواً ولم تزل

لدبك عليها لهفة الواله الظمي

فتحذو خطا السقاف أو نجل سالم

وتمثل في سمث الفقيه المقدم

وهناك رموز أخرى غير بشرية تتعلق بحضرموت ذات طابع تاريخي أو اجتماعي تداولها بعض شعرائنا، مثل البخور واللبان والشاي والحناء والدان، وبهذين الأخيرين ختم أحدهم قصيدته:

خذ من صغيرك يا كبير قصيدة

معجونة بالحب والعرفان

من نكهة الحناء غزل خيوطها

ونسيجها من بهجة الألوان

يا فتية الوادي وأبطاله

صوغوا أمانيه بآماله

وضمخوا بالمجد تاريخه

فبشرق السعد بأطلاله

واطووا مآسيه التي أدبرت

واعتنقوا الدهر بإقباله

وكرموا من كان من أهله

أبلغهم نطقاً بأعماله

وأخر أيناها يقول:

أين من عيني عاد

أين كانوا أين عادوا

ملثوا الدنيا خيولاً

وسيوفاً حين سادوا

سائل الإحفاف عنهم

كيف شادوا ثم بادوا

(٥)

وفي طريق تحريره المنطلق عن حضرموت والذات الحضرمية في الشعر الحضرمي ينعي باعيسى على الشعراء الحضارم بالتقصير في ثلاث زوايا تتعلق بثقافة موطنهم تتمثل في رموز الأعلام، وكبار الحوادث التاريخية، ويخص منها حدث الهجرة الحضرمية وأثارها، فنجده يقول في المتعلق الأول: "لم أر أحداً حتى الآن من شعرائنا استبطن التراث الحضرمي بأساطيره ورموزه، كوانل بن حجر الحضرمي، وعبد الله بن يحيى الكندي، وإبراهيم بن قيس الهمداني، ومحمد بن علي باعلوي، ومعروف باجمال، وغيرهم"، ويقول عن الثاني: "لم نقرأ تقلبات المدن الحضرمية تاريخياً في الشعر، كمدينة تريم مثلاً مع غزو عثمان الزنجيلي وشعيب البارقي اللذين أحدثا فيها انقلاباً سلبياً"، وعن الثالث يقول: "ثمة الهجرة الحضرمية التي ما تزال غائبة بصورتها العميقة عن الشعر، فما زال الآخر أياً كان هندياً أو جاوياً أو إفريقيًا غير موجود في الشعر الحضرمي كتصور فضائي أو فني، ولم يحضر الإفريقي والأسوي حتى في السرديات والحكايات".

إن دقة تلك الأحكام ومدى قربها من الصواب يتحدد بمعرفة مدى اطلاع الدكتور باعيسى على نتاج الشعراء الحضارم، واستقراءه لنصوص الشعر الحضرمي الحديث، ولاسيما أولئك الشعراء الذين عاشوا في المهجر لمدد متراوحة طوياً، من الإقامة شبه الدائمة كحال



وصف الطبيعة في تلك البلدان، وذكر لبعض مدنها ومجتمعاتها، ووصف حال الحضارة هناك، إضافة لمنقبة نشر الإسلام في تلك الربوع، وما نشأ في أثره من دول إسلامية، وفي هذا يقول أحدهم:

سل عن بنيهِ من الدعاة وعن مواقفهم
وكيف على الزمان تغلبوا
حتى تشرف أرخبيل الهند بالـ
إسلام وانتظمت ممالك ترهب

ويقول:

يا أرخبيل الشرق شدنا علاً
يحفظه تاريخه العاطر
فجانب الدنيا به عامر
ومظهر الدين به ظاهر
وللشاعر نفسه أبيات تتضمن حواراً بينه وبين فتاة جاوية:

وكلوا بي أغنى أخوي غريباً
زان درعا من الحرير قصيرا
ترك الشعر مرسلأ فهو ليل
أشرق الوجه فيه بدرأ منيرا
...

قال لي ما الذي أراك به مس
تغرق الفكر فيه قلت كثيراً
قال هل أنت مولى القلب يا أسـ
ستاد عفواً فإنما أنا (كيرا)
قلت لا تعجبي فإن فؤادي
رغم ذا الشيب لا يزال صغيراً
و(كيرا): كلمة جاوية بمعنى أظن .

(٦)

ويلقي الناقد باعيسى نظرة فاحصة لحاضر الشعر بحضرموت، ومستشرفة لمستقبله، فالحاضر كما يراه تغلب على شعرائه الميل نحو النمط التقليدي في كتابة القصيدة؛ سواء في بنائها أو في رؤيتها وموضوعها، خصوصاً، كما يرى، لدى الشعراء الشباب من ذوي الميول الدينية السلفية، فيقول: "يشيع الآن في حضرموت كتابة القصيدة العمودية في نمطها الكلاسيكي؛ من علو النبرة وجزالة اللفظ ووضوح المجاز، لاسيما عند الشباب الأشد التزاماً سلفياً... فعندما يقوم شاعر معاصر بتمثل ذلك النمط يقوم بتمثل البنية التاريخية المجردة له متجاهلاً روح عصره... يرون في التقنيات القديمة نموذجاً، وأن إدخال الجديد في التصوير

والبناء الشعري يؤدي إلى إضعافه، ومن ثم إلى إضعاف اللغة، وربما إضعاف الأمة".

إنه يرى في ذلك الالتزام بالقصيدة التقليدية عدة معايب من بينها تجاهل (روح العصر)، واتخاذ موقف سلبي من الجديد في التصوير والبناء الشعري، وهو يقصد هنا شعر التفعيلة وما تلاه من أنماط، والتصوير القائم على الاستعانة بالغموض والرمز والأساطير، وهم يرون ذلك الجديد ولاسيما في جانبي البناء والغموض إضعافاً للشعر يؤدي إلى إضعاف في اللغة قد يؤدي بدوره لإضعاف الأمة في ثقافتها وأصالتها، لكن تلك المخاوف أو الهواجس أياً كانت دقتها لا علاقة لها بالمنتسبين للتيار الديني السلفي؛ لسبب بسيط هو أنها قائمة من قبل حضورهم في الساحة الأدبية، بل منذ طرء تلك المستجدات في المشهد الأدبي العربي اتخذ منها الكثيرون ذلك الموقف، حتى من جانب بعض منظريها لدى من أساء توظيفها أو أوغل في الغموض والتفكيك والتشطي، بل انتقدها ونفر منها حتى من لا علاقة لها بأي تيار ديني مطلقاً، أما وصف (روح العصر) فهو مخملي لا يمكن ضبطه ولا معرفة كنه روحه، ولم يطالب أحد الشاعر بالتقيد بأمزجة عصره ولا حتى بمعطيات بيئته .

وهناك شيء آخر أخذه باعيسى عليهم هو الاتجاه نحو شعر المناسبات، واستدعاء الأغراض التقليدية، والوظائف النفعية للأدب، حيث يقول: "هناك من يرغب في أن يحمل الشعر وظائف اجتماعية وإصلاحية وسياسية، بل دعائية وإعلانية، وأن ينشأ وفق الأغراض والمناسبات"، عمل هنا بطريقة وضع المستقبل مجاوراً للمستحسن لكي تنتقل عدوى القبح إليه لدى المتلقي، فأن يكون للشعر وظائف اجتماعية وإصلاحية وسياسية فهذا أمر كثر رغبوه بل الداعون إليه، لكنه لم يكتف بذلك حتى جاورها بصفتي الدعائية والإعلانية، فهل يرى أن هناك من يرغب حقيقة فيهما، لقد أحضرهما فقط لتشويه تلك الوظائف التي لا يرى نفسه واحداً من الراغبين فيها، وإلا فإن أولئك الراغبين هم أول من يحذر من تلك الصفتين إذا انزلق

فيهما الشاعر، تماماً كما ينزلق كثير من شعراء التجديد في التصوير والبناء المرغوب فيهما لدى باعيسى إلى مهاوي الإيهام والتعمية، وتشترذم البناء الشعري في تفاعيله وسطوره وإيقاعه وموسيقاه، فالظاهرة السائدة عند أكثر النقاد أن كل ناقد غير راغب في تيار أو اتجاه معين يعتمد أن يشير إلى غلاته ليستفيد منهم في تشويه ذلك التيار وإفساده، ولم يكن الدكتور استثناء من ذلك .

لكن الناقد باعيسى مع ذلك بدا مطمئناً إلى أن الكتابة، الراغب فيها أو الداعي إليها والمبشر بها، لها حضورها الذي وإن كان لا يزال ضعيفاً فإنه يتزايد باطراد في الوسط الأدبي الشبابي بحضرموت، فيقول مبتهجا ومتفانلاً: "إن المنجز الإيجابي للكتابة غير التقليدية أخذ يتفتح رويداً رويداً في نتاجات بعض الشعراء في حضرموت كل ما تقدم الزمن... وإن كان بعض الأشعار يتفتح على خجل"، والمأمول من الدكتور ومن هو راغب في ما يرغبه أن يصونوا ذلك (المنجز الإيجابي) من الدخلاء الذين قد يقودونه أو ينزلقون به إلى متاهات تجعله سلبياً فتتفر المتلقين له، وتقلل أعداد الراغبين فيه، فيكون حالهم حينها كحال نازك الملائكة التي اضطرت في النهاية إلى استدعاء الشياطين للتغفير ممن أساء إلى دعوتها في التجديد الشعري. وأخيراً.. كان ممتعاً ومهماً أن يشير دكتور باذخ مثل الدكتور عبد القادر باعيسى مثل تلك القضايا وتلك التساؤلات عن أدب حضرموت وشعرها؛ ليحرك بها ماء تسلس إليه الأسن لطول المكث والركود، ويدفع بالشعر ولو من طرف خفي إلى التنبيه لتلك المناحي التي أشار لغيابها أو ضعف حضورها ليتلقفها الشعراء الشباب ويثروا بها أفكارهم وصورهم على السواء، كما يتجه بالنقد والدراسات الأدبية إلى الاهتمام بها وتتبعها في نصوص الشعراء الحضارم ولاسيما ذوي الدواوين المنشورة، بما يغني الدرس الأدبي في جامعاتنا ومراكزنا البحثية.

ملحوظة: لم يضمّن الكاتب مقاله أي إحالات مرجعية (هوامش) بناءً على رغبته. (المجلة).



جماليات الالتفات في (يا رب سالك)

قراءة في الانسلاخ عن المنحى الغزلي الجسدي إلى المنحى العذري

في نص (يا رب سالك) لحداد بن حسن الكاف

(١)

لم يكن حدّاد بن حسن الكاف مجرد شاعر يَمِرُّ شعره في الآن والمكان حسب ، بل كان حالة شعرية خاصّة شكّلت معالم مدرسة الدان الحضرمي بوصفها نهجاً غنائياً ذا أنماط متنوعة تنطوي تحت مسمّى الدان الحضرمي ، رسمت هذه المدرسة الحدّادية أبعاداً وجدانية وروحانية تتواشج وتموسق أدائها على صعيد تعبير الجملة الموسيقية اللحنية ، وعلى نطاق التصوير اللغوي المشكّل لشعرية النصّ الحدّادي برُمته ، فتجاوزت دانيات هذا الفتى المدلّ حياتياً ومعيشياً - في صورة غير بعيدة عن حياة إبداع غزليات امرئ القيس الكندي ، على الفارق في النهج الشعري - مرحلة الترف الغزلي الفردية إلى أن صارت نسيجاً لا ينفكّ عن نمط الذوق الجمعي الحضرمي الذي تلقى أشعار حدّاد المغنّاة بعطش وجداني أسهم الإيقاع اللحني الموروث كثيراً في رسم ملامح تربة ذلك التلقي الخصبة ، التي ما زالت تنبت فينا حدائق ذات بهجة جيلاً بعد جيل .

يتناوبان مسار اللغة الشعرية على مدار النص ، ممّا سمح لتبدّي حركة حديثة ذاتية نابعة من جهة الشاعر يضطرب فيها حضوره بين الظهور والخفاء ، والإفصاح والتلويح ، والجسد والروح ، والأنا والشعر ، تساوقت هذه الحركة التقابلية ، الثنائية في حدث الصوت الشعري مع فنّ الالتفات الذي ظلّ حاضراً يرسم ملامح جهات ذلك الصوت بين أسلوب (التكلّم) بضمير الـ (أنا) ، وأسلوب (الغيبة) بضمير الـ (هو) ، في نصنا المعنوّ في الديوان (يا رب سالك تخلي) ، لكن قبل الولوج إلى النصّ وتتبع جماليات الالتفات ووظائفه بين (الغيبة) و (التكلّم) فيه ، توجّب التعريف بإيجاز بالالتفات كفنّ بلاغي احتضنته البلاغة العربية في كتبها قديماً وحديثاً ، بل وسمته بـ (شجاعة العربية) .

يُعدّ الالتفات فناً من الفنون البلاغية التي أغفلتها المناهج الدراسية في مستويات تعليمها الثانوي ، وأحياناً الجامعي ، على

بين أيدينا ، فتكتمل بهجة صورتها فيهما ، النمط الأول : التصوير الجمالي الجسدي ، والنمط الآخر : التصوير الوجداني الروحي . ويتجسّد هذان التصويران في نصنا ، في قوله : " قلبي الليلة سمع عنقة " وقوله " تنوح بالصوت " ، الأول يتجلّى في : (عنقة) وهي تصوير لبذخ الأنوثة بالغة الجمال في الوعي الجمعي الحضرمي لجسدية ذلك الطائر الجميل ، الموسوم بثراء الأنوثة - في مفارقة من حيث معنى العنقاء اللغوي - لجمال ذلك الطائر الذي يُجمع التأويل الحضرمي على تشييع أنوثته ، والنمط الآخر ويبدو في : " تنوح بالصوت " فالصوت الطربي المموسق هو منبع الجمال الروحي لهذا الموصوف الجميل ، الأمر الذي يجعل رغبة التشهيّ للواصف أن ينظر في وجهين من الغزل الموائمين لذنيك النمطين ، وهما الغزل الحسي (الجسدي) ، والغزل العفيف (الوجداني) ، وقد كانا حاضرين في نصنا ، حيث أخذ



زهير برك الهويمل

ما كان لهذا الصوت الشعري أن يبُلّل وجداننا اخضراراً من شجن مغناه لو لم يحو سمات أسهمت إسهاماً جلياً في رسم مسارات صدحه ، ولأنّنا موعودون بالوقوف على نصّ معيّن من نصوصه سنقف على سمتين التصقّتاً بنهج وصفه للمحبوبة أو الموصوفة التي يتناولها سياق تصويره في نسيج من غزل فريد ، هاتان السمتان أو هذان النمطان - سمّهما ما شئت - يرسمان لوحة حيّة لهذه الموصوفة في النصّ الذي



الرغم من القيم الدلالية والفنية المصاحبة لسياقات وروده ، كونه يتجاوز في مستوى إجرائه وتوظيفه كثيراً من دلالات الصور البيانية ، والمحسنات البديعية ، المزدحمة بها كتب البلاغة ، وإن كان الالتفات تتنازع علوم البلاغة الثلاثة (البيان والمعاني والبديع) ، غير أن حضوره كان كثيفاً تحت قسم (علم البديع) في كتب البلاغة ، وإن تعددت مسمياته و ماهياته ، ما يهمننا هنا هو ، التفات الضمائر (الغيبة ، والتكلم ، والخطاب) ، والتنقل بينها شريطة أن تكون الذات التي تجمع كل تلك الجهات - وهي تمارس حركة تحويلها - ذاتاً واحدة ، وقتئذ تسمى هذه الحركة الجهوية لضمائر ذلك السياق التفاتاً .

ستتبع قراءتنا جماليات الالتفات بين (أسلوب التكلم) و (أسلوب الغيبة) ودلالاته في نص شهير من نصوص عميد الدان الحضرمي الشاعر حداد بن حسن الكاف هو (يا رب سالك تخلي سرنا مكتوم) ، لقد رسم هذا النص الغنائي الحضرمي لنفسه مساراً خاصاً في ذائقة التلقي ، لا على نطاق حضرموت حسب ، بل على نطاق الوطن العربي بشكل عام ، لما حوى من رفاهية التوصيف الحدادي على مدى مراحل التنامي الشعري في مقاطعه ، فدراسة هذا النص و إغفال الحضور الالتفاتي فيه أمر مبخس لتجليات جمالياته ، لذا آثرنا أن نتبع شيئاً من تلك التجليات في النص ، وفق رؤيا نقدية تنطلق من لغة النص نفسه لتتعمق فيه تركيباً ولغة :

بدأ النص بأسلوب الغائب : (قال الفتى) ، ليشكل جسراً رابطاً مع المحيط الخارج المبلغ بالنبأ منذ البداية :

قال الفتى قلبي الليلة سمع عنقة
تنوح بالصوت والأنغام
يا غارة الله حس في صوتها رقة
باللحن تشجي

نرى النص يعود ليربط هذا المحيط الخارج ، أخذاً به إلى داخل تسريد اللغة الشعرية ، وهي تتجلى في أنماط تصويراتها الداخلية القريبة ، فتوكأ السياق الشعري في ذلك القرب على أسلوب التكلم (قلبي الليلة سمع) ، متحولاً عن أسلوب الغيبة (قال الفتى) - على سبيل الحكاية - فيسمح هنا التصوير

للقلب أن يمارس حاسة السماع عوضاً عن الأذن ليجسد مبلغ ذلك الصوت بأنه تجاوز الحواس الخارجية ، ليسكن الوجدان ومكنه القلب ، لأنه صوت ليس كأبي صوت ، فقد انماز بالرقة وشجن اللحن ، الأمر الذي حوله أن يتخذ من القلب مستقراً سمعياً له ، متجاوزاً الأذنين حتى الغاية التأثرية والطربية ، وهو أسلوب يتواءم مع كون الصوت مظهراً جمالياً ينتج عن



حداد بن حسن الكاف

يختتم المقطع الأول بالالتفات إلى أسلوب الغيبة :
وبنغمها خلت العاشق - (غائب) - ضوى مغروم ، لا شك إن هذا الغائب المغروم هو الشاعر المتكلم السابق ، لكن أسلوب الغيبة أكسبه تعميماً وتوسيعاً لنطاق مكوّنه ليشمل كل عاشق يسمع ذلك النغم المتسلل النافذ إلى القلب الموصول بشدة جماله ورقة نغمه إلى حد الجنون .
(٢)

ليعود في المقطع الثاني ملتفتاً إلى أسلوب (التكلم) : تميت / حيتي / رجلي / أنصت .
راسماً صورة فردية قريبة من أثر ذلك التمسق الشجي ، الذي يصبح به - لا إرادياً - وتداً لا حراك له ، إنه أثر النغم الذي سلبه كيانه المادي ، ليحمله كتلة من الوله المستجيبة لنشوة تردد النغمات الموسيقية النابعة من فم ذلك الكروان ، نغمة تلو نغمة ، بتعبير النص الشعبي : زعقة قفا زعقة ، فلا ثمة حركة مطلقة إلا حركة مركز الحياة ، ومكن الإلهام

تتبع قراءتنا جماليات الالتفات بين أسلوب التكلم وأسلوب الغيبة ودلالاته في نص شهير من نصوص عميد الدان الحضرمي الشاعر حداد بن حسن الكاف هو: (يا رب سالك تخلي سرنا مكتوم)

والالتذاذ بتلك الأنغام وجداناً :
والقلب يدرج على بستانها و يحوم .
يدرج ، أي يتحرك بمسارات دائرية تضطرب وجداً وولهاً ، تتقصى موضع الجمال الحسي من تلك العنقة ، الذي تفصح به لغة النص بأنه (بستانها) أي صدرها ، في منحى عذري عفيف من لدنه : (القلب) ، يقابله منحى حسي من لدنها : (بستانها) ويحوم ، جاء الفعلان (يدرج / يحوم) بصيغة المضارع معطيين حركة الدوران طاقة عظمى في الاستمرارية والتجدد تنبئ عن حجم الأثر البالغ ، فالذي يدرج ويحوم هو القلب ، مكملاً مشوار التقصي والتتبع من عنقة إلى عنقة ، ليفاجئك السياق بأن ذلك القلب الذي تتوالى أفعاله بأسلوب الغائب ، ما هو إلا الشاعر نفسه ، كان متكاثفاً في شقه الوجداني (القلب) ، لتدرك أن السياق قد

الباطن - مقابل لمظهر الجسد السطحي - فيستقبله في نقطة التلقي ، استقبال باطن (القلب) .
وهو يسرد تلك اللغة الشعرية ، يتبدى الصوت المتكلم لديه : (حس) في صوتها رقة باللحن تشجي ، بعد غاية الانبهار : (يا غارة الله) ، فالمقصود بالإحساس هنا الشعور ، في مرحلة تتجاوز حد السماع وجداناً وانتشاءً ، فيضفي أسلوب التكلم إسهاماً في إبراز معزوفة ذلك الصوت الرقيق المنغوم الذي جعله جزءاً من سلطة الأثر المبعثوث بالسجع من تلك (العنقة) ، وهي صورة استعارية تصريحية ، تتشكل من بُعدين رئيسيين ، أحدهما : وجداني (الصوت) ، والآخر : شكلي جسدي (جمال المظهر " عنقة ") الجميلة شكلاً بهذا التوصيف ، ليكتمل الجمال بتموسق شذوها ، هنا ينسل الشاعر كجزء من حبكة درامية النص .



105

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

بالاستغناء عن الأسلوب الخبري واتخاذ الأسلوب الإنشائي، يترك الشاعر فيه مساره الممدود منه إلى مجتمع التلقي، مجتهداً في تحقيق أمنيته السابقة راسماً مساراً جديداً جديداً منه إلى الموصوف، بلغة أكثر واقعية، لغة يفهمها الموصوف من واقع بيئته حيث يضحى البستان (حيطاً)، باللهجة الحضرية الشعبية، لكنّها وإن كانت لغة توسّلية للحصول على المبتغى، فهي تترفع في الطلب إلى التلميح، والتكني عن التصريح، لأنّها في

أدق وأرقّ مكان في ذلك البستان، لتحقيق تلك الارتعاء التي عبر عنها مسبقاً بقوله: (نذقة)، فلا ثمة موانع مالية يمكن أن تعيقه من تحقيق تلك الغاية وإن ظلت هذه الأفعال المضارعة تشكّل لغة هذا المقطع: بالطف (سألطف) / باكون (سأكون) / بامد (سأمد) / بافدي (سأفدي) / يسهل، غير أنّها أفعال متصدّرة بالباء التسويقية الحضرية، التي توازي سين التسويف وسوف في العربية الفصحى، فيترسم لك مشهد مستقبلي في أمنيته

التفت بك إلى أسلوب الغيبة بعد التكلم، وهو يتجلى قائلًا: يتبع الصوت من عثقة إلى عثقة... مسكين حذاء. (غائب) - ما يلتام، فيفتق هذا الالتفات إلى الغيبة من الشاعر نفسه آخر مسكيناً (ما يلتام)، هو أحوج ما يكون إلى الدفاع ودرء اللوم عنه، وكأنّه يُبرزه متهمًا من قبل مجتمع التلقي - في قفص الاتهام، وكان أسلوب الغائب يجسد سبابة الإشارة إلى ذلك المسكين، خالقاً مسافة كافية لإبرازه في حالة المشفق عليه، لتلحق التبرئة مباشرة في قوله (ما يلتام). وإن كانت النوايا المستقبلية تقرر التهمة عليه، لكنها لا تتعدى كونها أمنيته قلبية لم تضح أفعلاً يحاسب عليها القضاء، تتراءى هذه النوايا القلبية في قوله: ويودي - (غائب) إلا وسط بستانها نذقة... بيت وظلي (متكلم).

كأن أسلوب الغائب يجسد سبابة الإشارة إلى ذلك المسكين خالقاً مسافة كافية لإبرازه في حالة المشفق عليه، لتلحق التبرئة مباشرة في قوله (ما يلتام).

مسرح المواجهة المباشرة:

يا صاحب الحيط للمحتاج مد صدقة

زكاة في ذي السنة والعام

والقصد من نخل بستانك نبى بسقة

من قرع هجري

يوم الهجر طعمه يشفي المحموم

ثمة بُعد يتجلى مبثوثاً في لغة الإنشاء الطلبي المتمثل بأداة النداء للبعيد، وفي الالتفات عن المؤنث (عثقة) إلى المذكر (صاحب الحيط) لأنّ في المذكر تحضر رسمية الحوار وجديته، على عكس حميمية القرب والألفة في أسلوب التأنيث، وهو بدوره يقوّي استحالة تحقق الطلب، الأمر الذي حدا به أن يعزف على الوتر الديني الفقهي - استجداء - (صدقة + زكاة)، هذا البعد الوصالي القار في خلد الشاعر، يطمئن إلى الذهاب إليه الالتفات عن المتكلم الحاضر بكثافة في المقطع السابق إلى الغائب: (لمحتاج مد صدقة).

يتعاضد أسلوب (الغيبة) الدال على البعد، وامتداد المسافة الفاصلة بين الطالب والمطلوب، وهو الأمر الذي يبرهنه امتداد الظرف الزماني للزكاة لسنتين: (زكاة في ذي السنة والعام)، دلالة على طول فترة استجداء الزكاة، فلو كانت ستخرج في هذه السنة، من الأحرى بها أن تكون مدفوعة من العام، والتي يقصد بها في عرف الحضارم العام المنصرم.

الشاعر لمّا يتحقق بعد، وقد لا يتحقق ولكنها غرائز تزرعها النظرة إلى الجمال الذي لا تقاومه الجوارح فيجرّ الذات الشعرية إلى حالة التشخيص، عن مجرد حالة التوجدن الداخلية إلى حالة التشهي المادية المحسوسة، وبتعبير أدق من غزل عذري إلى حسي جسدي، لذا كانت تلك النظرة: (ما تقام)، أي لا تتقيّم بقيمة وثمن - لأنها تجسد كل الواقع المائل المتحقق - وهو الأمر الذي جرّ كل ذلك السخاء المالي اللامحدود:

بامد بالاف نقدية لها وثمة بالروح بافدي

يسهل علي في رضاه البذل والتسليم

هذه النظرة التي لا تتقيّم بقيمة مالية هي من فعلت عنصر الانتقاء وحدث التكاثف على الذات في دقة متناهية، وهي التي حرّكت سيل الأمنيات المستقبلية وجرت كل أفعالها في المقطع الذي تتصدّره الأنا الصريحة، المنفردة عن الشريك، لنفاسة الوصف، فالفاعل في كل الأفعال المستقبلية السابقة: بالطف (سألطف) / باكون (سأكون) / بامد (سأمد) / بافدي (سأفدي)، هو ضمير مستتر مقدر بـ (أنا) الأوحّد، فيتساقق إضمار الفاعل في تلك الأفعال المستقبلية وآلية التكاثف على الذات آنفة الذكر.

(٤)

يتحوّل سياق النص في المقطع الخامس من سبيل التوصيف إلى مباشرة آلية القرب،

إذا كان المكان يتمحور في قوله (وسط بستانها) فإن نوعية ذلك المكان وخصوبته أسهمت في مدّ الزمان بفعليين متحررين بحركة المضارع عن سكون آن اللحظة إلى تجددتها (بيت وظلي) أي: أبيت و أظلي، في امتداد واستمرار، لا لذلك القلب المتكاثف بل لـ (الأنا الشاعرة) متكاملة بشقيها الوجداني المتجلي سابقاً، والحسي المادي وتكوينه البشري، في تجلّ و حضور حيّ عن وجدان اللحظة - القار في الشعرية - إلى ماديتها الجسدية، آنئذ يكون الالتفات إلى التكلم قد وصل إلى مرحلة البوح الصريح الذي كان يتغطى على مدار النص بأقنعة التكوين الوجداني البحث تارة: (القلب)، أو سعة التكوين الشعري لمحيط الحدث الشعري: (في الشمس واقف كما من قام)، حتى إذا وصل النص إلى غايته تنكشف تلك الأقنعة عن ذات تواقّة في واقع الأمنيات إلى غاية القرب الوصالي إفصاحاً بعد إلحاح، و بوحاً بعد إحياء.

(٣)

بالطف وباكون بين الغصن والورقة

ونظرة الزين ما تقام

بامد بالاف نقدية لها وثمة

بالروح بافدي

يسهل علي في رضاه البذل والتسليم

تتكاثف أنا الشعر بأسلوب (التكلم) حضوراً وبوحاً، حتى بلغت حدّ الضمور للمكون الجسدي: (بالطف) ليستوعبه



هذا البعد في مسافة تحقيق المطالب ظلت لغة النص تبثه بين ثنايا مقاطعه، وإن لم تصرّح به، فهو يُقرأ في المقطع السادس :

من لا يزكي وسط ماله تقع حقة
ولعاد يرجع مكمل تام

هذه رسالة جليلة مفادها أن الشاعر فقد الأمل من الوصال، لذا لجأ السياق، إلى الغلظة في التحذير وأدخل الموصوف في جملة غير المرَكِّين، فيجفّ ذلك البستان لأن صاحبه لم يؤدّ خراجه، فلم يعد ثمة بستان، يستحق الذكر بل تجف خيراتهِ وتذبل مبهمات جماله وهو المعنى بقوله :

من حالة إلى حالة يأخذ في انتظام مراحلهِ
مسارين، أحدهما رأسي من الأعلى إلى
الأسفل، و الآخر أفقي من اليمين إلى
الشمال، كالاتي :

في صُبع يمينهِ ودَيْتِه أقع حلقة
ولا أقع في يساره زام

راضي ولو كون تحت الطين له دقة
في جبر خلي

لو موت من قبل يأتي يومي المعلوم
كما هو معلوم مما سبق أن محور التلذذ
الغزلي الجسدي كان (البستان) أي الصدر
في الوجهة الغزلية الجسدية، لكن هذا

**في قول الشاعر: (راضي ولو كون تحت الطين له دقة)
تسمو العلاقة في اتجاه علوي مغاير بعيد عن مجرد
الماديات الجسدية المحسوسة المتولدة عن الغريزة
الحيوانية، إلى علاقة روحانية سامية ترتقي بموته
في سبيل من يحب، ويضحي قبره طريقاً يمر عليه محبوبه .**

(وسط ماله) كناية عن تبيده مكوّنًا مكملًا لقوام الجسد يقع في منتصف القوام، فابتعد البستان والحيط عن اللغة في هذا السياق ومعه ابتعد أيضاً احتمال اللقاء والوصول إلى الغاية، هكذا ظلت لغة النص تتعاقد بتنوع سياقاتها، لتؤدي الوظيفة الشعرية الجمالية - بشتى أدواتها - حق أدائها، كما فعل الالتفات متحركاً و جهات الدلالة المنظومة بالسياق ذات البعد وذات القرب، وذات التسريد وذات الإنشاء، فترسم حياة المشهد حية نصرة .

(٥)

لم يكن أسلوب الغائب الوجهة الخاتمة لنصنا بل يلتفت بعده سياق النص إلى (التكلم) حين يبتعد عن حوارهِ مع محبوبته ويدخل في تسريد عائد إلى محيط التلقي، فيكون (أنا) مع بيئة التلقي، (و هو) مع محبوبته البعيد عن نوالها، ففي مقطع يعقب المقطع السادس تراتبياً - وإن لم يكن تالياً له - يبدأ مراحل الانسلاخ عن المنحى الغزلي الجسدي وصولاً إلى المنحى العفيف والوجداني المنبثق عن عشق الروح في آلية ظاهرها لأول وهلة يوحي إليك بجسديتها، لكنها ما تلبث أن تتبدى وجهة عذرية عفيفة، ذلك الانسلاخ

هذا الاتجاه السفلي تسمو به العلاقة في اتجاه علوي - مغاير - عن مجرد الماديات الجسدية المحسوسة المتولدة عن الغريزة الحيوانية المتواشجة بتكوين الإنسان، إلى علاقة روحانية سامية ترتقي بموته في سبيل من يحب، ويضحي قبره طريقاً يمر عليه محبوبه، أنى لحالة كهذه أن تكون وجهة غزلية جسدية في منتجها الجديد؟!

لذا لا تسلم قراءتنا بصحة ما ورد في الديوان - وهو خلاف ما يقدمه المؤدون في نطقهم للكلمة - حين قال الديوان : للـحـقـة، والصواب : له دقة، لأن هذه الأخيرة تخصص المسار له وحده دون سواه، والأولى تعمم المسار لكل داحق وهو معنى فاسد دلالي، وتناى قراءتنا كذلك عما ذهب إليه بعض النقاد من اقتراحهم، (فوق الطين) بدلاً من (تحت الطين) وهم يفتشون عن التلاحم الجسدي، المخالف كما تقدّم لمسار دراستنا من جهة، ومن جهة أخرى أن القبر لا يكون مدفونه فوق الطين بل تحتها، والشاعر كان يتحدث عن ماله بعد موته الذي تمنى تسريع زمنه إن كان ذلك يُرضي محبوبه، ومال بعد الموت هو القبر، وهو الذي صرح به في الشطر التالي : لو موت من قبل يأتي يومي المعلوم .

يمكن بيان مراحل الانسلاخ عن الحالة الغزلية الحسية إلى الحالة العذرية، بالإيضاح الآتي :

المسار الرأسي (متجهاً إلى الأسفل) :

١ - (عنقة)

٢ - (البستان + الحيط)

٣ - (في صُبع يمينهِ ودَيْتِه أقع حلقة)

٤ - (ولا أقع في يساره زام)

٥ - (راضي ولو كون تحت الطين له دقة) .

المسار الأفقي : (في صُبع يمينهِ ودَيْتِه أقع حلقة) <—> (ولا أقع في يساره زام)

هكذا تبثت لغة النص في انتظام بنيته تتعاقد دلاليًا مع حركة الالتفات بجهاته، قريباً وبعداً، وغيباً وحضوراً، لأن الحضور لجهة يعني الغياب لصرتها، والعكس صحيح، فالالتفات هو حركة تحدث وظيفتها آلية في النص ولا تتوقف عند مجرد سردها أو حكيها، ليتجاوز كونه ظاهرة صوتية مسموعة أو مقروءة إلى كونه حدثاً يحول مسار السياق من جهة إلى جهة، رؤيويًا ودلاليًا .

المقطع الذي يلتفت فيه إلى أسلوب (الكلم) عن الغائب، (المحتاج)، يلتفت معه مسار الخطاب مقترباً من محيط التلقي، نرى وجهة الالتصاق بالموصوف تنزل عن محور الغزل الرئيس (البستان)، باتجاه رأسي، وكل ما نزلت ترتقي عذرية، فالمكان الجديد الذي يتمنى فيه الشاعر - على سبيل التشبيه البليغ - أن يصبح حلقة في يمينه، أو ساعة في شماله، حتى يظل ملتصقاً بموصوفه، لكن الذي يصرف هذا الالتصاق عن منحى الغزل الحسي الجسدي - وإن تبدى جسدياً - هو مكان الالتصاق (الأصبع) + (اليد) هذا من جهة، ومن جهة أخرى استحالة الشاعر إلى مكوّن ينأى به عن وصال جسدي (حلقة) + (زام) أي ساعة وقت، وهو الأمر الذي يأخذك إلى تسلسل مراحل الانسلاخ من حالة (جسدية الغزل) إلى وجهة (الغزل العذري)، في نزول عن مكنن تحريك القرائن الجسدية (البستان) إلى اليبدين، ثم بلوغ الانسلاخ غايته في اتجاه إلى الأسفل، في قوله : راضي ولو كون تحت الطين له دقة، هنا يبرز مكنن منفصل تماماً عن الأول وعن الجسد بأكمله، وصولاً إلى (تحت الطين) فليس ثمة ما يربطه بجسد الموصوف، غير أن



107

العدد (5)
يوليو
سبتمبر
2017م

حكايات من المشقاص



بين الحقيقة والخيال ، وبين قصيعر والبحر يروي الأجداد قصصاً لا تنتهي ، ليست العلاقة ودية دائماً ، البحر سر وجود قصيعر ، فلولاه ما قامت بلدة في هذا المكان ، لكن البحر أيضاً أخذ من بيننا رجالاً لم يعدهم إلينا ، ولم يخبرنا أماتوا أم ما زالوا أحياء ؟

اليوم ما بعدش يا لامو وما قرب سرار

وأيقن أن ليس من الذهاب إلى سرار محالة وأبصر من سفينته لامو تغيب عن ناظريه قال:

ما بعدش يا لامو وماقرب سرار ماقرب بنات العسل لي تحت نخل القصار وهذان بيتان عريان فالرجل الذي علم بأنه لن يسمح له بالعودة إلى لامو بعد ما حدث ظهر وكأنه كلما ابتعد عنها بدا يتخلص من ثقل جاذبيتها فيتذكر مناطق في سرار ربي فيها وعرفها ، ففي البيتين حنين للامو وحنين لسرار معاً وهذا مبعث العجب . وبهذا ودع غيوث لامو إلى الأبد وعاد إلى سرار ... ونخلات طوال في أطرافها تسمين خلافاً لحالهن بالنخل القصار وما زال منهن أثر ، أما موقع بنات العسل فسبعة قبور متراسة جنوب سرار قيل: إن تلك القبور لفتيات هزليات قتلن على يد رجل غتيني مختل مر من جوارهن فضحك فصب جام غضبه عليهن فأرداهن قتيلاً معتقداً أنهن يضحكن منه ، وقيل: إنهن أصيبن في وباء حل بتلك المناطق ، وذاك تاريخ لم يوثق وزمن قديم لم يعد يتذكر أمره الكثير .

غيوث بـن عمير الغتيني المتوفى حوالي عام ١٩٢٠ م ، وكان الرجل من كبار القوم . فيما يبدو . فقد ورد اسمه في ضمن الموقعين على حلف بين القيعطي وبيت غتيني في عام ١٣٣٠ هـ .

سافر غيوث في شبابه إلى أفريقيا واستقر به المقام في مدينة لامو الكينية الجميلة فاستهوته ولم يعد لذويه ، وانقطعت عنهم أخباره حتى ينسوا من عودته بعد أن أرسلوا في طلبه الرسل . لم يجد أهل غيوث حلاً إلا إرسال شقيقه أحمد لعله يقنعه بالعودة ، فسافر أحمد في مهمة إعادة أخيه فوصل لتلك الأراضي ، وبحث عن أخيه حتى وجده ، فجلس معه يستعطفه العودة لكن غيوث كان عصياً على الإقناع ، فلم تُنهِ توسلات أخيه ولا وصف شقوق والديه وذويه ، فذهبت الجهود في إقناعه بسلام أدراج الرياح ، فأظهر له بسعد تفكير وجه الاستسلام لرغبته حتى اطمأن ، لكنه دبر له مكيدة بليل ، فلم تبرز تباشير الفجر إلا وغيوث مكبلاً في سفينة شرعية تمخر به مرغماً صوب سرار ، فلما رأى حاله



فائز محمد باعباد

كانت أفريقيا وجهة السفر المفضلة للشباب في الأزمنة الماضية ، يغادرون إليها مع الزعيم - السفن الشراعية التي كانت تذهب إلى أفريقيا في مواسم وتعود ، يقول الشاعر سعيد سالم بلكديش مستحضراً ذلك الزمن:

(لا سافروا أهل الزعيم با سافر

ما بجلس طارح على الباوره

باجيب سمس وحب من أرض مباسا ودار السلام)

ولكن بعض الشباب تستهويه تلك المناطق لجمالها فلا يعود ، ومنهم من تتم إعادته مرغماً باكياً أو حتى مكبلاً . خلدت أبيات من الشعر قصة السراري



حسين حسن بن عبيدالله السقاف

كنتُ حينها في العاشرة حينما اشترى والدي بقرة صغيرة صفراء اللون، لها عينان مُمكَلتان جميلتان. كان يقول لأمي: إنها أشبه ببقرة بني إسرائيل، كنتُ أعتني بها مع أبي وإخوتي وكنا جميعاً فرحين بها.

بمرور الأيام كبرت بقرتنا وكبرت معها فرحتنا بها، أصبحنا نحلب منها لبناً وفيراً يكاد لبسها يملأ جردلاً من الصفيح سعته ثلاثة جوالين . كنا نتعاقب على حلب لبنها مع أمي في حين يُلْقَمها أحدنا الحُزْم الملقوفة بالبرسيم والقصب. كان الجيران يأتون إلينا بآتياتهم وقنانيهم خماصاً ويعودون بها بطائناً من لبن البقرة.

ذات يوم طلب مني أبي أن أذهب بالبقرة إلى (بن شامس) وهو بقار محترف يجيد سياسة البقر.

- هل تريد بيعها عليه يا أبي؟
- لا يا سعيد.. إن لديه ثوراً سيقوم بتلقيحها.

بدا أن والدي قد تفاهم مع البقار بن

على بعضهما ثم عض اليمين منها وهو يقول بغضب وبصوت مرتفع:
- أخطأ الثور الهدف.. اذهب بعيداً
- إنه سيقتلها... ألا يوجد لديك ثور آخر؟

- إنه الأنسب... فقط اذهب بعيداً حتى لا يقتلك أنت... أنت صغير لا تعرف هذه الأمور!

كان الثور يواصل خواره، وما كانت إلا لحظات حتى عاود هجمته على البقرة، في حين كانت البقرة المسكينة مستسلمة في دعة، حتى إنني استشعرت بجرمي لإحضرارها، لتستأثر بشفقتي وعطفي، نهضت ونفضت التراب الأبيض عن جسمي. نظرت إلى البقرة رأيت ريقها ينساب من فيها على الأرض ليبدو وكأنه وتر صُناة لصيد السمك.

* * *

أبعد الثور قدامتيه عن صهوة البقرة واستوى بأربعه على الأرض، كان يحرك رأسه منتشياً (ليحنح) الجرس المربوط على عنقه وكأنه يعلن نهاية مهمته، بدا وقتها كالمصارع الذي فاز بالقاضية بعد أن أبلي في الحلبة. كانت عيناها تتوزعان بين الثور و طرف الزمام الذي التقطته بحذر وعدت أدراجي إلى المنزل.

* * *

في يوم من أيام شهر يناير الباردة قمت من نومي متأخراً، لم يوقظني أخي صالح كعادته، لعله كان مشغولاً

شامس. لذلك خَطمتُ البقرة ومشيت أمامها قاطراً لها، وهي تتبعني محرّكة رأسها وذنبها بكل تَوَدّة إلى أن وصلنا إلى مزرعة (صبيعة)، وهي غرب منتجع (بن داعر)، حيث يسكن (الكاوي) بن شامس. بدا المكان - الأشبه ببيدر لسنا بل الذرة - يعجُ بالآبقار الضخمة ذات السنامات الكبيرة والنوازل والأعناق الشَّحِيمة المتهذلة والقرون النافرة. بدا البقار الطويل الأسمر يضع على رأسه عمامة كبيرة بلون الرمان ويتنرّز بإزار من (المريكان) أو (الكارة) البيضاء، وكانت طريقة تحرّمه بالإزار طريقة يتميز بها البقارة عن غيرهم، وهي أشبه بجناحي الصقر حين يضمهما.

طلب مني البقار بن شامس أن أسوق البقرة إلى ذلك الثور الأبيض المنقوط الذي أشار إليه بسبابته، عند ما رأى الثور البقرة نهض على أربعه هائجاً، وما أن قُرِبَت منه حتى ذهب إلى تشممه، وما لبث أن هجم عليها من الخلف وأدخل فيها شيئاً ما، ولم تكن إلا لحظة حتى أخرجه وقد تحول لونه إلى الأخضر. هممت بأخذ بقرتنا معتقداً بأن الثور قد أتم مهمته، مازال الثور يصدر خواره المفزع الذي زادت وتيرة هيجانه. حتى إن الزبد يخرج من فيه، عند ما قربت من البقرة لأخذها أقبل عليّ ونطحني ليوقعني على الأرض الغبة الناعمة الأشبه ببودرة (المكياج)، ضرب بن شامس براحتيه



ذكرى تائهاة

مسعود علي الغنيني

أصبح تائهاة بعد أن غادر مجبراً تلك المدينة الحالمة ، لم يكن له يد في ذلك فقد مضت سنوات دراسته الأربع مسرعة وكأنها دقائق معدودة، وكانت هي الأجل في حياته !.. أحبها بجنون وتعلق قلبه بها بشغف، فنسيمها العليل يتسلل إلى غرفته محملاً بشيء من بخورها المضمخ بالتفاؤل، فيوقظه كل صباح مترع... يحمل كتبه وينطلق غارقاً في الشجن ، فتلاقيه بابتسامتها المعهودة ورقتها البالغة التي أصبحت كالأفيون بالنسبة إليه فلا يستطيع إكمال يومه من غيرها ... يخطون خطواتهم في ثقة إلى قاعة الدرس، تشجعهما نظرات زملائه المترقبة، والذين أتوا من بيئة بدوية محافظة.. يجلسان قرب بعضهما، يهمسان في شجن، بينما المحاضر الكهل يردد من غير اكتراث محاضراته التي ما فتئ يردد لها طيلة ثلاثين عاماً، فلا يبلغ صداها أبعد من منصته.. ولا يختلف الحال كثيراً في بقية المحاضرات المعتقة والمملة ، ولولا وجودها المفعم بقربه وعيق شذائها الفواح لغادر الكلية منذ الوهلة الأولى... مضت تلك الأيام وبقية الذكرى تطرق ذاكرته بقوة، وطيف خيالها يقطع مسافات الزمن الموهن ليروي له تفاصيل كل لحظاتها الجميلة والعابقة، لا يقطع سوى رنات هاتفه المحمول الذي يحمل صوته الهادئ والهامس ليذيق لحظات الزمن المتجمدة والقابعة في أقصى هوة سحيقة من هذا الوجود المرهق ، حتى أتت تلك اللحظة الغادرة عبر التلفون.

لا أستطيع التواصل بعد الآن . وأغلقت هاتفها المخملي الذي أهداه إليها . لا أثر لها إلا ما خلفته من وجع في قلبه المكلموم.

المطاف على وضع رجلها في جردل اللبن لتفسده. حتى أنها كانت تلوي رقبته ليصل فمها إلى ضرعها وتقوم بمص لبنها . أصبحت البقرة صعبة المراس .

* * *

ذهب والدي إلى الحداد ليصنع لها من صفيحة البرميل فداًمة مشوكة، هي أشبه بالإكليل الذي على رأس تمثال الحرية. وضعها والدي على رأس البقرة ليمنعها من مص لبنها، قامت البقرة في اليوم التالي بثني الزوائد الحديدية الحادة في هذه الحلقة عن طريق ضغطها بالجدار لتتمكن بعد ذلك من رضاعة نفسها من ضرعيها.

أطرق أبي مفكراً في حيلة أخرى تمنع البقرة من رضاعة نفسها، فعمد إلى نسج فداًمة من قضبان الخرسانة اللينة الرفيعة، هي أشبه بالكوفية التهامية، ثم قام بوضعها على فم البقرة لتطويق فكها - لا تُزَع منها إلا وقت أكلها - غير أن البقرة بعد ذلك أحجمت عن الإدراج باللبن ؛ في حين زادت عدوانيتها، أصبحنا جميعاً نخاف منها، لقد تنكرت على حين غرة للصداقة التي بنيناها معاً خلال الفترة المنصرمة، أصبحت تحرر نفسها من وثاقها لتجول في الحي فتنطح هذا وتركل ذاك، وتهيم على وجهها في سفح الجبل المجاور. أصبحنا نُنفق الكثير من الوقت في البحث عن بقرتنا التي اغتدت مشهورة بعدوانيتها في الأحياء المجاورة وأصبحوا يخافون منها.

رفع الجيران الذين كانوا ينعمون بلبن البقرة شكوى بشأنها أمام مدير البلدية. حزننا كثيراً حتى أننا تمنينا لو أن البقرة كانت في الهند، اتخذ أبي قراره بشأنها -دون مشاورتنا- بتسليمها الجارنا الذباح !..

بترتيب لوازم سفره. كانت الشمس قد وزعت أشراطها الذهبية بالتساوي على قمم الجيود البيضاء في الجبل الغربي لتبدو وكأنها تماثيل ذهبية. ما أيقظني هو صوت خوار بقرتنا الذي كان يأتي حزيناً ومتواصلاً ليقطع نياط قلبي، خرجت مسرعاً إليها متلحفاً ببطنيتي الصوفية، وجدت أبي واقفاً أمامها وهي محتضنة برقبته وجسمها بقرة صغيرة في غاية الجمال، بدت بيضاء وعليها نقط سوداء لعلها ورثتها من أبيها، كانت الأم تزبل بلسانها بقايا السائل (الأمنيوسي) من على جسم صغيرتها، الذي مازال ينتشر في الأرض من تحتها، كانت تهش على صغيرتها بذيلها لتطرد الذباب، حاولت أن أمسح بيدي على المولودة غير أن أبي قال والمرارة تعترضه:

- لقد مات...! ولعل عبرته التهمت الحرف الأخير من الكلمة لتذكرها وليذهب ظني بأن المولود ذكر.

- مات...؟ ما الذي قتله؟
- بل ماتت... إنها بقرة... لقد ولدت في منتصف الليل بأحسن حال.. غير أنني استعنت بأحدهم في توليدها لقد انبهر بالمولودة... غير أنه لم يقل ما شاء الله.... لعله عانها.

* * *

حل الحزن بجميع أفراد أسرتي لوفاة البقرة الصغيرة، غير أن البقرة الأم كانت الأكثر حزنًا على مولودتها، لم تعد تأكل البرسيم. قام والدي بإحضار أنواع أخرى من الأعلاف والشعير غير أن البقرة لم تأكل إلا القليل حتى أن اللبن انقطع عنها.

بعد أيام تحسنت شهيتها للطعام وعادت لتدر باللبن، بيد أنها لا تسمح لنا بحلب لبنها، وعند ما نقوم بذلك بالقوة أو بالحيلة تعمد في نهاية



أبو بكر محمود باجابر

ملاحم

وأدرك أن النهر أحرص من أفعى ، إذ
يغير جلده كلما مسه جسد إنسان !
سأعود سأعود إليك ؛ لأراني وأناكل
هذه الأشياء !

" مقبرة وثلاث قنابل وقنديل
وصببة إلخ "

وسأعود بعد ذلك أيضاً !
سأعود بعدد المرات التي يغير النهر
جلده فيها ..

بلا بداية سأعود ، وبلا نهاية إن لزم
الأمر ..

وقد أقوض المتن كله على رأس
الهامش ، إن حاول أن يوازي سوءتي !
وسأحمو الماء من خريطة إدراك الظمأ
، إن تجرأت قشّة عاهرة ، وعرضت
علي المساعدة !

سأعود ، بعد أن أدرب الشيطان على
أداء دوره الجديد ، فلا ينسيني أي
شيء من ملامحي ..

أما بالنسبة للشبان الثمانية العصريين ،
فسأخبطهم ، وسأقفل عليهم
سيستة بنطالي ، وألفهم بالنسيان !
إنهم يفسدون مزاج السماء ، حين
تفكر بقلق في مصير الأرض !

سأعود
وسيكون - حينها - العالم
صغيراً جداً كغرفة نوم في الليلة
الأولى !

وواسعاً جداً ككرة تتشاب في رأس
طفل !

وسأحرص على أن أكون الفتيل
المشدود إلى هاوية ، هي :
" أنت "

ولا بأس علي بعد ذلك
في أن أنسى كل ملامحي !!

وصباح دولة نامية !
وأشياء أخرى أنسانيها الشيطان !!
الشيطان أيضاً
كان أحد هذه الأشياء !

وثمانية شبان عصريون جداً
(يزفون) الفجر في طور بيد فاسد
في اتجاه أرخبيل الملل ..

وخطوة مجهزة بأحدث تقنيات
البأس

والكأس التي لا تُكزع إلا في النهاية !
ونهاية بفستان أبيض يتسع لكل
تفاصيل الحذر !

البداية لا تهم ، سأفترج بداية أخرى
على قدمي

ما رأيك - مثلاً - أن أبدأ من هنا ؟
" فأتسلل خلصة على أصابع شوقي
إلى خزائن البنك المركزي وأحوّل كل
العملة المكدسة هنالك بالقبلات ،
ثم أخرج في الشارع ، وأستوقف
السيارات بشفتي ؛ لتتحول إلى
قبلات هي الأخرى "

لا أظن أن بداية كهذه سترضيك ،
ولكن ليس عليك أن تقلقي حيال
ذلك .

سأجرب بداية أخرى
وأخرى

وأخرى ؛ فلديّ رصيد بدايات يكفي
لحشو كل مسامات التاريخ البشري
وإذا ما فشلت كلها (وهذا وراة جداً !!)
فسأنتزع هذه النزعة السامة من
فؤاد الطبيعة ، وسأعمي عيون
الساعة

وسأنتهي بالعودة إليك
كي أحس لعنتي بيدي
وأذوق عصير جنوني بلسان الانتظار

مقبرة
وثلاث قنابل ..
وقنديل ..
وصببة تختر الليل أعضاء للجبل ..
وجبل !
وفتيل مشدود إلى هاوية ..
وعجيزة هاربة ..
وغابة في منديل !



عبدالله باكرمان

للجرح أغنية أخرى

عن سماء المدينة
المدينة النائمة في سرير الطعنة
الطعنة التي خدشت وجه الحديقة
الحديقة التي شاخت في الطريق
الطريق التي أكلها النسيان

للجرح أغنية أخرى
لا وقت للتشاؤم
والجلوس في انتظار الأصدقاء
على مقاعد المقاهي الصدئة
هم هناك
اتخذوا مقاعدهم
حيث يتكاثرون في الضباب
يلوكون ثرثرتهم الغبية
ويملؤون الشوارع
بالشتائم والأخطاء

كيف نشيد المعنى منهم
والمعاني في أيديهم رماد؟
كيف نعيدهم إلى جوارنا
وذاكرتهم قضمتها اللعنة؟

لن نخسر شيئاً
إذا تهجيننا الفراغ
بلغّة مغامرة
فتحننا النوافذ
وطردنا رائحة الماضي
حتى لا تتبعها الذئاب
حينها فقط
سنشعل الأغنية
لتشرق في العتمة

الفرح تهشم صوته الأثير
تعثر بريح مثقوبة
في مساء قائظ
ينتعل رصيفا مشروخ الضمير
الغبار يطفئ الحقيقة
يلطخ التاريخ ويمضي
تاركاً ملامحه
تزيّف الهواء
وتذكرنا بالهزيمة

لا حكمة تثقب الجدار
الجدار الذي يحجب الموسيقى

للجرح أغنية أخرى
توقفوا عن اللعب
لا وقت لدينا
لتقمص أكثر من دور
الكوميديا السوداء
تؤجل الضحك
وتخدش وجه السماء





د. هيثم كامل الزبيدي - العراق

شَبَّارُ الشُّوكِ *

وأحرق في أغصان الشوك المشابك في جرف الدنيا
للشوك هوياتٌ شتى في لغتي مُد كنت صغيراً أعرفها:
شوكٌ ... عاقولٌ ... وصريمٌ..
وشفلحٌ ... عوسجٌ ... صَبَّارٌ
كسَّوبٌ ... مسمومٌ أعمى
* * *

ما زال اليسروع يروح يجيء ويذرع شوكاً في هذا القفر
وأبي علمني أن أسعى سعيك يا شبار الشوك
في البر قليلاً ما نفقه معنى الوقت
فتمر شمسوس وشموس
والوقت نقسمه شبراً شبراً لبقايا ظل لصبي يتضآل جوعاً في
الرمل
* * *

في البرية نعرف كيف نقيس الوقت بلا رقاص
ونحدد من طول الظل زوال نهارات الأيام
والليل لدينا محسومٌ بظهور النجم

ثم تركت الشمس ورائي والظل الممدود أمامي ومضيتُ
بلا جيبٍ يحمي كفي من البرد الخائن
وأطارد ظلي .. إذ أركض .. يركض
ترتفع الشمس .. فينحسرُ
يخزنني ظل ينحسرُ
فأعوذ بنفسي اللاهثة
من هذا الظل المتضائل
أن يفنى ... أو أن ينكسر
وأعوذ بها كل صباح
من جني التل ومن خفاشٍ - أو ما ندعوه سحير الليل -
والبرد الساخر من ظلي يلفحني بسياط الصبح
ما بال الأشجار تبث هدوءاً في طيات الملح؟
أركضُ ... تركضُ
والغيماة البيضُ يسابقن لهائي
أركضُ ... يركضن .. لهن وجوهٌ متعددةٌ
كجبال بيض .. كنساء يهجن على الرمل الأبيض .. سفن بيض
.. دب .. سرب وحوش بيض ... خيلٌ
وأسبق ظلاً يتضآل مذ في هذا البور نزلت وأنا أذرُع هذا الظل
مراراً

والوقت ضحى فمتى العودة؟
ها قد انهكني المسراح متى المرواح؟
-الزم أرضك ما بال لهائك يا ولدي والوقت صباح!
وأبي علمني أن أدعو اليسروع الأصفر شَبَّاراً للشوك
علمني اليسروع الزحف على أشواك العمر
لاقيس العمر على ظلي
شبراً شبرين ... ثلاثة أشبار





قل : يسروعا أصفر يسري

فأقول، ويخنقني الدمع: يا... يثروعا انفر يثري!

فيقهقه... يخرج من فمه خفاش!

أنخاذل... يقتلني الصمت

- يا أبت قد حان الوقت...

فأشبر ظلي... أضع الشمس ورائي وأسير برجل متعبة!

* * *

أمشي... يمشي..

شبراً... شبرين... يسير أمامي ويضيع حساب الأشبار

* * *

علمني البرّ الأسماء جميعاً أمشي وأردد في سرّي

مطر... قنطرة.. خرنوب.. شوك الشام... عنيب الذيب..

-- ولكن في كانون الأول

لا عنيب الذيب لنأكله

لا شيء سوى الخرنوب اليابس في أعواد الشوك الأجرد

وكنت قطفت ثمار الشوك - كما أسماها الأستاذ-

وندعوها الخرنوب الأخضر

ورسمت على جدران الصف نخيلاً وكتبت اسمي... ولا

أذكر بعد سوى غصن من رمان ينهال على ظهري سوطاً

كيف لأشجار الرمان الأحمر أن تجلد من يخشع من فرط

الرمان؟

* * *

- يا أبت جعت

- خذ كسرة خبز من هذا الكيس وجد شيئاً تأكلها معه

أمضي بين العشب لعلّي أستمري خبزي

بالعشب... لبلاب بري... خَبَاز... أو... مرحى :-

قوقلاء! وبملح القوقلاء خبرنا طعم سباخ الأرض

فأعطتنا الأرض ملوحتها

وبذا أسموننا الملحان...

* مقطع من قصيدة في ديوان للشاعر يحمل العنوان نفسه سيصدر قريباً،

وشبّار الشوك هو اليسروع في لهجة الريف الجنوبي في العراق.

وفصول الأعوام لدينا تتبين في نبت البر والزهر البري يعلمنا

الأوقات،

لا شأن لأيام حياتي بالساعات

فتقيس العمر على ما مرّ علينا من نكبات

ونؤرخ أعوام العمر على الويلات:

عام الفيضة، عام الحصبة

عام الخالوب

وعام النجمة أم ذويل الأكلت كل الولادات

أما أعوام الحرب فظلت تنتظر الأسماء:

سنة سنتين ثلاث سنين...

تتوالى الأعوام السوداء علي فأسرع أشبر ظلي

فلعل الموعد قد حان

ولعل أوان المرواح يجيء

- اصبر يا ولدي فالوقت ضحى ونهار الكانون قصير

- يا أبت جعت وما في جيبني حتى ثمرة!

* * *

ويعود الشبّار ليشبر شبّاك الصف من الخارج

أصرخ: شبّار الشوك! بلا وعي

ويصيح معلمنا ويحك قل: يسروعا!

فأقول على خجل: يثروعا

يضحك... يتهادى... ويقول:





المرحوم غلطان

إلى حين من الدهر. يذكر أن الرئيس السوفيتي (نيكيتا خروتشوف ١٩٥٥ - ١٩٦٤م) انتقد السياسة الدكتاتورية للرئيس ستالين، وقسوة مدة حكمه ثم فتح المجال للمناقشة المباشرة أو عن طريق الملاحظات المكتوبة وتوقف عند سؤال مكتوب غير معروف اسم صاحبه يقول للرئيس السوفيتي: أين كنت يا خروتشوف عندما كان ستالين يفعل تلك الجرائم؟ فسأل عن صاحب السؤال فخيم الصمت فكانت إجابته: أنا كنت بجانب صاحب هذا السؤال، وإذا وصفت الإجابة بالمقنعة أو حتى الذكية فإن الرئيس خروتشوف كان ينتمي لثقافة (لا صوت يعلو فوق صوت الحزب أو الزعيم) ولذلك حالت تلك الثقافة دون ظهور الكلمة الحرة المخلصة، وحسبت أنفاسها في انتظار وصول الزعيم إلى مرتبة (المرحوم) لتبقى فقط إشارة البدء من البطل الجديد والجوقة جاهزة لتحميل (الجثة) كل الخطايا والمثالب.

وهي رميم. أما إذا كان الانقلاب أسود أو أحمر (فالمرحوم) وأهله يحصلون على (نصيبهم) غير منقوص فوق الأرض وتحتها منذ أول ثانية من الزمان. أما إذا تسلط على الناس مرحوم برتبة (سريري) أو بآلية إعادة التدوير فتلك الطامة الكبرى لو كانوا يعلمون. وفي مثل هذه الأجواء يؤسس المتسلط الجديد مجده الخاص بعد أن يحمل زملاءه السابقين أكثر مما يستحقون، وتتصدر الواجهة مصلحة الشعب العليا التي سيحرص عليها آناء الليل وأطراف النهار يسنده في ذلك جوقة جاهزة عابرة لأصحاب القرار في كل زمان مهمتها تضليل الناس وتلميع الزعيم حتى يقوم زعيم غيره يبحث عن مجده الخاص وعشيرته الأقربين، وبهذا تدور الشعوب حول نفسها كثور الساقية بلا هدى أو سراج منير، ويتكرر إنتاجها للبدايات تلو البدايات، وتتوقف كثيرا عند ماضيها تمجد ما هو بعيد منه، وتهدم ما هو قريب دون الاستفادة من تجاربها، وتراكم خبراتها والبناء على الصحيح منها، لهذا فإن ازدهار الشعوب

وتقدمها لن تصنع قبضة الحاكم المستبد الذي يشغل نفسه بالبحث عن الذرائع التي يستر بها عيوبه، ويحيل خيالاته إليها. وهكذا كلما غابت الشفافية عن أنظمة الحكم غابت الحقائق، أو يتأجل البوح بها

ذات يوم كنت وصديق مقیم في مدينة القاهرة نتمشى على كوبري قصر النيل دون أن أكتثر لمخاطر الطريق فنبهني قائلا: هنا في ثقافة المرور وحوادثها (المرحوم غلطان) وهذا المرحوم الذي مات بسبب حادث مروري غالبا ما يكون من سائقي الدراجات النارية أو الراجلين، وصفة المرحوم المباشرة التي تطلق على الضحية تطلق عادة من باب الدعوة له بالرحمة، وهو ما يكرره المسلمون في كل مكان ثم استقرت لتقابل إلى حد بعيد لفظة (الموت) ولهذا عندهم كل مرحوم ميت، وكل ميت وجبت الدعوة له بالرحمة وتأتي استعارتنا لمصطلح (المرحوم) في هذا المقال لوصف من مات من الحكام بيولوجيا أو سريريا أو سياسيا. أما رحمة الله فقد وسعت كل شيء. وعودة إلى تهمة تحمیل (المرحوم) المسؤولية في حوادث المرور الأليمة يلاحظ سرعة تأكيد البراءة أمام ضحية لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، وتحت هذا البند تعضي الأمور في قانون مرور المدن الكبرى بأقل الخسائر على السائقين (والحي أبقى من الميت) أو هكذا هم يقولون، وفي بلدان التخلف الاجتماعي والسياسي سنجد تطبيقات عديدة لهذه المقولة تختلف مشاهدتها وحيثياتها لكنها تتفق في تلبیس (المرحوم) بأكثر مما يستحق متجاوزة بذلك حوادث المرور والأمثلة في التاريخ القريب والبعيد كثيرة فمثلا تجد الحاكم الجديد في الأنظمة العربية الجمهورية يتعامل مع منظومة من سبقه في الحكم بحسب الكيفية التي وصل إليها ولونها، فإذا كان بانقلاب أبيض فغالبا ما يتحصل (المرحوم) على نفس محدود في قبره إلى أن يتمكن الجديد المتسلط فإذا القبور تنبش، والعظام تبعثر



أ. د. عبدالله سعيد بن جَسَّار الجعدي



بريشة: عبد الرحمن الجابري



مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

Hadhramaut Centre for Historical Studies
Documentation and Publication.

من إصدارات المركز

